كلمة العدد

البحرين.. القائد والمسيرة

بقلم: سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

استهل . حضرة صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير البلاد المفدى في السادس عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٧١م كلمته بقوله : [يسعدنا في هذه المناسبة لعيد جلوسنا أن نزف إلى شعبنا أحر التهاني بمناسبة إعلان هذا اليوم من كل عام (عيداً وطنياً) لدولة البحرين وإننا إذ نشارك شعبنا الكريم احتفاله بهذا اليوم الأغر لنود أن نؤكد له تصميمنا على مواصلة السير ببلادنا العزيزة على طريق التقدم والازدهار .] .

أجل لقد حقق صاحب السمو الكثير من الإنجازات بتصميم وعزم خلال ثلث قرن من الزمن وعلى رأسها تحقيق الاستقلال والسيادة التامة لدولة البحرين التي أخذت مكانها بين الدول فانضمت إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة لتسعى من أجل إرساء قواعد المحبة والعدالة والسلام بين الأمم، وقامت حكومته الرشيدة بالإنجازات الحضارية المتميزة سواء على الصعيدين الدولي أو الداخلي ومنها إرساء قواعد الشورى، وتوطيد علاقات الصداقة وحسن الجوار مع الدول

الشقيقة والصديقة، واستقلال القضاء وتنظيم جهازه وتوسيعه وتدعيمه إيماناً من صاحب السمو وحكومته الرشيدة وعلى رأسها صاحب السمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة بأن القضاء واستقلاله عنصر هام من عناصر استتباب الأمن وشيوع الطمأنينة في النفوس والنشاط التجاري والاقتصادي في البلاد . ولحماية وطننا فقد أنشئت قوة دفاع البحرين والذي كان ولا يزال المواطن البحريني هو الأساس في بنائها فهو الذي يذود ويدافع عن بلاده . وكذا الاهتمام بأجهزة الأمن لمكافحة ومنع حدوث الجريمة وحماية المجتمع من كل مكروه ليعيش آمناً مطمئناً يزاول عمله في أي موقع كان . ونظرة إلى الإنجازات الحضارية خلال ثلث قرن مضى من عهد صاحب السمو الأمير المفدى نجده قد حقق ما أعلنه بالأمس في العيد الوطني الأول وفي كل عام يتجدد اللقاء مع شعبه وقد حقق الكثير من الإنجازات . وبتوجيهات من سموه تولي حكومته الرشيدة اهتمامها للناحية الاقتصادية فتجعل ضرورة الاعتماد على مصادر الدخل بدلاً من مصدر واحد فتشجع الصناعة والتجارة والزراعة باستخدام رؤوس الأموال الوطنية في المشاريع الاقتصادية التي حققت الكثير من النتائج المثمرة فأوجدت فرصاً للوظائف وزادت الدخل القومي، ولا تخلو فترة قصيرة من الزمن إلا ويقوم صاحب السمو أميرنا المفدى أو صاحب السمو رئيس الوزراء أو صاحب السمو ولي العهد أو المسئولون على كافة المستويات بافتتاح مشروع موفق . فمن افتتاح لميناء سلمان إلى بناء للمدن العصرية التي لا تزال تؤدي دورها لحل مشكلة الإسكان . وإيماناً بأن الصحافة لسان حال الرأي العام فقد صدرت عدة صحف ومجلات وقد أخذت دورها المشرف في خدمة المواطن وفي كافة مجالات المعرفة . وفي المجال الصناعي أدار بيده الكريمة مفتاح الآلة التي صبت أول سبيكة للألمونيوم، وافتتح مصانع الدقيق، ووضع الحجر الأساسي لمشروع الحوض

الجاف وتأسست في عهده شركة نفط البحرين الوطنيـة، كـل هـذا وغـيره كانت مشاريع موفقة نلمس نتائجها في الوقت الحاضر .

ونظرة سريعة إلى الميزانيـة العامـة وتضاعفـها عاماً بعـد عـام في كـل مرافق البلاد نجد ما يدل على النهضة الشاملة التي شهدتها خـلال ثلـث قرن من تاريخ حكم صاحب السمو الأمير المفدى . وقد أولى سمـوه التعليـم والصحـة والخدمـات العامـة بصـورة خاصـة اهتمامـاً خاصـاً ودلـت الإحصائيات المدونة على تضاعف عدد المدارس والمعلمين والطـلاب في كـل عام نتيجة لما رصد لها من ميزانية تليـق بمكانتـها، وتـوج ذلـك بافتتـاح جامعة البحرين وجامعة الخليج العربي وغيرهمـا من المعـاهد التربويـة الأخرى . وفي (العيد الوطني) من كل عام يلتقي صاحب السـمو بالعـاملين في سلك التعليم وبـالطلاب المتفوقـين ليقـدم بيـده الكريمـة الجوائـز التـي ستبقى ذكـرى تذكرهـم بأميرهم المفدى راعـي العلـم والتعليـم فيدفـع بالآخرين لرفع كفاءتهم ليخدموا وطنهم العزيز .

وفي مجال الخدمات الصحية فقد أولى سموه ذلك الاهتمام برصد سخي بلغ نحو ربع الميزانية في عام ١٩٦٣م ثـم زادت زيـادة مطـردة في كـل عـام فأسست المستشفيات والمستوصفات والعيادات واستقدم الإخصائيون وأرسل أبناء البلاد للتخصص فعادوا ليأخذوا مكانتهم الموفقة في مجالهم الطبي .

هذا نموذج من اهتمامات سموه، وإن الإنجازات التي تمـت في عـهده في مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصاديـة والثقافيـة والإداريـة تحكـي تـاريخ ذلـك الرجـل الكريـم الـذي قـدم جليـل الأعمـال في مرافـق الخـير والإصلاح والعمران .

وإن حديث الإصلاحـات في عـهده حديـث طويـل لأنـه يؤمـن بخلـود العمل المخلص وأن الناس يذكرون تفانيه في بنـاء بلادهـم وسعـادتهم فقد

أحبوه وأخلصوا له لحبه وإخلاصه لهم ولقربه من أنفسهم يجدونه كلهم في مجلسه العام ليصافحوه وهو يرد التحية فيصافحهم ويقابلهم ويسمع منهم فيحل مشاكلهم ثم يساعدهم بسخاء وكأنه يساعد أحداً من أفراد أسرته حين يستجيب لمطالبه مباشرة وبدون حاجب وبروح ديموقراطية تتمثل بالبساطة العربية التي ورثها عن الآباء والأجداد .

نقاط مضيئة

() إعلان الاستقلال

صدر البيان الرسمي من صاحب السمو المفدى بإعلان استقلال البلاد في ١٤ أغسطس ١٩٧١م وجاء في البيان التاريخي الذي أعلنه صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير دولة البحرين وألقاه صاحب السمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء من إذاعة البحرين الساعة الواحدة ظهراً :

"إن البحرين، الدولة العربية المسلمة التي تؤمن بالوحدة العربية كضرورة قومية ملحة يفرضها عليها التاريخ والدين واللغة والثقافة والمصير المشترك .

() في الحادي عشر من سبتمبر ١٩٧١م وافقت اللجنة السياسية لمجلس جامعة الدول العربية على (قبول دولة البحرين عضواً في الجامعة العربية) . كما تقدمت البحرين بطلب الانضمام لعضوية الأمم المتحدة في سبتمبر ١٩٧١م فتمت الموافقة على انضمامها (لعضوية الأمم المتحدة)

واعترفت جميع الدول بالبحرين التي أصبحت رسمياً ذات سيادة على شئونها الخارجية والداخلية .

◦ وفي ١٦ ديسمبر ١٩٧١م أصدر الأمير المفدى الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة بياناً بتكليف مجلس الوزراء بوضع مشروع (دستور حديث متطور للبلاد) يكفل تطبيق المبادئ الديموقراطية السليمة .

◦ ولقد انضمت البحرين في عهد صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة إلى منظمات إقليمية ودولية . كما عقدت في عهد سموه عدة اتفاقيات تعاون على الصعيد العربي والإسلامي والعالمي سواء في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

◦ وشاركت البحرين في العديد من المؤتمرات الدولية عربية وأجنبية لمناقشة قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وقلما تجد مؤتمراً إلا وفيه حضور للبحرين خاصة تلك المؤتمرات الداعية للسلام والتنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي والثقافي، وترأست البحرين العديد من المؤتمرات الدبلوماسية .

◦ في ٩ مارس ١٩٨١م عقد وزراء خارجية دول (مجلس التعاون لدول الخليج العربية) اجتماعاً تم الاتفاق فيه على عقد أول مؤتمر قمة لمجلس التعاون في (أبوظبي) وذلك في يومي ٢٦ و٢٧ مايو ١٩٨١م وفيه صدق قادة دول المجلس على النظام الأساسي للمجلس الذي يتألف من دولة الإمارات العربية المتحدة ودولة البحرين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان ودولة قطر ودولة الكويت .

وتوالت اجتماعات القمة فكانت القمة الثانية في الرياض يومي ١٠ و١١ نوفمبر ١٩٨١م ثم عقدت القمة الثالثة في البحرين من ٩ إلى ١١ نوفمبر ١٩٨٢م، فالقمة الرابعة في قطر . وتواصلت الاجتماعات في كل عام

لتنسيق التعاون والترابط بين الدول الأعضاء في جميع الميادين ووضع أنظمة متماثلة في مختلف المجالات ودفع عجلة التقدم الاقتصادي بما يعود بالخير على شعوب المنطقة .

○ وفي عهد صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة تم إنشاء (جسر الملك فهد) ذلك الجسر الذي يمثل مدى ترابط وتلاحم أبناء البلدين الشقيقين في البحرين والمملكة .

عبد الله بن خالد آل خليفة

البحرين والزبارة

تواريخ وأحداث من

القسم الأول

بقلم

عبد الزهراء العويناتي

البحرين



١٤ - الوثيقة

ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي

الشاعر - كل شاعر مرموق - هو ابن عصره يسجل في أبيات قصائده مخاض تجاربه الشخصية في معترك حياته التي هي جزء من عموم حياة زمانه، وتنعكس على أبياته مجابهات البشر التي تحيطه بإزاء بعضهم البعض، وتنطبع كلماته بأوجه أوضاعهم في مسيرة الديمومة الجدلية بين الإنسان وتحريك الكون بما يخدمه في سبيل البقاء، وتتكتل في مضمون البناء الفكري للشاعر وتتجمع في أساليب أدبه وشعره الروح السائد على شعراء وأدباء عصره من حيث الفكرة الأدبية وطريقة أدائها في أسلوبهم المتبع - شعراً أو نثراً.



وهم يتباينون في درجات وحجم تأثرهم بواقعهم العام - بعد تباينهم في حجم تجاربهم الذاتية الشخصية - والذي يتأثر ظله على الأعمال الأدبية للأديب بقدر حجم ذلك التأثر، ومرد ذلك إلى حدود تفاعل الأديب بالأحداث المعاصرة له ومدى ارتباطه بالأعلام البارزين في زمانه الذين كانت لهم الأدوار المؤثرة على مجتمعاتهم سواء أكانت سياسية أو علمية أو اجتماعية - . وربما لا يوجد خبيران مطلعان على تاريخ البحرين والزبارة يتنازعان في كون الشاعر الأديب السيد عبد الجليل الطباطبائي يمثل دوراً طليعياً بين كافة شعراء وأدباء المنطقة الذين تناغموا مع أوضاعها وألقوا بأضواء أحداثها على ثنايا شعرهم ونثرهم .

إن هذا الشاعر الذي هاجر من موطنه البصرة شاباً غضاً لم يتجاوز السابعة والعشرين ينزل الزبارة في شمال غرب شبه الجزيرة القطرية ليسكن بين ظهراني العتوب الذين كانوا قد ظهروا منذ وقت قريب على الساحة السياسية في المنطقة بقوة يضع لها الساسة حساباً ليعيدوا تنظيم معادلاتهم من جديد .

وهو بحكم علمه الذي حصله منذ نعومة أظفاره في مدينته البصرة، ورهافة عارضته الشعرية، يحتل في قلوب شيوخ الزبارة مكاناً علياً، وتمر الأيام فيحكم علاقاته الودية مع علمائها وأدبائها الذين حطوا رحالهم فيها من شتى بقاع المنطقة، ومن جراء ذلك يأتي معه الزمان في مهجره ليصبح من علية القوم، وتكون له أدواره التاريخية في الزبارة ثم في مهجره الثاني البحرين - التي جاءها ساكناً في عام (١٢٢٥هـ - ١٨١٠م) - .

وثوق الارتباط بالسياسيين والطبقة المثقفة، والقرب من الأحداث، ولّد في شعر ونثر الطباطبائي انعكاسات سجلت لنا بعض ما دار من أحداث في ماضي البحرين والزبارة، وسجلت جوانب من حياة بعض أعلامهما .

كان من المفترض في ديوان الشاعر[1] أن نقرأ كمّاً كبيراً من هذه الانعكاسات التاريخية، لكن للأسف يفاجأ الناظر للديوان بضآلة الأضواء التاريخية الأدبية التي تسجل بعضاً من تاريخ البحرين والزبارة .

أجل، هناك في الديوان تسجيل لبعض حوادث ليست لها علاقة بالبقعتين، وفيه ما يفيد عند الكتابة عن حياة أعلام لم يعيشوا فيهما، وحين جمع ماله علاقة بالبقعتين وهذه المضمومات يحصل منها قارئ الديوان على كم كبير من الملامح التاريخية التي اصطبغ بها أدب الطباطبائي .

ولكن نقول : إن الطباطبائي قد عاش زهرة حياته ومعظم عمره في هذين المكانين - البحرين والزبارة -، وكان على ضوء ذلك وبحكم شدة قربه من أحداثهما - التي كانت كثيرة ومرتفعة السخونة - وبسبب قرب صحبته لعلمائهما يفترض أن يتأثر أدبه بما عاصر من أحداثهما وشخصياتهما وأن يفوق ذلك تأثره الفعلي الذي يطالعنا به الديوان .

إذن نحن في بحثنا هذا - بعد إرجائنا تناول شخصيات المكانين الوارد ذكرهما في الديوان إلى بحث آخر - سنعالج هذا المقدار الضيق النطاق من التفاعل الأدبي في شعر ونثر الطباطبائي مع أحداث الزبارة والبحرين، لكن مع هذه الشحة التي اتسم بها الديوان - نظراً لعمق علاقة صاحبه بالبلدين - سيجد قارئ البحث - كما هو اعتقادي - أن هذه المعلومات التاريخية مع قلتها بالغة الأهمية، وسيبقى الديوان من هذه الناحية "وثيقة تاريخية - على حد تعبير الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة - للفترة التي عاشها - الشاعر - في القرن الثالث عشر، وهو صورة صادقة للحياة التي كان أناس ذلك العهد يحيونها من مختلف النواحي الاجتماعية والأدبية والسياسية[٢] .

حملة عمانية على العتوب

قد لا يجد الباحث في تاريخ البحرين الحديث تاريخاً اختلف فيه كالاختلاف على حملة العمانيين على البحرين في عهد السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي[٣] حتى ليلمس القارئ أرقاماً ومعلومات تكاد تكون متناقضة في أغلبها مما يفضي إلى حيرة وبلبلة في استيعاب ذلك الفتح يصعب على المرء الدارس لهذه الواقعة أن يتعداها بعد قراءة العديد من المراجع التاريخية التي تناولتها وهو يحمل في ذهنه صورة واضحة عن مجريات وتواريخ الحملة .

وإذا رمنا الخروج عن دائرة ذلك الاضطراب، وأردنا تحديد تاريخ تلك

الحملة العمانية، فلا مندوحة عن استعراض عامة الأقوال التي ذكرت في هذا الخصوص، ويمكن حصرها فيما يلي :

١ - في كتابه (دليل الخليج) يذهب لوريمر إلى أن السيطرة العمانية على البحرين ابتدأت بعام ١٨٠٠م[٤].

٢ - أما أبو حاكمة فيذكر أن حملة السيد سلطان البوسعيدي قد وقعت في سنة ١٧٩٩م غير أنه فشل في الاستيلاء على المنامة، لكنه حمل مرة أخرى عليها وتم له الاستيلاء على البحرين سنة ١٨٠٠م، ثم استطاع العتوب إستعادة سلطتهم على البحرين، فعاد السيد سلطان مرة ثالثة ليهاجم الجزيرة من جديد عام ١٨٠٢م، إلا أنه فشل فيما رمى إليه نظراً لمساعدة الوهابيين الفعالة للعتوب في الاحتفاظ بالبحرين[٥].

٣ - بينما روث في كتابه (لمحة عن تاريخ عمان ١٧٢٨ - ١٨٨٣م) فيذكر أن البحرين وقعت بيد السيد سلطان في عام ١٧٩٩م، غير أنه في (مذكرات حول نجد) يقرر أن السيطرة العمانية على البحرين قد امتدت منذ عام ١٨٠١م[٦].

٤ - وفي مؤلفه (لمحة عن العتوب) يحدد واردن تاريخ الهجوم العماني بعام ١٨٠٠م، وفي مؤلفه الآخر (لمحة عن الوهابيين) يحدده بعام ١٨٠١م[٧].

٥ - إلا أن مايلز في كتابه (سيرة السيد سلطان) والتقرير السنوي للإدارة البريطانية في الخليج (١٨٧٩ - ١٨٨٠م) يؤكدان على أن بداية سيطرة العمانيين على البحرين كانت سنة ١٨٠١م[٨].

٦ - أما كيلي فيذكر أن محاولات السيد سلطان للهجوم على البحرين فكانت ثلاثاً، ففي عام ١٧٩٩م حاول الهجوم على البحرين فمني بالفشل، ثم حاول ثانية سنة ١٨٠٠م ونجح في إرغام العتوب على دفع الزكاة، ولكنهم سرعان ما توقفوا عن أدائها مما اضطره إلى شن حملة أخرى عليهم انتهت بانتصاره ودخوله البحرين، ولكن كيلي لم يعين سنة انتصاره - هذا[٩].

٧ - لكن مؤلفاً (البحرين عبر التاريخ) فيبدو مما كتباه أنهما يذهبان إلى أن السيد سلطان لم يقم بمحاولات عدة في دخول البحرين، وأن سيطرته عليها كانت في سنة (١٢١٧ -

١٨٠٢م)، ويستندان في تصحيح ذلك إلى المصادر التالية :

[أ] رسالة القبطان "ستون" الممثل السياسي للدولة البريطانية والمقيم في مسقط، وهي رسالة بعثها لحكومته - كما ذكر المؤلفان - في ٢٠ يوليو ١٨٠١م يقول فيها : "إن غزو البحرين بات وشيك الحدوث" .

[ب] ما ورد في مخطوط (عقد جيد الدرر في معرفة حساب نوروز أهل البحر) لكاتبه جابر بن عبد الخضر بن هلال بن محمد بن بدر، وهو شاهد عيان سجل حوادث هذا الهجوم بقلمه وحددها باليوم والساعة - وينقل المؤلفان نص المخطوط وهو يؤيد ما قاله حيث يصرح ابن عبد الخضر بوقوع غزو السيد سلطان في سنة ١٨٠٢م[١٠] -، وبعد نقل ما يرويه ابن الخضر يمضي المؤلفان ليقولا : "هذه - أي رواية ابن الخضر - هي الرواية الصحيحة التي نعتمد عليها وتصدقها الرواية المحلية، أما ما أورده واردن في مذكراته من أن سلطان بن أحمد البوسعيدي دخل البحرين في عام ١٧٩٩م/ ١٢١٤هـ، ثم دخلها ثانية بعد سنة، وثالثة في السنة التي تليها، فإن واردن كتب بعد عقدين من السنين وهو بعيد عن الأحداث، إذ كان يكتب مذكراته سنة ١٨١٩م وهو في الهند، وقد أخذ عنه لوريمر وكيلي وطائفة من المؤرخين المحدثين، بينما كانت الظروف المحيطة بسلطان بن أحمد في السنوات التي أوردها واردن غير مناسبة له للهجوم لانشغاله في الحوادث الداخلية في بلاده، أما إذا قالوا أن الخلاف بدأ سنة ١٧٩٩م وامتد خلال السنين التى ذكروها حتى حدثت المعركة في ١٨٠٢م فلا يستبعد ذلك"[١١].

والذي أراه أن رواية ابن عبد الخضر لا تتنافى مع ما يرويه كيلي، فالأخير كان ما كتبه عن هذه الحادثة - في اعتقادي الشخصي - هو عين الحقيقة وكبدها، وأدق وأفضل ما قاله كاتب أجنبي بخصوصها، وليس هنالك من تعارض - قد يذكر - بين الروايتين، ويدعم صحة كل منهما :

إنه عندما كان جون مالكولم في طريقه من بومباي إلى فارس والعراق في مهمة رسمية اتجه موفداً من قبل حكومة الهند إلى مسقط وبلغها في ٨ يناير عام ١٨٠٠م، وكان يود أن يقابل السيد سلطان بن أحمد حتى يوقع معاهدة مع الإنجليز بخلاف المعاهدة التي وقعها

عام ١٧٩٨م معهم، ولما سأل عن السيد سلطان قيل له إنه ذهب يغزو البحرين، وفي عودة السيد سلطان من غزو البحرين التقى به مالكولم في عرض البحر ووقعا معاهدة في ٢١ شعبان عام ١٢١٤هـ الموافق ١٨ يناير عام ١٨٠٠م(١٢).

إن عدم تواجد السيد سلطان في الأيام الأولى من عام ١٨٠٠م في بلاده عمان واشتراكه في غزو البحرين لدليل قاطع على أن البوسعيديين قد حملوا على عتوب البحرين في السنة السابقة.

لكن ما الذي يثبت أنهم أعادوا الكرة مرة أخرى فهاجموا العتوب في العام اللاحق - ١٨٠٠م - ؟.

إن هذا السؤال يعيد إلى أذهاننا ما قاله مؤلفا كتاب (البحرين عبر التاريخ) حول اعتماد المؤرخين الغربيين في تحديد تاريخ غزو السيد سلطان للعتوب على ما كتبه واردن، فليس لدينا ما يفيد الجزم بأن مؤرخي الغرب الذين اتفقت غالبيتهم العظمى على حصول حملة عمانية على جزر البحرين في هذه السنة لم يكن استنادهم للقول بهذا التاريخ على ما كتبه واردن.

من جهة أخرى لا نستطيع التيقن من أن هؤلاء المؤرخين لم يرجعوا في قولهم بالغزو الثاني إلى مستند وثائقي بريطاني أو غير بريطاني قد سبق واردن في القول به وتحديد وقوعه، فضلاً على أن تأخر واردن في الكتابة عن الفتح العماني للبحرين بما يساوي أقل من عقدين من الزمن لا يقتضي التشكيك في صحة ما كتب، فلعله رجع إلى ما يثبت حدوث غزو ثان في عام ١٨٠٠م ولاسيما إذا وضعنا في الأعتبار أنه أراد في كتابته حول العتوب إعطاء تقرير تاريخي لدوائر الاستعمار البريطاني، وإذا أراد ذلك فمن الضرورة بمكان أن يعتني أقصى الاعتناء بدقة المعلومات التي يقدمها لتلكم الدوائر مما يلقي على عاتقه عبء تقصي جميع الوثائق البريطانية التي بين يديه والمتوفرة له بسهولة لكونه عضو حكومة بومباي ومساعد المقيم في الخليج، ولسنا نتصور خلو هذه الدوائر من وثائق كتبها مندوبوها ومعتمدوها ورجالاتها المتواجدون في الخليج ذكرت فيها هذه الواقعة لكونها حدثاً مهماً وكبيراً بالنسبة للمنطقة ليس من السهل وقوعه ومروره دون تسجيله في بضع وثائق إن لم يكن في وثائق كثيرة(١٣)، وعدم وجود هذه الوثائق في وقتنا الحاضر - على فرض عدم وجودها - لا يعني أنها لم تكتب، لأن من المعلوم أن كمًّا ضخماً من

الوثائق البريطانية التي سطرها رجال شركة الهند الشرقية الإنجليزية قد تلف أو أتلف، ويُستبعد ضياع أو تلف تلك الوثائق خلال أقل من عقدين من الزمن ذلك لآن الهدف من كتابتها يفرض وضع أقصى أنواع الحماية لها من الضياع أو التلف لاسيما مع عدم مرور مدة طويلة من كتابتها قد تفقد خلالها بعض أو كل هذه الوثائق .

وعلى أي حال لا يوجد مبرر لدينا يدعونا لرفض تكْرار السيد سلطان البوسعيدي لغزوه العتوب مرة ثانية في ١٨٠٠م مع وجود هذا الاتفاق الكبير على وقوعه وانعدام معارضة حصول الغزو الثاني لرواية ابن عبد الخضر المؤكدة على غزو آخر في عام ١٨٠٢م، والمؤرخ البريطاني كيلي المبَرِّز في الاطلاع على تاريخ الخليج لا يفوته - كما مر - ذكر السبب الذي دفع بالسيد سلطان للغزو ثانية، وهو سبب معقول حيث أن النصر لم يحالفه في حملته الأولى على العتوب فاضطر إلى حملة أخرى تكون - بطبيعة الحال - بعُدة وعدد أكثر وأفضل من الحملة التي سبقتها .

بيد أن الحملتين لم تكونا حاسمتين لصالح البوسعيديين كما لم تكونا خطرتين على تاريخ العتوب السياسي كالحملة الثالثة، فإن الحملة الأولى باءت بالإخفاق والثانية يبدو أن نتائجها لم تتجاوز فرض دفع الزكاة على العتوب والتي لم تمر عليها عدة شهور إلا وتخلص العتوب من الالتزام بها، ولهذا كانت الحملة الثالثة هي الأجدر بتحديد تاريخ الوقوع حيث تم فيها للعمانيين السيطرة على البحرين واضطر العتوب إلى النزوح عنها إلى الزبارة وغيرها(١٤) .

وقد كان كيلي المؤرخ الحذر المحتاط بالنسبة لتاريخ وقوع الغزو العماني الثالث قد اكتفى بالإشارة إلى حصوله دون تحديد سنة حدوثه، وأما بقية المؤرخين وبالخصوص الغربيين فإنهم لم يتفقوا - كما رأينا - على سنة معينة له بعد عدم اتفاقهم على عدد مرات الحملات العسكرية التي قام بها السيد سلطان على البحرين .

غير أن مصنفَيْ (البحرين عبر التاريخ) قد وفقا إلى تحديد تاريخه بما مر علينا عندما رجعنا إلى كتابة ابن عبد الخضر أحد من عاصر ذلك الفتح ودونه بالساعة واليوم والشهر والسنة فكان تسجيلاً غاية في الدقة، لكن قد لا يطمئن إلى رواية ابن عبد الخضر حيث لا تفيد - كما يقول علماء أصول الفقه -

إلا خبر الواحد الذي لا يقطع الشك، وإن ابتغينا حينئذ اليقين الذي يبتر الشك فليس إلا ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي باتراً وقاطعاً له، ففيه ما يعضد رواية ابن عبد الخضر ويؤكدها بما لا يترك مجالاً للتردد في القول بصحتها والأخذ بها، فهاهي السطور الممهدة للقصيدة الرابعة من الديوان[١٥] - والتي أنشأها الطباطبائي مجاوباً لصاحبه عثمان بن سليمان بن داود البصري (١١٧٠ - ١٢٢٦هـ) تشخص لنا أن الغزو كان واقعاً في سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م وهي السنة التي قال فيها الطباطبائي قصيدته - هذه - عندما أرسلها من البصرة إلى صاحبه بالزبارة التي وقعت إذ ذاك - كما تذكر هاتيك السطور - تحت حصار أسطول العمانيين[١٦].

إضافة إلى هذه المعلومة التي تتضافر مع رواية ابن عبد الخضر في التأكيد على تحقق الحملة الثالثة للسيد سلطان البوسعيدي على العتوب في عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م تزودنا سطور التمهيد بمعلومة تاريخية مهمة أخرى، فهي تذكر أن محاصرة الزبارة - والتي كانت كما يظهر جلياً متزامنة مع محاصرة البحرين - قد دامت أشهراً، وهو الأمر الذي يتلاءم مع رسالة القبطان (ستون) عندما أحاطت قارئها علماً بوشوك ابتداء العمانيين بغزو البحرين في ٢٠ يوليو ١٨٠١م، وهذا معناه - إذا أعطينا أقصى مدة لتفسير لفظة [الوشوك] بثلاثة أشهر - أن الغزو الثالث ابتدأ في النصف الثاني لعام ١٨٠١م وأتم أهدافه بفتح البحرين عام ١٨٠٢م، الشيء الذي يصحح قول من ذكر بأن عام ١٨٠١م قد شهد ابتداء التواجد العماني عند جزر البحرين، ذلك لأن تمهيد القصيدة - المشار إليها - لم يحدد تاريخ ابتداء الحصار وإن صرح بوقوعه في عام ١٨٠٢م لكن مع مقارنة رسالة (ستون) بالتمهيد نخرج إلى أن التمهيد والرسالة يصحح أحدهما الآخر مما ينتج عنه صحة الأقوال التي ذهبت إلى تحديد سنة ١٨٠١م تاريخاً لابتداء الحضور العماني على شواطئ البحرين والذي - كما أعتقد - قد فسره خطأ أصحاب تلك الأقوال على أنه بداية السيطرة العمانية على البحرين.

وإذا اتبعنا أسلوب المقارنة بين رواية ابن عبد الخضر ورسالة (ستون) وأحببنا الاقتراب من تحديد المدة التي

استغرقها حصار السيد سلطان البوسعيدي للبحرين، فإنها لن تقل عن سبعة أشهر تنتهي في عصر يوم الجمعة الثاني من أكتوبر لعام ١٨٠٢م وذلك على حسب تحديد ابن عبد الخضر لوقت توقيع المعاهدة بين السيد سلطان والعتوب(١٧) والتي على إثرها تم للعمانيين السيطرة على البحرين، وهذه السبعة الأشهر - أو أكثر منها بقليل - تتفق مع طول غربة الطباطبائي عن الزبارة حيث يقول يشتكيها لصاحبه عثمان بن سلمان البصري في قصيدته :

طويل اغتراب وافر الشوق كامل

الغرام وحبي ليس بالمتقارب(١٨)

ولعل مما يتفرد به التمهيد والقصيدة الممهد لها على كافة ما كُتِب عن حملة السيد سلطان الثالثة أفادتهما ثلاثة أشياء لها قيمتها التاريخية :

أولها : إن الحملة قد امتدت مساحتها لتشمل بقعة تصل إلى الزبارة فتحاصرها قوات البحرية العمانية، وهو ما له دلالة على أن الحملة قد ضيقت الخناق على عتوب البحرين وأغلقت دونهم أي منفذ قد ينتقلون إليه، وربما كان هذا التخطيط العسكري مردُّه الدروس التي اتعظ بها السيد سلطان من حروبه مع العتوب ومن طرقهم في مجابهتهم لأعدائهم حيث يلجأون إلى الزبارة حينما يضعفون في الصمود أمام عدوهم ويتربصون به الفرصة ليستردوا منه البحرين في حال ضعف سيطرته عليها .

إلى جانب هذا قد يكون من دوافع حصار الزبارة أيضاً في ذات الوقت الذي تحاصَر فيه البحرين منع وصول أي مدد يرسل للعتوب من جهة العتوب الذين مازالوا باقين في الزبارة بعد استيلائهم على البحرين، وتؤيد الالتفات إلى هذه النقطة لدى السيد سلطان رواية ابن عبد الخضر حيث ذكرت أن الأسطول العماني قد انتشر حتى القطيف والعقير وحاصرهما بحراً(١٩) مما يشير بقوة إلى إرادة العمانيين إحكام طوق حصارهم على العتوب للحيلولة دون مناوراتهم والاستعانة بالزبارة أو السعوديين، بل ربما ما تذكره بعض المصادر من تهديدات السيد سلطان لعتوب الكويت وامتداد تواجد أسطوله حتى شواطئها(٢٠) ما يدل على مدى إجادة العمانيين لإحكام طوق حصارهم على

عتوب البحرين وفصلهم عن أي مساعدة من أية جهة قد تقدمها لهم .

ثانياً : واتساع العمليات العسكرية للأسطول العماني لم يتأت له القيام بها إلا لأنه كان على حجم كبير من القوات البحرية والسفن الضخمة الكثيرة، وليس هناك من المصادر ما يؤكد لنا ذلك سوى ديواننا - هذا - حينما يفصل الطباطبائي بعض الشيء في تعداد السفن الغازية ويلمح إلى كثرة بحارتها بقوله :

نأت دار من أهوى وعز مزارها

ومن دونها قد حال قرع الكتائب

وسُدَّ طريق القرب منها بخمسة

وخمسين جلاً من عظام المراكب

ملاءًا جموعاً للعدا كل جحفل

يدك الرواسي من زئير المقانب[٢١]

ففي هذه الأبيات يبين الطباطبائي بأن سفن الغزو العماني كانت من كبار المراكب وعظامها، وأن عددها يصل إلى خمس وخمسين سفينة وكل واحدة منها مملوءة بالمقاتلين الأشداء .

بيد أن البيت الثاني يختلف ضبطه في كتاب (البحرين عبر التاريخ) عن ضبطه في الديوان حيث ضبط في الأول كالآتي :

وسُدَّ طريق البعد بيني وبينها

بستين جلاً من عظام المراكب[٢٢]

فعلى هذا الضبط يرتفع الرقم بالسفن المشاركة في غزو البحرين ليصل إلى ستين سفينة، وبالتالي فمن الطبيعي - عادة -أن تكون أعداد الرجال الغازين على وفق هذا التعداد للسفن يفوق أعداد الرجال على ضبط عدد السفن حسبما في الديوان .

وأما ثالث الأشياء التي تفردت بها القصيدة - المشار إليها - وتمهيدها : فهو وجود العناصر الموالية من أبناء الأراضي المغزيَّة للغزاة العمانيين، وقد ظهر ولاؤهم في بث الأخبار المضخمة للأحداث المصاحبة للغزو والمعظمة لبأس العساكر العمانية، وفي العمل على إذاعة ما من شأنه إدخال الرعب في قلوب من تمنيه نفسه تقديم المساعدة للعتوب وزرع الخوف في نفوس من يكنون لهم الحب والولاء، وقد انتشرت تلكم العناصر في أرجاء المنطقة وأوصلوا دعايتهم إلى مدينة البصرة حتى طرقت مسامع شاعرنا الطباطبائي فآلمته الأخبار التي آلت باله، وانقطعت الأخبار الصحيحة دون بلوغها البصرة مما زاد من حزن وكمد الشاعر، فلنقرأ -

معاً – التمهيد وهو يشرح لنا حالة الشاعر – هذه – : "**وقال الشاعر مجوباً لصاحبه عثمان بن سلمان عن مقاطيع ومواليا رفعها الشاعر إليه وهو إذ ذاك في البصرة وقد أقلقه محاصرة سلطان بن سعيد إمام عمان للزبارة، وانقطاع الخبر الصحيح عن الأهل والأولاد مدة أشهر، وتزوير أكاذيب يروجونها دواعي سلطان ويذيعون عنها أخباراً مؤلمة، فقلق الشاعر لذلك، فأنشد هذه القصيدة مشيراً بها لنفس الواقع**"(٢٣) .

وهذا الذي جاء في التمهيد يؤكده الشاعر في القصيدة ببيته :

فلا خبر بالجزم يرفع عنهم
وحالي في حفض من الشوق ناصب(٢٤)

وعند التأمل في الحصار العسكري الذي ضربه السيد سلطان البوسعيدي على البحرين وعلى الجهات الأخرى التي من المحتمل أنها تقدم العون لعتوب البحرين، ومع التأمل – أيضاً – في عملية نشر الأخبار الدعائية لصالح العمانيين وضد العتوب المواكبة للحصار تتضح حينذاك الخطة المحكمة العسكرية والسياسية التي حبكتها العقلية الذكية للسيد سلطان، وقد استطاع بإجادته للحصار أن يمنع تسرب أخبار الأحداث لبقية بلدان المنطقة عن طريق خصومه العتوب مضيقاً بذلك عليهم إخراج الأخبار التي تصب في صالحهم، وقد عبر في التمهيد عن ذلك بـ "انقطاع الخبر الصحيح"، وهو تعبير يدل من جهة أخرى على تماسك الحصار والتطويق التام .

وقد خطر لي فجأة وأنا أكتب هذه السطور خاطر ظريف قد يهدم صحة ما أورده الشاعر في أبياته وهو يعدد السفن ويصف حجمها ويشير إلى أعداد القوات العمانية وضخامتها، والقارئ اللبيب أظنه قد فهم ما سأذكره قبل ذكري له، وهو هل ما قاله الطباطبائي شاعرنا في قصيدته حول العساكر العمانية وعدد سفنها هو من تلكم الأخبار التي يروجها عملاء السيد سلطان أو هو من مصادر إخبارية يثق بها جاءته من الطرف الآخر أعني العتوب المحاصرين في البحرين ؟، تساؤل يشكك فيما ذكر في ثاني الأشياء التي تفردت بها القصيدة الرابعة من ديوان الطباطبائي وتمهيدها على غيرها من مصادر التاريخ . وما يلوح في سياق تعبير التمهيد يزيد هذا التشكيك تفاقماً وتأكيداً .

عبد الزهراء العويناتي – البحرين

الهوامش

١ – طبع ديوان الطباطبائي المسمى بـ (روض الخل والخليل ديوان السيد عبد الجليل) طبعته الثانية في عام (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) بتحقيق ياسين الشريف، وعلى هذه الطبعة سنعتمد، وسنعبر عنه في هوامش البحث بـ (الديوان) اختصاراً .

٢ – اقرأ مقدمة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة للديوان .

٣ – وصف بأنه طويل القامة، جميل الصورة، شجاع بطل صنديد، لا يعبأ بكثرة أعدائه إذا كان في قليل من أهل خاصته فضلاً عن الكثير، وكان ينصف من الظالم للمظلوم .

سالم بن حمود السيابي : عمان عبر التاريخ : ٢٢٥/٤ .

٤ – كيلي : بريطانيا والخليج : ١٦٥/١ – الهامش – .

٥ – تاريخ الكويت : الجزء الأول، القسم الأول / ٢٦٤، ٣٠٣، ٣٠٥، تاريخ شرقي الجزيرة العربية/ ٢٠٥ .

٦ – كيلي : مصدر سابق : ١٦٥/١ – الهامش – .

٧ – انظر ص : ١٧٩ و ١٩٠ من مؤلفي واردن المنشور نصهما في القسم الثاني من الجزء الأول لكتاب أبي حاكمة (تاريخ الكويت)، وراجع : كيلي : مصدر متقدم : ١٦٥/١ – الهامش – .

٨ – كيلي : مصدر سابق : ١٦٥/١ – الهامش – .

٩ – نفس المصدر : ١٦٥/١ .

١٠ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة والدكتور علي أباحسين : البحرين عبر التاريخ : ٢٥٤/٢ .

١١ – نفس المصدر : ١٦٤/٢ .

١٢ – أبو حاكمة : تاريخ الكويت : الجزء الأول، القسم الأول/٣٠٣ – الهامش –، ٣١٦، الجزء الأول : القسم الثاني/٩٧ – ١٠٦ .

١٣ – تواجد الإنجليز في منطقة الخليج بشكل منتظم منذ العقود الأولى للقرن السابع عشر الميلادي وتمثل في شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وربما أقدم الوثائق التي كتبها رجال الشركة عن الخليج هي العائدة إلى سنة ١٧٢٢م .

لمزيد من الإطلاع على تاريخ وثائق الشركة يقرأ : عبد الأمير محمد أمين ومصطفى عبد القادر النجار : صور السجلات الهندية ومحفوظاتها من وثائق العراق وبقية أقطار الخليج العربي والجزيرة العربية .

١٤ – أشير إلى تفرقهم في : كيلي : مصدر متقدم : ١٦٥/١، أبو حاكمة : مصدر سابق : الجزء الأول، القسم الأول /٣٠٣ ، ٣١٠، الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أباحسين : مصدر متقدم : ٢٥٨/٢ .

١٥ – يتميز الديوان بسطور من التمهيدات تتقدم قصائده ونثرياته تتحدث عن دوافع إنشاء الشعر أو النثر وتاريخ الإنشاء والأجواء والحيثيات التي صاحبته، وفي بحث لنا حول الشاعر أثبتنا أن هذه التمهيدات – باستثناء بعضها ويعرف بالقرائن – كانت أساساً مستلهمة من تمهيدات دونها الشاعر لمقطوعات أدبه، وصاغها – من ثم – منظم الديوان وجامعه .

١٦ – الديوان / ٨ .

١٧ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أبا حسين : مصدر سابق : ٢٥٥/٢ .

١٨ – الديوان / ١٠ .

١٩ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أباحسين : مصدر تقدم : ٢٥٥/٢ .

٢٠ – أبو حاكمة : تاريخ الكويت : الجزء الأول، القسم الأول / ٢٦٥ – الهامش –، ٣٠٣ .

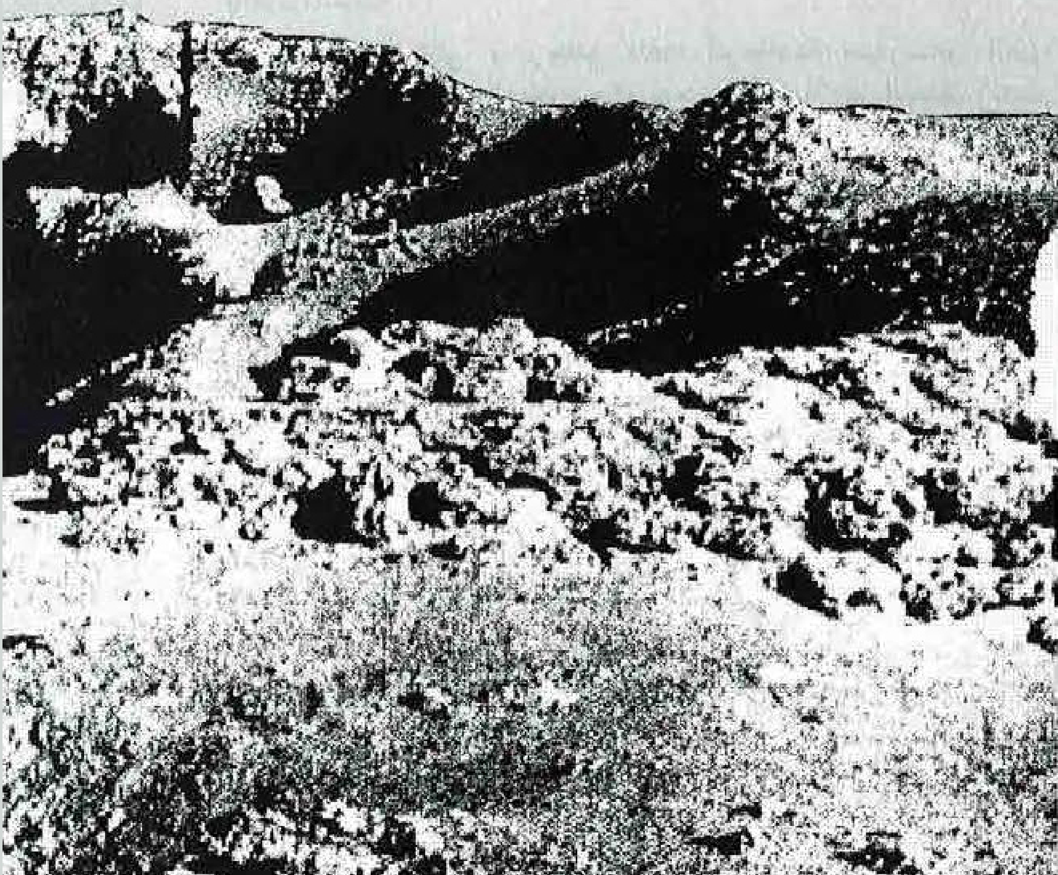
٢١ – الديوان /١٠ .

٢٢ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أباحسين : مصدر سالف : ٢٥٦/٢ .

٢٣ – الديوان /٨ .

٢٤ – نفس المصدر /١٠ .

البحرين



خلال السيطرة البرتغالية ١٥٠٧ - ١٦٠٢

بقلم : د . صبري فالح الحمدي

مقدمة تاريخية

تقع البحرين في الخليج العربي وتتكون من عدة جزر أهمها (المحرق) و (سترة) تبلغ مساحتها ٦٦٢ كيلوا متراً مربعاً[١] . وعرفت منذ القدم بلؤلؤها المعروف بالحسن والجودة كما تمتعت بمركز تجاري هام نظراً لموقعها الجغرافي المتميز في المنطقة[٢] . فضلا عن أنها تعد حلقة وصل بين موانئ الخليج العربي والمحيط الهندي وشرق أفريقيا وقد وصف البحرين الرحالة العربي "ابن بطوطة" الذي توقف عندها بأنها : [مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار][٣] . أما سبب تسميتها بالبحرين فيرجع إلى وجود ينابيع طبيعية حلوة تتفجر في قاع الخليج فيتدفق منها الماء العذب وسط ماء البحر الأجاج[٤] .

ويظهر لنا من الوثـائق التاريخيـة أن البحريـن كـانت مركـزاً تجاريـاً مـهماً في العهد السومري وخاصة بين العراق وحـوض السند[٥] . وتشير تلك المصـادر إلى أن سكان البحرين قبل الإسلام كانوا ينتمون إلى القبائل العربيـة مثل قبيلـة بـني بكـر وبني تميم وبني عبد قيس ثم تبعتهم جماعات عربية أخرى عبرت ميـاه الخليج إلى الساحل الشرقي في فترات تاريخية منتظمة[٦] .

وخـلال العصور الإسـلامية المختلفـة ظلـت البحريـن تابعـة للدولـة العربيـة الإسلامية أيام الخلافة الراشدية والأموية والعباسية ثم خضعت لسيادة عهد الأمراء والحكام الذين انفصلوا عن العباسيين[٧] . ويستدل مما ذكره الرحالـة العـرب الذيـن زاروا البحريـن في النصـف الأول مـن القـرن الثـاني عشـر أن سـكان البحريـن كـانوا يخضعـون لحكـم شيـوخ محليين[٨] .وعنـد مجـيء البرتغـاليين إلى الخليـج العربـي أصبحت البحرين إحدى معاقلهم في بداية القرن السادس عشر وازداد التنافس بينهم وبين قوى محلية وأجنبية للسيطرة علـى طـرق التجـارة وقواعـد التمويـن المهمـة في المنطقة[٩] .

البرتغاليون والبحرين

تعـد سنـة ١٥٠٦ نقطـة تحـول في حركـة الاستعمار الأوروبـي في جنـوب آسيا ففي تلك السنة غـادر "ألفونسو البوكيرك" ليتسلم منصبه الجديد كنائب لملك البرتغال في الهنـد[١٠] . وكـانت خطته تقوم على ضرورة السيطرة علـى منافذ التجـارة البحريـة متمثلـة بـالبحر الأحمر وعدن وجنوب الجزيـرة العربيـة وسـواحلها والبحريـن والقطيـف والبصرة[١١] . وكـان واضحـاً أن هنـاك دوافـع جديـدة لهـذا التوجـه البرتغـالي وعلـى مـا يبـدو فـإن ضعـف القـوى السياسية العربية وانشغالهـا بخلافاتـها المحليـة ورغبـة البرتغـاليين في احتكـار تجـارة الشرق وانتزاعـها مـن العـرب، كذلك الـروح الصـليبية التـي كـانت

لا تزال تسيطر على عدد من رجال البحرية البرتغالية أمثال "البوكيرك" كلها أسباب زادت من اندفاع البرتغاليين نحو بلاد الشرق(١٢) . كما نلاحظ أن القوى الإسلامية الكبرى حينذاك كالمماليك والصفويين والعثمانيين، كانت في صراع دائم فيما بينها باستثناء المماليك الذين تصدوا للغزاة عسكرياً وكان اصطدام البرتغاليين أكثر وضوحاً مع القوى الإسلامية المحلية سواء أكان ذلك في شرق أفريقيا، أو الخليج العربي والجزيرة العربية(١٣).

لذلك استغل البرتغاليون تلك الظروف المواتية لتصفية النفوذ العربي التجاري المسيطر على تجارة الشرق وطرقها البحرية وقوافلها التجارية . وبدأوا نشاطهم العسكري ضد القوى العربية وذلك بتأسيس قاعدة بحرية لهم وهي قلعة هرمز في مدخل الخليج العربي كي تضمن حماية مواصلاتهم البحرية ومصالحهم المتنامية من وإلى منطقة الخليج العربي وتبع ذلك استيلاؤهم عسكرياً حوالي عام ١٥٠٥م على جزر البحرين(١٤) . ويبدو أن البحرين كانت خلال تلك الفترة جزءاً من أملاك مملكة هرمز وخضعت البحرين للنفوذ البرتغالي إثر خضوع مملكة هرمز للنفوذ البرتغالي. فحينما تمكنت القوات البرتغالية بأسطول مكون من ٢٧ سفينة بقيادة "البوكيرك" من احتلال هرمز عام ١٥١٥م تم توقيع اتفاقية مع ملكها العربي الذي أصبح بموجبها ملكاً على البحرين باسم ملك البرتغال وتعهد البرتغاليون بمساعدة الفرس على غزو كل من البحرين والقطيف ومعاونة الشاه بالقضاء على الحركات الانفصالية للبلوش في مكران وذلك بسبب الاضطرابات بالمدينة والتي وقع خلالها ملكها في أسر الثوار وأدت لرفض البرتغاليين التعاون مع الصفويين(١٥) . من جانب آخر نلاحظ استمرار الحملات العسكرية البرتغالية لإحكام السيطرة على البحرين وما جاورها من مناطق الخليج العربي ففي عام ١٥٢١م تمكن البرتغاليون بقيادة "أنطونيو كوريا" من فرض سيطرتهم الكاملة على البحرين طيلة القرن السادس عشر ورمموا فيها قلعة العجاج التي لا تزال باقية حتى اليوم(١٦) . وفي عام ١٥٢٩ شهدت البحرين انتفاضة وطنية ألحقت خسائر بالقوات البرتغالية التي أجبرت على الانسحاب(١٧) . إلا

أن المؤرخين الأجانب الذين يصفون تلك الغزوة العسكرية بأنها كانت بمثابة الكارثة للمهاجمين الذين اضطروا للتراجع إنما يعزون سبب ذلك إلى نقص في معدات المهاجمين وليس إلى صلابة المقاومة العربية . ويعتقد المؤرخ التركي "أوزبران" أن سبب تلك الحملة يرجع إلى أن حاكم الجزيرة الرئيسي وهو ابن عم شرف الدين "أمير هرمز" ثار ضد هرمز وامتنع عن دفع الجزية التي كان يجب أن يدفعها وتكونت الحملة البرتغالية من ٥ سفن وحوالي ٥٠٠ رجل و٦ سفن مزودة بالمدفعية بقيادة "سيماو داكونها" إلا أنه أيضاً يشير إلى أن فشل الهجوم البرتغالي يعود إلى نقص في البارود وانتشار المرض(١٨) .

وقد أفاد البرتغاليون كثيراً من الخلافات المحلية بين أبناء الخليج العربي مما عزز نفوذهم في المنطقة حيث قامت هرمز عام ١٥١١م بإرسال قوة بحرية إلى البحرين نجحت في السيطرة عليها وانتزاعها من شيوخ بني جبر الذين عاودوا السيطرة عليها . وفي عام ١٥٢٠ تعرضت البحرين لهجوم برتغالي هرمزي مشترك أثناء تغيب السلطان "مقرن بن زامل" من بني جبر الذي كان قد سافر إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج . ورغم بسالته المميزة في القتال أثناء عودته فقد وقع أسيراً في أيدي البرتغاليين الذين بادروا بإعدامه . كما عاود البرتغاليون احتلالهم العسكري للجزيرة عام ١٥٨٢ تقريباً ومكثوا فيها أربعين عاماً إلى أن طردهم اليعاربة(١٩) عام ١٦٢٢م(٢٠) . لذلك يرى البعض أن سقوط البحرين بأيدي البرتغاليين قد حقق انتصارهم الكامل على عرب الخليج وفتح أمامهم كل شطآنه وجزره وخلجانه ، وهو انتصار لأوروبا على العرب المسلمين في الشرق وذلك لأن الأسبان والبرتغاليين كانوا في نفس الوقت تقريباً قد قضوا على آخر من بقي من العرب والمسلمين في الأندلس ، وأنهوا آخر أثر من آثار الحكم العربي الإسلامي في قارة أوروبا كلها(٢١) .

الفرس والبحرين

ظلت أنظار الفرس وعبر حقب التاريخ المختلفة تتطلع إلى سواحل

الخليج العربي وجزره بغية السيطرة عليه وذلك لأهميته الكبيرة في الحفاظ على مصالحهم في المنطقة وبسبب أهمية البحرين في إدامة علاقات الفرس التجارية مع الهند، فقد تركزت جهود حكام فارس للسيطرة عليها، وقد استغل الفرس "الصفويون" فرصة انشغال الأتراك في حروبهم في أوروبا فاستولوا على الجزر في الخليج العربي ومن ضمنها جزيرة البحرين(٢٢) . يرى الكثير من المؤرخين أنه كان بإمكان بلاد فارس باعتبارها الكيان السياسي الوحيد خلال تلك الفترة أن تضطلع بدور إيجابي في التصدي للغزو البرتغالي إلى جانب المماليك أو العثمانيين، ولكن واقع الحال يشير إلى أن الشاه "إسماعيل" بعد هزيمته أمام الأتراك في معركة جالديران عام ١٥١٤م أصبح أكثر تلهفاً للتحالف مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية(٢٣) .

وتعترف المصادر الأجنبية أن المؤرخين العرب من أمثال ابن الأثير وابن خلدون يذكرون أن سكان البحرين وإن كانوا يعترفون بسيطرة ملوك الفرس عليهم إلا أنهم كانوا يسمحون لهم على الدوام باختيار شيوخهم(٢٤) . ذلك أن النفوذ السياسي للفرس في المنطقة قد ارتكز على الوجود العربي الذي هو العمود الفقري لحالة الرفض التي سادت منطقة الخليج العربي ضد السيطرة البرتغالية ومما يعزز ذلك أنه في سنة ١٥٧٨م تولى الشاه عباس الحكم في إيران، بعد أن صرف سنوات عديدة من حكمه لتدعيم مركزه في الشمال تماماً كما فعل الشاه إسماعيل مما يدل على أن مركز ثِقل الدولة الصفوية كان في آسيا الوسطى بينما شواطئ الخليج الشرقية كانت تخضع لقبائل عربية خالصة أو عربية مختلطة بالفرس ولنجاح الشاه في أي عمل ضد البرتغاليين كان عليه أن يتمتع بتأييد تلك القبائل(٢٥) .

وقد استغل الأوروبيون النزاع الفارسي العثماني للحصول على بعض المكاسب من الشاه عباس الأول وذلك بتقديم العون له ضد الدولة العثمانية مقابل السماح للمبشرين بالعمل في بلاده وتحسين معاملة المسيحيين في فارس وإعادة البحرين التي أجبر البرتغاليون على الخروج منها عام ١٦٠٢م ولكن سرعان ما جرت اتصالات بين ركن الدين مسعود حاكم البحرين "والهردي

خان" حاكم فارس من أجل طرد البرتغاليين والذي بعث بقواته إلى البحرين بقيادة "معين الدين فالي" والتي تمكنت من الاستيلاء على البحرين عام ١٦٠١م مما دفع حاكم هرمز البرتغالي إلى إرسال حملتين عسكريتين لحصار الجزيرة غير أن حاكم فارس لم يلبث أن بعث بعض قواته إلى ميناء "جمبرون" لإجبار البرتغاليين على رفع حصارهم عن البحرين لكي يتسنى له التصدي لتلك القوات وقد أفاد "الهردي خان" من فرصة انسحاب البرتغاليين من البحرين واشتباكهم مع القوات الفارسية أمام ميناء جمبرون فقام بإكمال سيطرته على البحرين وتخليصها من أيدي البرتغاليين عام ١٦٠٧م بعد احتلال دام ما يقارب القرن وهكذا خضعت البحرين لاحتلال جديد وهو الفارسي بعد زوال البرتغالي عنها[٢٦] .

إن النجاح الذي حققه الفرس في الاستيلاء على البحرين أثار تساؤلات كثيرة حول تمكنهم من ذلك رغم افتقادهم لقوة بحرية فاعلة بالمنطقة وضعف خبراتهم على خوض غمار البحر والقدرة على ركوبه وعلى ما يبدو فإن البرتغاليين كانوا يريدون تخفيف أعبائهم العسكرية فانسحبوا من تلك الجزر مكتفين بما كان لهم من سيطرة واضحة على مدخل الخليج العربي وربما اعتقدت أسبانيا المسئولة وقتذاك عن البرتغال أن بإمكانها الاستفادة من الصراع العثماني الفارسي في الشرق وذلك بالتقرب من الفرس في نظير تنازلات لا تعني أسبانيا مباشرة كالتنازل عن البحرين[٢٧] . ومما حملنا على هذا الاعتقاد الخطاب الذي أرسله فيليب الثاني إلى نائب الملك في الهند عام ١٦٠٧ والذي يأمره فيه بمحاولة استرداد البحرين لمنع وقوعها في يد العثمانيين نقل هذا الخطاب "أدميات" المعبر عن وجهة النظر الفارسية وعَدُّ هذا العمل أول تجربة لقوة الفرس ضد البرتغاليين وبذلك فشل البرتغاليون في استرجاع البحرين إلى الأبد[٢٨] .

وحسبما ذكره "تكسيرا" الرحالة البرتغالي الذي زار الخليج العربي عام ١٦٠٤م أنه حالما تمت السيطرة على البحرين تم تعيين وزير فارسي لإدارتها مع حامية فارسية تعدادها ٨٠٠ رجل[٢٩] .

التحالف البرتغالي الفارسي

كان لابد أن تلتقي الأهداف والمصالح الفارسية البرتغالية في مواجهة القوى العربية الناشطة في منطقة الخليج العربي والتي أصبح لها نفوذ متزايد على الملاحة وطرق التجارة المؤدية إلى بلاد الهند ويقينا فإن البرتغاليين قد استغلوا النزاع الفارسي العثماني لكسب الفرس إلى جانبهم تحقيقاً لأهدافهم المعروفة هناك ويشير إلى تلك الحقيقة بوضوح "البوكيرك" ذاته في مذكراته حينما أكد أنه عرض وضع الأسطول والجيش والمدفعية البرتغالية في خدمة الشاه إسماعيل في حربه ضد السلطان العثماني[٣٠] كما أرسل البرتغاليون سفارات إلى إيران للتباحث مع الشاه المذكور في شأن مشروعات دفاعية وهجومية ضد الدولة العثمانية التي بدأت تتطلع هي أيضاً للسيادة على الخليج العربي، من جهة أخرى نلحظ أن البرتغاليين حينما وجدوا أنفسهم في وضع لا يستطيعون معه الصمود بوجه العرب الرافضين لوجودهم في المنطقة، اتصلوا سراً بالفرس واتفقوا معهم على أن يسلموا البحرين إليهم ذلك لأن الفرس كانوا على الدوام في تحالف مع البرتغاليين ضد عرب الخليج وهم أيسر تفاهماً مع البرتغاليين من العرب الذين ظلوا متمسكين بحقوق بلادهم في التحرر والسيادة الكاملة[٣١].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن "البوكيرك" حينما خلف "دالميرا" بقيادة البرتغاليين في المياه الهندية بعث برسالة إلى شاه فارس ومما ورد فيها : "إنني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في البصرة . . . وسأنفذ لك كل ما تريد"[٣٢] . وأثمرت تلك الاتصالات عن عقد اتفاقية تعاون بين الجانبين عام ١٥١٥م أفاد منها البرتغاليون أكثر من الفرس حيث أمّنوا جبهتهم وانصرفوا بالتالي لقتال الأتراك وانتصروا عليهم . وتضمنت الاتفاقية أن يقوم الفرس والبرتغاليون بالتحالف ضد الأتراك وتقوم بلاد فارس بإقامة مركز

تجاري في "غوا" لتمكين التجار الفرس من القيام بتجارتهم مع الهند[٣٣] .ورغم خطورة هذا التحالف وتهديده للمصالح العربية على سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر والبحر العربي فقد خرج البرتغاليون والفرس من ساحات القتال مدحورين إذ لم تصمد التحالفات وسياسة حرق الأرض المزروعة والإرهاب أمام صلابة واستمرار المقاومة العربية . لذلك نصل إلى حقيقة واضحة وهي أن مساعي الشاه إسماعيل مع الدول الأوروبية عامة والبرتغال خاصة لم تسفر عن أكثر من شيئين هما : احتلال الخليج من قِبَل البرتغاليين، ومزيد من النزاع مع الأتراك وكانت أوروبا المستفيدة من ذلك[٣٤] .

العثمانيون والبحرين

نشطت الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر في محاولاتها لإدامة نفوذها في الخليج العربي والتصدي للنفوذ البرتغالي بالمنطقة ونتيجة لتقدم النفوذ العثماني في العراق في عهد السلطان سليمان القانوني أرسل شيخ البحرين عام ١٥٣٤م رسالة إلى السلطان يدعوه لإرسال أسطول عثماني للدفاع عن البحرين أمام الهجمات الفارسية وقد انسحب الأتراك بعد فترة قتال وجيزة تاركين جزر البحرين لصراع جديد آخر بين الفرس والبرتغاليين وبعد احتلال العثمانيين لدينة البصرة عام ١٥٤٦م أصبحت البحرين كجزيرة حدود تفصل بين القوى المتحاربة[٣٥] . ومعلوم أن الدولة العثمانية كانت قد أرسلت منذ عام ١٥٢٩م أسطولاً إلى مياه الخليج العربي ولكنه لم يلق الترحيب بسبب عدم وجود قاعدة له في المنطقة .

وخلال النصف الثاني من القرن السادس عشر استمر الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على سواحل ومياه الخليج العربي وقد أعد العثمانيون حوالي سنة ١٥٥٣م أسطولا مكوناً من سفينتين وسبعين صندلاً وكانت تحمل (١٢٠٠) من الأتراك الانكشارية . قاموا بهجوم على البحرين غير أن النجدات التي وصلت إلى البحرين من هرمز القريبة أسفرت عن فك الحصار وإرغام الأتراك على الانسحاب إلى البصرة[٣٦] وفي أثناء ذلك تزايدت المقاومة العربية ضد النفوذ

الأجنبي فمنذ عام ١٥٥٥م ثارت القبائل العربية ضد البرتغاليين في جزر البحرين وساحل القطيف واستنجدت بالأتراك الذين كانوا يحتلون العراق، في ذات الوقت استنجدت هرمز بالبرتغاليين وكانت البحرين تابعة لهم لذلك وصلت نجدة برتغالية لشيخ هرمز استطاعت إخراج الأتراك من القطيف ومن البحرين[٣٧]. وعاود العثمانيون هجومهم بعد عام ١٥٥٧م وتمكنوا من فرض سيطرتهم وحصارهم على البحرين غير أنه لم يقدر لهم البقاء فيهاأو في غيرها من مناطق الخليج العربي.

ويبدو أن العثمانيين لم يقوموا بعمل جدي لفرض سيطرتهم على المنطقة إلا في عام ١٥٥٩ حيث جهزوا حملة بحرية كبيرة قوامها (٢٠٠٠) من الانكشارية للسيطرة على البحرين إلا أن حملتهم هذه باءت بالفشل أمام أسطول برتغالي قوي جاء من الهند وتراجعوا إلى البصرة. وبذلك استمرت سيطرة البرتغاليين على البحرين[٣٨] وبرغم المجهودات الكبيرة التي بذلها العثمانيون في محاولتهم إزاحة النفوذ البرتغالي وتثبيت وجودهم السياسي والعسكري في الخليج العربي فإنهم أصيبوا بنكسات متعاقبة وذلك نتيجة لفقدهم لوحدة الأهداف السياسية في المنطقة فقد اضطروا لتبديل قادة الأساطيل في تلك المياه عدة مرات خلال سنة واحدة فقد تولى قيادة الأسطول التركي في سنة ١٥٥٢بدير بك ثم مراد بك وعلي ريس وغيرهم وهكذا كان لبعد المسافة بين بلادهم ومنطقة الخليج العربي ومحدودية إمكاناتهم البحرية أثره الواضح في إضعاف أنشطتهم التجارية والعسكرية بالمنطقة، وقد ترك العثمانيون أمر الخليج العربي وشأنه واكتفوا بالولاء الديني الذي يكنه عرب الخليج العربي لهم[٣٩].

المقاومة العربية

استمرت مقاومة سكان الخليج العربي ضد الغزو البرتغالي والمتحالف مع الفرس للسيطرة على بلادهم والاستحواذ على خيراتها وجزرها البحرية وإن تعثرت القدرات العربية المحلية لأسباب أهمها عدم التعاون الوثيق بين الشيوخ العرب واستعانة بعضهم بالقوى الأجنبية في محاربة خصمه السياسي أو التجاري وكل ذلك أضعف المقاومة

العربية وقلل من إمكانات صمودها ونجاحها ورغم ذلك فقد شهدت هذه الفترة تعاون أهالي هرمز والبحرين وصحار ومسقط مع شيخ هرمز في سبيل إنهاء الاحتلال البرتغالي لبلادهم كما أدت سياسة البرتغاليين القائمة على العنف والقسوة إلى زيادة التذمر واتساع روح التمرد لدى السكان العرب فحينما جرد البرتغاليون حملة بحرية كبيرة عام ١٥١٧م ضد البحرين وحاصروها، ارتدوا عنها أمام مقاومة شديدة أبداها سكان الجزيرة، إلا أن الغزوات البرتغالية استمرت رغم توقيع اتفاقية هرمز مع الفرس عام ١٥١٥م التي تضمنت أن تكون السفن الحربية البرتغالية في متناول أيدي الفرس لشن هجوم على البحرين والقطيف وأن يقوم بين الجانبين تعاون عسكري في منطقة الخليج العربي، إلا أن الأحداث اللاحقة برهنت على أن البرتغاليين لم ينعموا بالهدوء والاستقرار بسبب ثورات المواطنين العرب التي أشعلوها ضدهم(٤٠).

ويبدو أن أهم الثورات العربية كانت في عام ١٥٢١ وبهذا الصدد يذكر لنا "ويلسون" في كتابه "تاريخ الخليج" أنه بناء على تعليمات صادرة من الملك "دوم - نويل" عين بعض المسئولين البرتغاليين كمشرفين على الجمارك في هرمز، غير أن هؤلاء بسبب معاملتهم السيئة تسببوا في قيام ثورة شاملة في هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار، وقتل خلال تلك الأحداث عدد كبير من البرتغاليين(٤١) وتم فيها مهاجمة جميع الحصون البرتغالية ليلة الثلاثين من تشرين الثاني، وأوشكت الخطة على النجاح لولا أن دب الخلاف بين أبناء الخليج العربي وخاصة بين شيوخ الجبريين وملوك هرمز، وانتهز البرتغاليون الفرصة فأرسلوا نجدات إلى هرمز التي تزعمت حركة المقاومة ضد البرتغاليين، وتبع ذلك نجاح القوات البرتغالية ومحاصرة أسطولها جزيرة البحرين ثم النزول فيها بعد قصفها بشدة، وخلال ذلك قاتل سكان مدينة المنامة بالشوارع القوات الغازية وأبدوا من ضروب الشجاعة ما لا يمكن وصفه(٤٢).

ولابد من التذكير هنا أن المؤرخين الأجانب ومنهم الفارسي "أدميات" في كتابه "جزر البحرين" يصف هذه الثورة بأنها تمرد ضد البرتغاليين إلا أنه

يعترف بقوتها وفاعليتها من خلال تركيزه على أن هجوم الثوار على مواقع البرتغاليين قد حدث في وقت واحد، هو الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٥٢١م. أما المؤرخ التركي "أوزبران" فيتحدث عن هذه الثورة قائلاً : " لقد امتنع مقرن بن زامل عن دفع الجزية المطلوبة منه إلى هرمز ويضايق السفن التي كانت تبحر من البحرين وهرمز، وجمع لهذا الغرض السفن المزودة بالمقاذف التي عملت له من قِبَل بعض الأتراك. وفي هرمز كان هناك "ديوجولويس" الذي عين حاكماً للهند عام ١٥١٨ فوافق على انتداب ابن عمه "أنطونيو كوريا" ضد البحرين، وقد قتل مقرن خلال المعركة وأجبر البرتغاليون أهالي البحرين على دفع الإتاوة السنوية والتي يقدرها الرحالة البرتغالي "تكسيرا" بأربعمائة دوكات سنوياً"(٤٣). أما الفرس فقد وقفوا موقف المتفرج من هذه الثورة، ذلك أن الشاه إسماعيل لم يحرك ساكناً عندما شن الخليج العربي ثورته ضد البرتغاليين حيث خرج من تحالفه مع البرتغاليين خالي الوفاض وسلم بالأمر الواقع وهو الاحتلال البرتغالي للمنطقة، ومع ذلك فقد ظل الاحتلال البرتغالي يعاني من مقاومة عربية ففي عام ١٥٢٨م قُتل أخو نائب ملك البرتغال . . في البحرين ذاتها(٤٤) .

أما السبب المباشر لطرد البرتغاليين من البحرين فهو مسلك حاكم البحرين من قِبَل البرتغاليين وكان قريباً لملك هرمز، فقد قتل حاكم البحرين عام ١٦٠٢م أحد تجار اللؤلؤ الأغنياء طمعاً في ثروته، ولكن شقيق القتيل استطاع أن يكسب ثقة الحاكم ثم ينتقم لأخيه ويستولي على القلعة واسم هذا الحاكم الجديد "ركن الدين بن مسعود" ولما كان هذا التصرف يثير عليه حاكم هرمز من قِبَل البرتغاليين ولا قِبَل له بمحاربته، فقد طلب ركن الدين حماية حاكم شيراز الفارسي، فأرسل هذا قوة استولت على البحرين باسم شاه إيران، وفي سنة ١٥٨٠م كانت البرتغال قد اتحدت مع أسبانيا تحت حكم الملك فيليب فاحتج ملك أسبانيا على ذلك الإجراء، فما كان من حاكم هرمز إلا أن استعد لاستعادة البحرين، ولكنه فشل حيث استولى "الله وردي خان" على بوشهر عام ١٦٠٣م وكانت تابعة لحاكم هرمز، ولكن الشاه وبسبب هذا التصرف من حاكم شيراز أمره بالانسحاب وإعادة البحرين وبوشهر إلى البرتغال . ولكنه تجاهل أمر

الشاه الذي كان واقعاً تحت ضغط أسبانيا والبرتغال لاسترداد مافقدته، ولكن البرتغاليين نجحوا في الاستيلاء على بندر عباس وأقاموا فيها ميناء كي يضاهي ميناء هرمز(٤٥) .

وشهد النصف الأول من القرن السادس عشر أحداثاً هامة تمثلت في ظهور النشاط الإنجليزي في منطقة الخليج العربي ممثلاً بشركة الهند الشرقية، مما دفع بالفرس إلى التخلي عن الحليف البرتغالي الذي أخذ يعاني متاعب كثيرة والبحث عن حليف جديد، وهكذا تحالف الشاه عباس مع الشركة المذكورة في محاربة النفوذ البرتغالي وإزاحته من المنطقة، ووضع أسطول الشركة تحت تصرف الشاه وفق شروط منها :

١ - تقسيم الغنائم بالتساوي بين الشركة والفرس .

٢ - تقسيم أسرى الحرب حسب الأديان فيسلم الأسرى المسيحيون إلى الإنجليز والأسرى المسلمون إلى الفرس .

٣ - تسليم القلعة البرتغالية في هرمز إلى الإنجليز على شرط أن يسمح للفرس بإقامة قلعة خاصة بهم في البحرين(٤٦) .

وفي ٢٢ نيسان عام ١٦٢٢ سلم الأمير البرتغالي للأسطول الإنجليزي الذي حاصر هرمز وسلمه الإنجليز بدورهم إلى الجانب الفارسي حسب الاتفاق . وهكذا تم إنزال العلم البرتغالي من على قلعة البوكيرك بعد أن ظل يرفرف عليها أكثر من مائة عام، وكان سقوط هرمز بمثابة الضربة القاضية لهيبة البرتغاليين في منطقة الخليج العربي(٤٧) .

يمكننا أن نستنتج أن هناك عوامل عدة أدت إلى انهيار النفوذ البرتغالي في المنطقة، يأتي في مقدمتها اتحاد العرشين الأسباني والبرتغالي في سنة ١٥٨٠م ولقد توجه اهتمام هذه الدولة بشكل رئيسي نحو مستعمراتها في أمريكا كما أن تعصب البرتغاليين وقسوتهم إلى جانب جشع حكامهم وموظفيهم، جعلهم مكروهين بين سكان الخليج العربي فضلاً عن ظهور قوى أوروبية أخرى منافسة لهم وبخاصة الإنجليز والهولنديين، إضافة إلى نجاح اليعاربة في اكتساح البرتغاليين وطردهم من كثير من الثغور الواقعة على الخليج

العربي وعلى الساحلين الهندي والأفريقي وتزايد حالة الرفض والمقاومة العربية للوجود الأجنبي هناك(٤٨) ولعل في ثورة عرب الخليج الشاملة عام ١٥٢١م ما يعطينا الدليل الملموس على ذلك، وبأن العرب قد نجحوا فعلاً في إنهاك القوات البرتغالية من خلال التحرش بسفنها وعرقلة تجارتها ومهاجمة حصونها المتواجدة على سواحل الخليج العربي، .وهكذا تم طرد البرتغاليين من المنطقة بأكملها بعد احتلال دام ١٤٣ عاماً(٤٩) .

د . صبري فالح الحمدي

كلية التربية - الجامعة المستنصرية

بغداد

الهوامش

١ – أنظر : Sanger, R.H.; The Arabian Peninsula (New York) 1964. pp. 40 - 41.

٢ – Gurzon, George; Persia and the Persian question, vol. II, Edinburge, 1852, p. 417.

٣ – جمال القيطاني : ابن بطوطة في الخليج العربي، مجلة العربي، العدد ٢٤٥، نيسان ١٩٧٩، ص.ص. ٧٠ – ٧١ .

٤ – محمود بهجت سنان : البحرين درة الخليج العربي، بغداد ١٩٦٣، ص ٢ .

٥ – د. محمود علي الداود : أحاديث عن الخليج العربي، ط. ٢، بغداد، وزارة الإرشاد . ص ٣١

٦ – أنظر د. محمد عبد الله العزاوي : التحالفات الفارسية الأوروبية ضد عرب الخليج ١٦٩٥ – ١٧٢٢م، مجلة الخليج العربي، السنة ١٥، المجلد ١٩، العدد ٢، جامعة البصرة ١٩٨٧، ص ٣٨ .

٧ – أعرف مدينتك : البحرين تاريخ مجيد وحاضر مزدهر، مجلة المدينة المنورة، منظمة المدن العربية، العدد الثلاثون، السنة السابعة،الكويت آذار، ١٩٨٨، ص ٤٢ .

٨ – د. جمال زكريا قاسم : الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي، أصول المشكلة وتطورها التاريخي، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد آذار، ١٩٧٣، ص ٦٤٤ .

٩ – أنظر : Hopwood, Derek; The Arabian Peninsula, Society and Politics, London, 1970, p. 40.

١٠ – د. محمود علي الداود : العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ – ١٦٥٠، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثاني، مطبعة العاني، بغداد، شباط ١٩٦٠، ص ٢٣٤.

١١ – أنظر : Alboquerque, Alfonso; The commentaries of (trans) into English by W-de Gray Birch Hakl Soc. (London 1973) Vol. I. P. 115.

١٢ – صالح أوزبران : الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ – ١٥٨١، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٩، ص ١٧ . والمعلوم أن البوكيرك عرف باتباعه سياسة حرق الأرض والمدن العربية الرافضة لسيطرته .

١٣ – د. جمال زكريا قاسم : الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي، مجلة الوثيقة العدد١٢، السنة السادسة، مركز الوثائق بدولة البحرين، كانون الثاني ١٩٨٨م ص ص ٤٢ – ٤٣ .

١٤ – أمين سعيد : الخليج العربي، دار الكاتب العربي، بيروت د. ت. ص ٦٦ . عن الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي يمكن الرجوع إلى د. عبد الأمير محمد أمين : دور القبائل العربية في صد التوسع الأوروبي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد، آذار ١٩٧٣، ص ٦٥١ .

١٥ – س. ب. مايلز : الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، ١٩٨٢، ص ١٦٢، وأنظر أيضاً د. بدر الدين الخصوصي : الدولة الصفوية في مواجهة التحديات، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٤٤، السنة ١١، الكويت تشرين الأول، ١٩٨٥، ص ١٦٢ .

١٦ – إبراهيم خلف العبيدي : الحركة الوطنية في البحرين، بغداد ١٩٧٦، ص ٢٢ .

١٧ – أرنولد ويلسون : تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط ٢، ١٩٨٥، ص ٨٢ .

١٨ – أوزبران : المصدر السابق ص ص ٢٥ – ٢٦ .

١٩ – اليعاربة قبائل عربية من عمان، سجلت أمجاداً بحرية في مقاومة الاستعمار البرتغالي لمنطقة الخليج العربي .

٢٠ – قاسم : المصدر السابق، ص ص ٢٥ – ٢٦ .

٢١ – سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٢، ص ٥٢ .

٢٢ – **Fereydaum, Adamiyat; Bahrain Islands, a legal diplomatic study of the British-Iranian Controversy, New York, 1935, p. 20.**

٢٣ – لمزيد من التفاصيل أنظر علي غنام : إحلال النفوذ الأجنبي بالخليج العربي (دور الدولة الصفوية)، مجلة الخليج العربي السنة ١٣، المجلد ١٧، جامعة البصرة، ١٩٨٥، ص ١٤ .

٢٤ – الحاج عبد الله ولسن : جولة في الخليج العربي، ترجمة سليم طه، بغداد ١٩٦٢، ص ٢٣.

٢٥ – صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٢ .

٢٦ – ج.ج. لوريمر : دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الثالث، ترجمة ديوان حاكم قطر، الدوحة١٩٦٧، ص ١٢٦٧، أنظر أيضاً الخصوصي : المصدر السابق، ص.ص. ١٦٣ – ١٦٤ .

٢٧ – الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي، جـ ١، ط ١، دار السلاسل، الكويت ١٩٧٨، ص ٢٩ .

٢٨ – Fereydaum; op. Cit. P. 23.

٢٩ – تكسيرا : رحالة برتغالي قام برحلته عام ١٩٠٤، ترجم بعض مذكراته جعفر الخياط، وأهميتها تتصل بوجود ملاحق فيها مثل سلسلة ملوك هرمز . أنظر د. طارق نافع الحمداني : محاضرات، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٩٨٨م .

٣٠ – Alboquerque; op. Cit., pp. 114 - 115.

٣١ – قاسم : المصدر السابق، ص ٤٣، أنظر أيضاً طه : المصدر السابق ص ٥٣ .

٣٢ – أنظر Alboquerque; op. Cit., p.115.

٣٣ – لمزيد من التفاصيل عن التعاون البرتغالي-الفارسي يمكن الرجوع إلى :

Danvers, F.S. ……….. London, 1894, p. ….

٣٤ – محمد جاسم : القوى الكبرى في الخليج، مجلة آفاق عربية، العدد الثامن السنة الثانية عشرة، آب ١٩٨٧، ص ١١ . أنظر أيضاً غنام : المصدر السابق ص ١٥ .

٣٥ – الداود : أحاديث، ص ٣٢، أنظر أيضاً أوزبران : المصدر السابق، ص ٥٤ .

٣٦ – محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، دار دمشق للطباعة، ١٩٨٤، ص ١٤ .

٣٧ – أنظر ويلسون : المصدر السابق، ص ٨٥ .

٣٨ – للتفاصيل عن تلك الحملة العسكرية يمكن الرجوع إلى : Danvers; op.Cit. P. 514.

كذلك أنظر العبيدي، المصدر السابق ص ٢٢ .

٣٩ – الداود : العلاقات، ص ٢٣٧، أنظر أيضاً الخصوصي : المصدر السابق ص ٢٦ .

٤٠ – د. علاء كاظم نورس : السياسة الإيرانية في الخليج العربي إبان عـهد كريم خـان ١٧٥٧ – ١٧٧٩، معهد البحوث والدراسات العربيـة، بغـداد ١٩٨٢، ص ١١٨، وانظـر أيضاً طـه : المصدر السابق، ص ٥١ .

٤١ – ويلسون : المصدر السابق، ص ٨٠ .

٤٢ – أنظر عباس أحمد العصفور : صراع الخليج العربي ضد المطامع الأجنبية في العصر الحديث، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد، آذار ١٩٧٣، ص ١٢٥ .

٤٣ – Fereydaun; op. Cit. P.P. 21 - 22.
أنظر أيضاً أوزبران : المصدر السابق، ص ص ٢٠ – ٢٦ .

٤٤ – أنظر سيد نوفل : الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي، دار الطليعـة بـيروت، ١٩٦٩، ص ٢٤، كذلك أنظر غنام : المصدر السابق، ص ١٤ .

٤٥ – أحمد محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران، بغداد، تموز ١٩٦٢، ص ٦٧ .

٤٦ – العقاد : المصدر السابق، ص ٢٤ .

٤٧ – الداود : المصدر السابق، ص ٢٤٦، وانظر أيضاً ويلسون : المصدر السابق، ص١١٢ .

٤٨ – د. صالح محمد العابد : دور القواسم في الخليج العربـي، ١٧٤٧ – ١٨٣٠، مطبعـة العـاني، بغداد ١٩٧٦، ص ص ٣٣ – ٣٤ .

٤٩ – النداوي : المصدر السابق ص ١٠ .

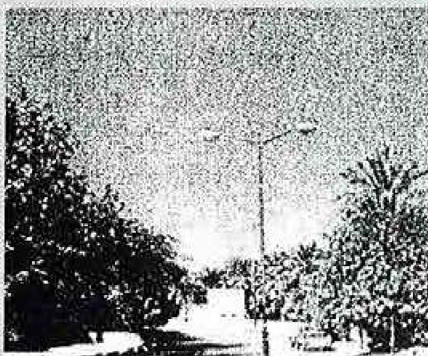
التاريخ البيئي للعيون



الينابيع في البحرين

إعداد :

هند عبد العزيز القصيبي[1] ، د. أسماء علي أباحسين، د. وليد خليل الزباري



غالباً ما يبدأ التاريخ بأسطورة أو بعدة أساطير، والأسطورة هي المرجع الأول لتاريخ الإنسان قبل أن يسطر تاريخه برموز مقروءة سماها الكتابة، فالأسطورة* هي التي حفظت لنا آثاراً نهتدي ببعضها إلى أبعاد التاريخ غير المدون . وتاريخ البحرين أو دلمون◆[٢] قديما يبدأ بأسطورة ملحمة جلجامش السومرية التي كتبت قبل أكثر من أربعة آلاف سنة والتي تظهر الموقع الذي تحتله دلمون في ديانة بلاد وادي الرافدين[٣] . ويحتوي نص الأسطورة على ٢٧٨ سطراً من الخط المسماري، نقشت في ستة أعمدة على لوح طيني كبير أحضره المنقبون من بلاد وادي الرافدين إلى متحف جامعة بنسلفانيا ليستقر هناك، وقد ترجمها البروفيسور كريمر عام ١٩٤٥م[٤] .

---

* رغم أن الأساطير في اللغة أباطيل لا دليل لها .

◆ دلمون أو تلمون يعتقد البعض أنها تعني البحرين ماء عذب صالح للشرب في وسط البحر بلغة أهل دلمون القدامى .

ويحمــل النــص شعــراً أســطورياً بعنوان "إنكي وننهورساغ" وإنكي هو إله المياه العذبة التحت الأرضيـة وحارسـها وحاميها وهـو واحـد مـن المعبـودات الرئيسـية في مجمع الآلهـة السومرية، أما ننهورساغ (أو ننخـورزاك) فـهي الأم الأرض العظيمـة أو إلهــة الأرض . إذ اعتقـد السـومريون أن الأرض والبحـر يستقران على بحر آخر من المـاء العذب يدعى الأبسـو هـو أصل المياه العذبـة، حيث تستمد الأنهار مصادرهـا مـن هـذا البحر التحتي، وتشكـل الآبـار والعيون حفراً صناعية أو طبيعية تصل إليه .

وتــأخذ الأحــداث المذكــورة في أسطورة إنكي وننهورسـاغ والـتي تدعـى بأسطورة الجنـة مجراهـا في دلــون[٥]، وتبـدأ المقطوعـة الشعريـة بمديـح لهــذه الأرض :

"أيتـها المـدن المقدسـة – قدموهـم إليـه إنكي

فإن أرض دلمون، لمقدسة

ياسومر المقدس، قدمه إليه

فإن أرض دلمون، لمقدسة

إن أرض دلمون، لمقدسة، إن أرض دلمون لطاهرة

إن أرض دلمون، لنقيـة، إن أرض دلمـون لمقدسة"

وتســتمر الأسـطورة بـأن تطلـب (الإلهـة ننهورسـاغ) مـن أبيـهـا (الإلـه إنكـي) أن يمـد دلـمون بالمــاء العـذب، ويجيب الأب إنكي ابنته :

"ليقـم أوتـو (إلـه الشمـس) المسـتقر في السماء

ليحضر المياه الحلـوة من الأرض، من مصادر المياه في الأرض

دعيه يحضر المياه في خزانات كبيرة

دعيه يجعل مدينتك تشرب المياه منـها في وفرة

ولتكن آبار المياه المرة آباراً للماء العذب

فلتنتــج أطيـانك وحقولـك المتجــددة قمحها

ولتتحـول مدينتك إلى مرفـأ لــلأرض المسكونة"

هذه هي أرض دلمون التي أحضرت لهــا الآلهــة الميـاه بخزانـات كبـيرة وفجرتها على شكل عيـون وينابيع مـن باطن الأرض في البر والبحر، كما حولت هـذه الجـزر إلى مرفـأ أو مينـاء لأرض مسكونة أو مأهولة بالسكان، وحــولت الميــاه أرضها إلى جنة خضراء .

تعكس أحداث هذه الأسطورة قدسية مياه وأرض دلمون لدى حضارة السومريين ومن ثم البابليين والأكاديين فالأشوريين في بلد اتسمت أراضيه بالخصب ووفرة المياه فهي بلاد ما بين النهرين ، فدلمون حسب اعتقاد سكان بلاد وادي الرافدين هي الفردوس الذي تعيش فيه الآلهة ، وهي البلاد التي تشرق منها الشمس ، وهي البلاد الطاهرة . يشاركهم في ذلك المصريون القدماء الذين يعتقد رايس(٦) بأنهم تمسكوا منذ القدم بفكرة أن معظم معتقداتهم والملامح التي تميزت بها ثقافاتهم نشأت في بدايتها الأولى في جزيرة نائية هي جزيرة الراحة والسلام وكانت مرتبطة عندهم بالشمس المشرقة ، ويعتقد رايس بأن ذكريات الجزيرة المقدسة ربما نسبت إلى دلمون إما بصورة مباشرة ، وإما نقلت إلى المصريين عن طريق طرف ثالث (السومريون على الأرجح) .

وتؤكد الدراسات التاريخية والتنقيبات الأثرية أن حضارة دلمون مستقلة في مقوماتها وخصائصها وآثارها عن الحضارات الأخرى المعاصرة لها ، وهي حضارة عريقة تمتد لتشمل الإقليم الواقع على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمان ، فهو يشمل ما نعتبره اليوم الكويت والأحساء وجزر البحرين الحالية وقطر(٧) حتى جلفار "رأس الخيمة" ، إذ أن وفرة المياه في هذه المنطقة والتي تتدفق على شكل عيون وينابيع أكسبها نطاقها الأخضر ، وحدائقها التي اشتهرت بها منذ الأساطير السومرية ، جعلتها منطقة جذب لأعداد كبيرة من السكان توافدوا إليها وبخاصة في الفترات الجافة على شكل دفعات مستمرة للاستقرار حول مناطق المياه التي كانت بمثابة منحة من السماء لهذه المنطقة الجافة من العالم . وقد ذكر الخليفة والحمر(٨) بأن ساكني هذه المنطقة قديماً كانوا من العمالقة (أي من العرب البائدة) الذين حكموا فيما بين النهرين والخليج . وأن الجزر المقابلة للساحل الشرقي من جزيرة العرب كانت تشتهر بالسمك ووفرة اللؤلؤ ، وأن أهلها كانوا يقومون بزراعة التمر وكانت لهم حواضر بها معابد أسطورية ، وكانت جزيرتهم محطة للتجارة العابرة لنقل أنواع البضائع من نحاس وخشب وتوابل وغيرها فيما بين الخليج والشرق الأقصى وبالعكس .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن البحرين كانت مأهولة بالسكان أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوروبا وربما كانت متصلة في ذلك الوقت بالأرض الأم (شبه الجزيرة العربية)(٩)، وأن جو البحرين آنذاك كان يشبه جو بلاد اليونان في الوقت الحاضر، وأرضها كانت خصبة خضراء مغطاة بكساء من الغابات. أما سكانها فقوم صيادون عاشوا على صيد الأسماك، إذ عثر على أدوات صيد من حجر الصوان في مناطق مختلفة من الجزيرة، إضافة إلى عدد من رؤوس الحراب والسكاكين الصوانية، وأحجار سُنّت وشُذّبت لتكون بمثابة الآلات لحصد المزروعات وقطع الحشائش واجتثاثها من الأرض. وقد قدر الباحثون عمر هذه الأدوات بين عشرة آلاف واثنتي عشرة ألف سنة (أواسط العصر الحجري القديم)، وهي ترجع إلى أواخر أيام الرعي وبداية عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة.

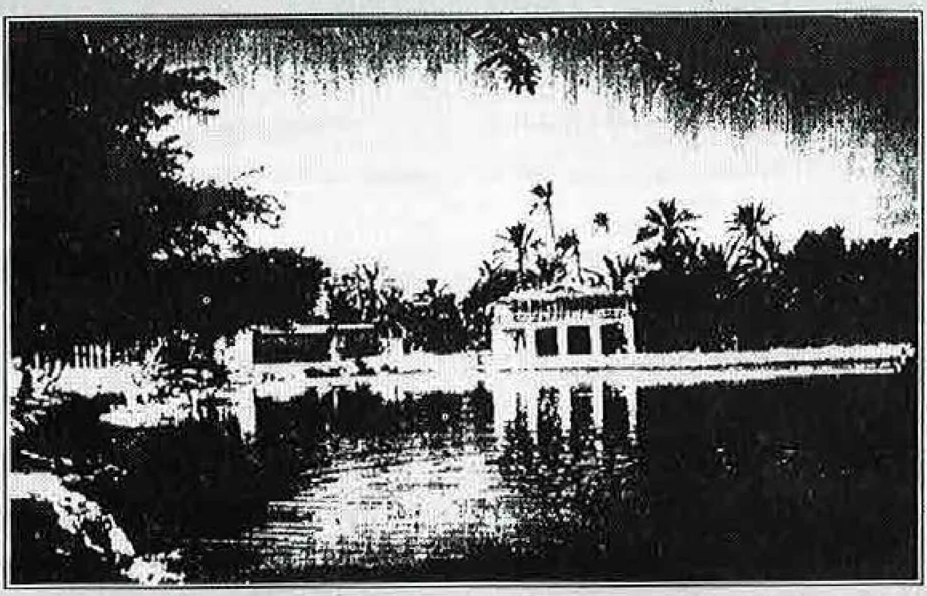
ويذكر جواد علي(١٠) أن البحرين تعد من أكثف المناطق في جزيرة العرب، فإن نسبة عدد سكانها بالقياس إلى مساحة أرضها عالية نسبياً قبل الإسلام وفي الإسلام، وسبب ذلك هو توافر الماء فيها، واعتمادها على استخراج اللؤلؤ من البحر وعلى صيد السمك الذي يقدم للأهلين المادة الأولى للمعيشة. والماء فيها غير عميق عن سطح الأرض وقد كوّن عيوناً في بعض الأماكن، ولهذه المميزات صارت موطناً للحضر قبل الإسلام بزمن طويل.

وتعتبر حضارة العُبَيْد (٥٠٠٠سنة ق.م.) أقدم الحضارات التي تركت آثارها في البحرين(١١) ممثلة بفخارها المميز والأدوات الحجرية الصوانية كالمنجل والمخارز وغير ذلك(١٢). وتبين تلك الشواهد أن قوم العُبَيْد استوطنوا الأجزاء الشمالية من جزيرة البحرين بجانب العيون والينابيع في الفترات الجافة، وانتشروا جنوباً في الفترات المطيرة، سيما وأن الفترة من ٥٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م.، كانت أكثر مطراً من الوقت الحاضر(١٣). ويشير لارسن(١٤) إلى أن حضارة العُبيد تعكس بأنهم مارسوا نشاطاً زراعياً بدائياً شمال جزيرة البحرين، إضافة إلى حرفتي الرعي والصيد في وسط الجزيرة وجنوبها مدللا على ذلك بما وجده من عينات رعوية في منطقة المرخ غرب الجزيرة والتي تدل على أن هذه المنطقة كانت تزخر بالمراعي والخراف والماعز.

لقد تركت لنا حضارة دلمون العريقة والتي ترجع إلى نحو ٣٠٠٠ سنة ق.م. آثاراً ممثلة بآلاف المقابر الشاخصة حتى يومنا هذا لتدل على الكثافة السكانية العالية في جزيرة البحرين خلال هذه الفترة في مدن خُطِّطت بطريقة هندسية جميلة[١٥] . إضافة لذلك فإن آثار اللؤلؤ (أو الأكوام الكبيرة من أصداف محار اللؤلؤ التي وجدت في جنوب جزيرة البحرين) والحلي النحاسية والفخار التي وجدت في سار وباربار تعكس التقدم الحضاري والرخاء الذي نعِم به سكان الجزيرة خلال حضارة عرفت بحضارة باربار الأولى[١٦] . هذه الحضارة التي يعتبرها بعض الباحثين أصل الحضارة الفينيقية (٢٨٠٠ ق.م.)، حيث أن عدداً من الباحثين يرون أن البحرين كانت الموطن الذي نشأ فيه الفينيقيون، أو أنهم نزحوا إليها وسكنوا فيها ردحاً من الزمن[١٧] .

ولقد تطورت الزراعة إبان حضارة باربار الأولى إلى نظام الزراعة المروية، وانتشرت بالأجزاء الشمالية من الجزيرة زراعة النخيل وأشجار الفواكه والخضر، وشكل التمر السلعة الرئيسية للتصدير، مما يؤكد كبر المساحة المزروعة بالنخيل . ونظراً لصغر الرقعة الزراعية المتاحة في الجزيرة فقد عمد سكانها إلى استيراد الحبوب والمواد الغذائية الأخرى من خارج الجزيرة[١٨] . وما أختام الفترة الدلمونية، المميزة عن أختام الحضارات المجاورة التي عاصرتها بشكلها الدائري، والتي ازدان البعض منها برسوم البيئة البحرينية من نخيل وغزال وسفن إلا دليل على النشاط الزراعي والرعوي والتجاري لأهالي دلمون قبل آلاف السنين .

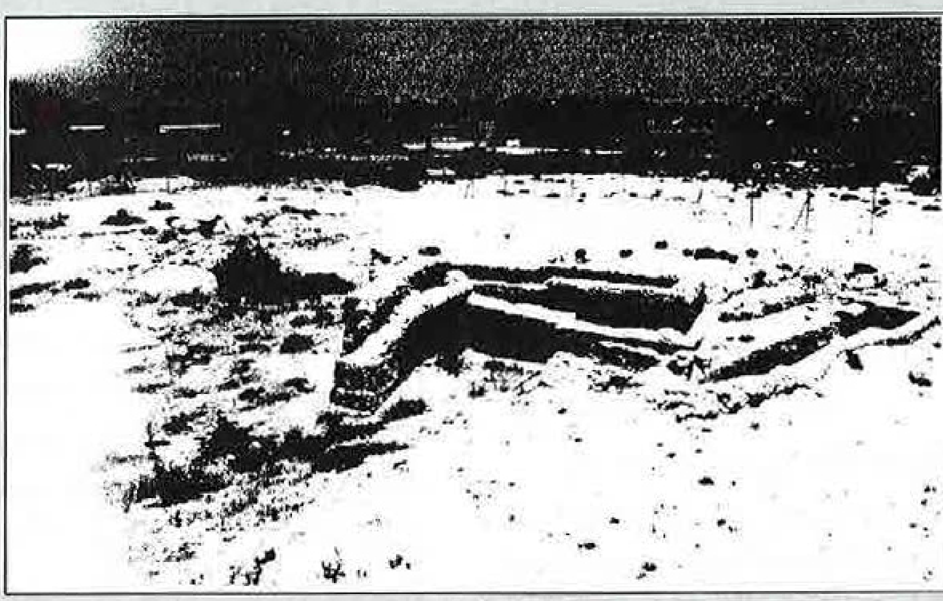
ولقد كان للعيون الطبيعية مكانة خاصة لدى الدلمونيين فبالإضافة لكونها تفي بمتطلبات وجودهم، فقد كان لبعض العيون قدسية خاصة حيث عثر بيبي[١٩] عند حفره لمعبد باربار على فخار وتماثيل يُعتقد أنها لآلهة كانت تُعبد آنذاك . كما يوجد أكثر من معبد شيد بجوار عين أو حفر في فنائه بئر كمعبد أم السجور وباربار ودراز وغيرها، وقد استخدم الدلمونيون مياه هذه العيون في الاغتسال والتبرك ولتطهير أجسامهم لاعتقادهم بقدسية مياهها[٢٠] . ففي معبد باربار مياه مقدسة في بئر أطلق عليها اسم "**قدس الأقداس**" ويرجح بيبي[٢١] أن مياه الأبسو التي فجرتها الآلهة كانت تنبع من جرة بدون قاع



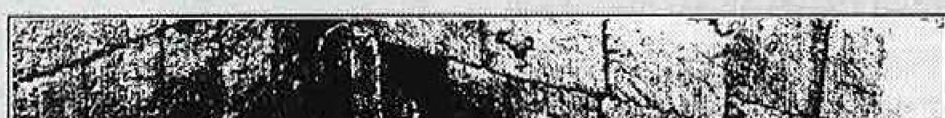
صورة عين قصارى الكبرى التي كانت تعتبر من أجمل العيون في البحرين



صورة توضح ممارسة بعض النساء لغسيل الملابس في عين قصارى



بقايا معبد أم السجور



معبد باربار – لاحظ امتلاء فناء المعبد بالماء

الوثيقـة ـ ٥٣

وجدت داخل حوض شمال معبد باربار، ويدل الاسم على مدى تقديس المياه في ذلك الزمن الذي قلت فيه الأمطار.

ولقد انتهت حضارة باربار الأولى حسب ما جاء في لوحة مسمارية باجتياح الملك سرجون الأكادي لجزيرة البحرين في ٢٣٦٠ ق.م.، واستيلائه عليها وإجبار مملكة دلمون على الولاء له(٢٢). ومن الجدير بالذكر أنه في حوالي ٢٤٠٠ ق.م. أخذ المناخ يميل إلى الجفاف إلا أن تأثير هذا الجفاف على الحياة تأخر نوعاً ما نظراً لارتفاع منسوب المياه الجوفية مما ساعد على استمرار الحياة سنوات بعد ذلك(٢٣).

غير أن احتلال سرجون الأكادي لم يدم طويلاً حيث استعادت دلمون استقلالها لتزدهر في فترة باربار الثانية (٢٣٠٠ - ١٧٥٠ ق.م.). ويذكر لارسن(٢٤) أن سكان جزيرة البحرين قد انتشروا في فترة باربار الثانية حتى الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة، وحفروا الآبار على منحدرات منكشفات تكوين الخبر، وأقاموا نشاطاً زراعياً كثيفاً بلغت معه مساحة الأراضي المزروعة ١٥٣ كم٢ منها ٨٥ كم٢ من حقول النخيل، و٦٨ كم٢ زراعة في سهول ساحلية ورواسب غرينية. واعتمدوا على المياه الجوفية في ري محاصيلهم الزراعية ساعدهم على ذلك ارتفاع منسوب مياه العيون وجريانها. وكانت تجارة التمور بجانب الخضر والفواكه وعلف الماشية من أهم صادرات جزر البحرين خلال تلك الفترة.

ولقد كان وجود عيون المياه العذبة البرية والبحرية في جزر البحرين من أهم أسباب سيطرة وتحكم الحضارة الدلمونية خلال فترة باربار الثانية على تجارة النحاس بين ماجان (عمان) وبلاد الرافدين. إذ احتاجت بلاد وادي الرافدين لكميات كبيرة من النحاس لصنع آلتها العسكرية فكانت السفن المحملة بهذه البضائع من ماجان والسند إلى بلاد وادي الرافدين ترسو بجزيرة البحرين للتزود بالمياه العذبة والتمور(٢٥).

ونظراً للازدهار والرخاء الذي تمتعت به حضارة دلمون خلال فترة باربار الثانية، إضافة إلى موقعها الاستراتيجي فقد أصبحت مطمعاً لحكام بلاد وادي الرافدين، إذ سيطر الغزاة الكاشيون عليها في الفترة من ١٧٥٠ إلى

١٢٠٠ ق.م.[٢٦] . ومع انهيار الفترة الدلمونية السابقة وما تعرضت له الجزيرة من غزوات من قِبَل حكام وادي الرافدين فقد انهار النشاط الزراعي وتقلصت مساحة الأرض المزروعة إلى ٤٦ كم٢ فقط تركزت في السواحل الشمالية لتقتصر على مناطق وجود المياه فقط، وربما كان لتأثر المنطقة بالجفاف في تلك الفترة أثر على تقلص المساحة المزروعة[٢٧] . ويذكر بيبي[٢٨] أنه عثر في حفرياته على لوحة هي الوحيدة التي عثر عليها في البحرين (وترجع للفترة الكاشية) تهتم بنتاج هذه المنطقة من التمر، فتذكر أن دلمون كانت تصدر التمور وكان تمرها موضع تقدير عالٍ في بابل .

تلت هذه المرحلة مرحلة المدينة الرابعة أو ما يعرف بدلمون المتأخرة (١٢٠٠ - ٦٠٠ ق.م.) والتي عاصرت البابليين والآشوريين في العراق . هذه المرحلة تعتبر مرحلة ازدهار في تاريخ دلمون، إذ استعادت دلمون مركزها التجاري مع بلاد الرافدين، وسيطر تجار دلمون على تجارة اللؤلؤ والنحاس والبرونز، ولقد ساهمت الزيادة في هطول الأمطار خلال تلك الفترة[٢٩] في التطور والنمو السكاني والزراعي فاتسعت الرقعة الزراعية عن سابقتها ووصلت إلى ٦٥ كم٢ . وانتهت المدينة الرابعة سنة ٦٠٠ ق.م. إثر سقوط الدولة الآشورية لتنتهي حضارة عريقة هي حضارة دلمون .

ونظراً لما كانت تتمتع به دلمون من رخاء وأموال وموقع استراتيجي في الخليج فإن هذه المنطقة كانت وعلى مر العصور مطمعاً للقوى الأكثر هيمنة، فإثر ضعف وسقوط الدولة الآشورية سيطر البارثيون (الفرس) على المنطقة والخليج، وتعاهد العرب (الكلدانيون) معهم على دفع الجزية من الطيب والأموال والهدايا للقضاء على الدولة الآشورية والبابلية . غير أن أطماع الفرس في السيطرة على خيرات منطقة الخليج وموقعها الاستراتيجي المتوسط للتجارة بين الشرق الأقصى والجزيرة العربية أدت إلى تعرض البحرين إلى هجوم الساسانيين من السواحل الفارسية أثناء حكم قورش الثاني (٥٥٩ - ٥٢٩ ق.م.)، وزاد نفوذهم في الفترة (٣٧٨ - ٣٢٥ ق.م.) إبان احتلالهم للأجزاء الشرقية من جزيرة العرب[٣٠] . ويرجح لارسن[٣١] أن تقنية الري بواسطة القنوات قد تعرّف عليها في البحرين إبان النفوذ الساساني، أو ربما في تاريخ أقدم نتيجة لاحتكاك أهالي البحرين

بحضارات ماجان (عمان) وإيران وبلاد الرافدين التي وجد بها هذا النظام منذ القدم . وقد وصف جواد علي[٣٢] قنوات البحرين فذكر : "وفي جزر البحرين قنوات يظن أنها من عمل الساسانيين، أقاموها للاستفادة من المياه المتدفقة من العيون، وهي أخاديد حفرت في الأرض ثم بطنت بمادة تمنع الماء من التسرب إلى التربة ثم سقفت بصفائح من الحجر، أهيل عليه التراب لتمنع أشعة الشمس من الوصول إلى الماء فتبخره، وبذلك تقل كمياته . وبين مسافة وأخرى تقدر ما بين عشرة وعشرين ياردة توجد منافذ لمرور الهواء منها إلى باطن القناة . وقد بُطنت هذه المنافذ بالحجارة، وقد أقيمت جدر عند مخارجها إلى الأرض لتحميها من سقوط الأتربة فيها . ولا تزال بعضها عامرة تجري فيها مياه العيون حتى الآن . وهناك آثار قنوات مشابهة لها تقع في السواحل المقابلة للبحرين من المملكة العربية السعودية تعود إلى هذا العهد أيضاً" . وقد ساعد بناء القنوات في البحرين على استغلال أمثل للمياه وثبات الرقعة الزراعية فيها .

وظل الصراع بين العرب والفرس حتى ظهرت قوة جديدة هي الحضارة الإغريقية بقيادة الإسكندر الأكبر التي بسطت نفوذها على مساحة واسعة من العالم في العقد الرابع من القرن الرابع قبل الميلاد، فقد سيطر الإغريق على سواحل الخليج العربي بأعظم أسطول بحري شهدته المنطقة، واحتلوا جزيرة "فيلكا" وأقاموا فيها معبداً سمي بمنار[٣٣] . وانتقلت الحركة التجارية الاقتصادية بين أعالي الخليج وأسفله من البحرين إلى مدينة "جرها" على الساحل الشرقي للجزيرة العربية والتي اشتهرت في التاريخ بكنوزها، كما تناقصت التجارة عبر الخليج العربي نظراً لتشجيع اليونانيين التجارة عن طريق البحر الأحمر الذي كان رغم بعده آمن وأسلم لبعده عن هيمنة الساسانيين (الفرس)، وأصبحت التجارة المارة بالخليج العربي مقصورة بالدرجة الأولى على ما تستهلكه الإمبراطورية الساسانية[٣٤] .

وسجل مؤرخو الإغريق أمثال سترابو وبليني فترة الاحتلال اليوناني في كتبهم وبينوا أن هناك جزيرة تدعى تايلوس تقع في الجنوب، قربها جزيرة أصغر تدعى أرادوس (المحرق)، كانت مهمة في طريق التجارة كونها نقطة للتزود بالماء العذب في الخليج[٣٥]، كما

أن بليني يذكر "بأن العرب كانوا يعتقدون بأن العين في البحرين تنبع مياهها الباطنية من مجاري نهر الفرات"[٣٦] . وجاءت التنقيبات الآثارية التي تمت مؤخراً (يونيو ١٩٩٧) في بعض القبور بقرية الشاخورة شمال جزيرة البحرين وما عثر فيها من عملات وحلي ومجوهرات لتؤكد على سكنى الإغريق أيضاً في جزيرة البحرين .

وانتهز الرومان فرصة ضعف حلفاء الإسكندر وانهيار مملكته العظيمة فاستولوا على ممتلكات الإغريق في الشرق، لتبدأ علاقة العرب بالرومان وليبدأ النزاع بين الرومان والفرس للسيطرة على خيرات الخليج والجزيرة العربية وطرق التجارة البرية والبحرية المارة فيهما[٣٧] . وانقسم العرب بين تابع للفرس وتابع للرومان بدون حكم مباشر من قِبَلهم، وقامت دول عربية غنية في شمال الجزيرة العربية كدولتي المناذرة والغساسنة كانت أهم دعائم قيامها سيطرتها على طرق التجارة .

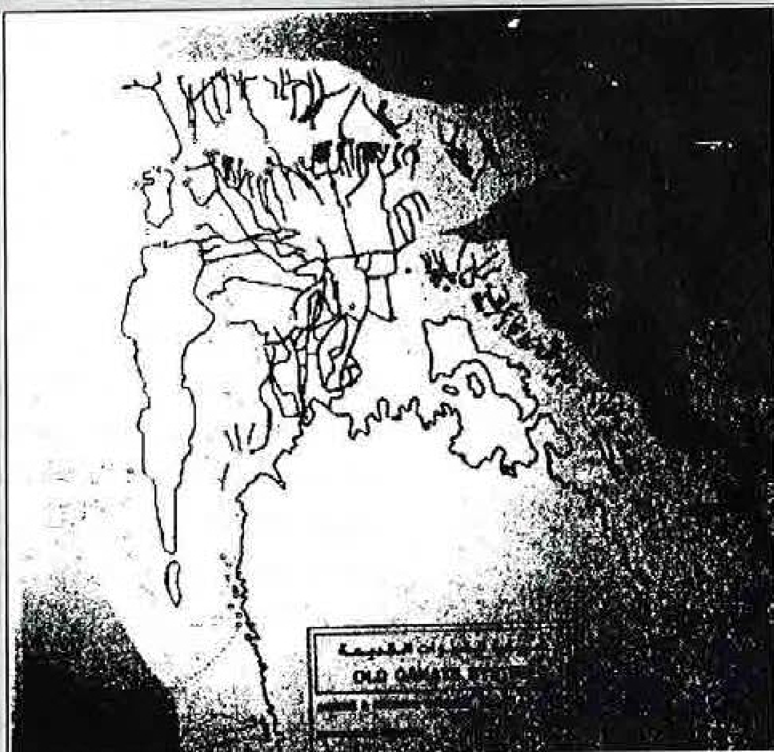
وكان يطلق على جزيرة البحرين آنذاك اسم أوال، والراجح أن "أوال" اسم وثن تعبَّد له أهل البحرين قبل الإسلام وربما يرجع أصله إلى الجزيرة العربية وانتقل إلى البحرين مع الهجرات التي تعرضت لها من قِبَل القبائل العربية التي فرضت نفوذها على المنطقة آنذاك، وإثر انتهاء علاقتها الدينية مع حضارة وادي الرافدين، أو أن أوال نسبة إلى بكر (وائل) التي ينتسب لها بكر وتغلب بن وائل الذين سكنوا إقليم البحرين قبل الإسلام[٣٨] . إذ أن أعراب جزيرة العرب حينما كان يدب الجفاف في أراضيهم وما ينتج عن ذلك من مجاعات وحروب للسيطرة على آبار المياه والمرعى لا يسعهم سوى الهجرة إلى مناطق المياه في شمال وشرق وجنوب الجزيرة العربية[٣٩] . ومن هذه المناطق البحرين (الجزء الشرقي للجزيرة العربية وجزر البحرين) . ويشير لارسن[٤٠] إلى أن تقلص النشاط الزراعي في البحرين خلال فترة الألف الأول بعد الميلاد ربما يعود إلى أن تلك الفترة قد شهدت تناقصاً في سقوط الأمطار وجفافاً لم يقتصر على البحرين فحسب وإنما امتد تأثيره إلى الجزيرة العربية مؤدياً أحياناً إلى حصول مجاعة .

تلت هذه المرحلة مرحلة العصر الإسلامي الذي بدأ بدخول الإسلام إلى البحرين عام ٦٣٠م واعتناق أهلها

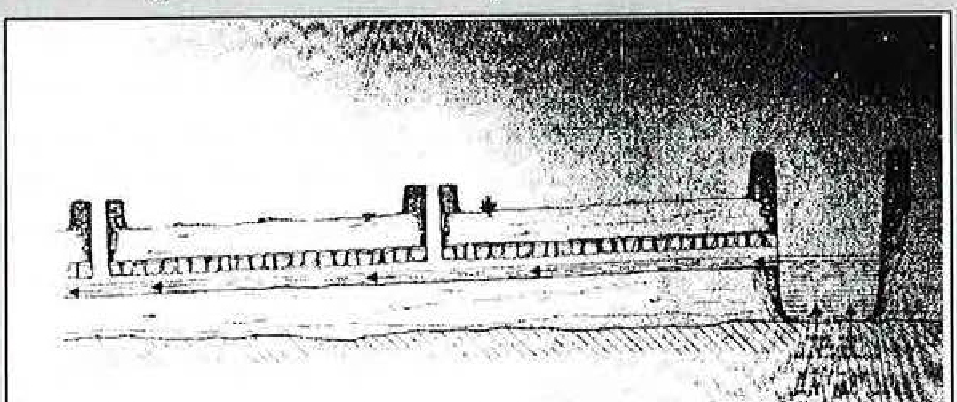
الإسلام . ورغم الحالة الاقتصادية السيئة التي عانى منها باقي عرب الجزيرة العربية في تلك الفترة، إلا أن أول وأكبر خراج دخل المدينة المنورة هو خراج أهل البحرين، حيث يذكر البلاذري[٤١] أن المبلغ الذي أرسل إلى النبي ﷺ بلغ ٨٠,٠٠٠ دينار مما يدل على استقرار البحرين وغناها .

ويصف ياقوت الحموي أوال في كتابه معجم البلدان فيذكر أن الاسم القديم لأوال هو (ترم) وهي تقع على مسيرة يوم من الساحل الشرقي لجزيرة العرب، وأنها كانت مأهولة بالسكان عند ظهور الإسلام، وأرضها خصبة ومياهها وفيرة وتعتمد على المياه الجوفية، وفي صدر الإسلام كان في الجزيرة مدينة كبيرة حسنة ولها جامع يقصد (المنامة) وفيها بعض القرى في الشمال الشرقي ويقصد (الجفير)، وقرية سترة وهي جزيرة تقع شرق أوال غنية بالآبار والعيون وفيها كثير من أشجار النخيل[٤٢] . ولعل ما وجد في قلعة البحرين، التي يرجح الآثاريون[٤٣] أنها تعود إلى العصر الإسلامي وربما أقدم (اليوناني)، من قنوات محفورة في أرضية إحدى غرفها لاستخراج الدبس (عسل التمر) بالأسلوب التقليدي لهو دليل على وفرة التمور في هذه الجزيرة .

ومن الروايات الشعبية المتداولة الخاصة بعيون البحرين التي تعكس أهمية عيون المياه لدى سكان البحرين روايتان ذكرتا في كتب التاريخ الأولى تخص عين أم السجور التي كانت أعظم بئر في البحرين والتي كانت تسقي القسم الشمالي من الجزيرة، فتذكر الرواية أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أرسل جيشاً إلى البحرين لحرب الخوارج وإعادة سيطرة الدولة الأموية على البحرين وقام قائد الجيش بردم عين أم السجور عقاباً لسكانها[٤٤] . إلا أن الدلائل الأثرية التي وجدتها البعثة الدنمركية تبين أن تدميراً لحق بالعين وأن ردم أم السجور ربما حدث في عصور أكثر إيغالاً في القدم أو ربما وقع التدمير أكثر من مرة، وتقص علينا الرواية الثانية بأنه في غابر الزمان كان زعيم يدعى ابن حكيم يقطن القطيف جاء إلى البحرين وهو يرغب في الزواج من ابنة جميلة لرئيسها ويبدو أنه لا الحسب ولا المال كان مرغوباً فيهما، إذ قوبل طلبه بالرفض والازدراء، فما كان منه إلا أن أشعل نار الحرب وقطع عن أهل البحرين الماء بقصد إكراههم وقهرهم



شبكة قنوات الري القديمة في البحرين (متحف البحرين الوطني)



شكل تخطيطي لقناة رى (متحف البحرين الوطني)

عطشاً فتسبب في ردم ثلاثة آبار، واحدة في عالي والثانية في بَلاد القديم والثالثة في دراز، ولكن ذلك الغازي رُدُّ على أعقابه بعد حين واضطر للتراجع بعد هزيمته(٤٥) .

ومن الجدير بالذكر أن البحرين (أوال والأحساء والقطيف) مرت خلال عصور الخلافة الإسلامية بفترة من الاضطرابات للمرتدين وبعض الحركات الانفصالية عن الخلافة الإسلامية مثل الخوارج والزنج وحركة القرامطة وغيرها مما أدى إلى عدم استقرار المنطقة وبالتالي تقلص النشاط الزراعي . فمثلاً نجد أن ما سُنَّ من قوانين إبان حركة القرامطة يستهدف جباية الضرائب التي كانت تدخل ميزانية الدولة وتصرف على الخدمات العامة والأسلحة وتجهيز الجيوش قد ساعد على تدهور الوضع في المنطقة . حيث فرضت ضرائب على المراكب التي تمخر الخليج، وعلى الغوص (أي صيد اللؤلؤ)، وأعشار تؤخذ على الأراضي، ورسوم على التجارة وغنائم الحروب والمزارع الخاصة بالدولة . ولعل بعد المنطقة عن مراكز الخلافة الإسلامية ووفرة مياهها وثرواتها الزراعية والتجارية واكتفائها الذاتي نسبياً جعل منها مناطق استقطاب لتلك الحركات الانفصالية .

وفي القرن الثاني عشر طرأت على البحرين تغيرات وتحولات سياسية واتجاهات مغايرة إثر سيطرة الفرس، كما شهدت هذه الفترة انحساراً لمستوى المياه الجوفية والينابيع، وقلة الأمطار ونتيجة لذلك فقد تم مد القنوات إلى الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة(٤٦) .

لقد تأثرت جزيرة أوال بالمد العربي في القرن الثالث عشر، وأصبح لها علاقات مع المراكز التجارية الأخرى في الخليج كجزيرة (هرمز) وجزيرة (قيس) اللتين كانتا تشكلان موازين القوى في الخليج في ذلك العهد، وقد أُطلق في هذه الفترة على مجموعة جزر أرخبيل البحرين الحالية اسم البحرين(٤٧) .

وفي بداية القرن السادس عشر سيطر البرتغاليون على طرق التجارة وأقاموا لهم مراكز في الخليج أهمها جزيرة هرمز وجزيرة البحرين . ويعزو الخليفة وأباحسين(٤٨) أسباب غزو البرتغاليين للبحرين إلى الأهمية العسكرية والاستراتيجية لموقعها وما تذكره المصادر البرتغالية من وصف

لخيراتها، وهذا ما يبرر استمرار الوجود البرتغالي فيها ما يقارب المائة عام حيث تذكر تلك المصادر "أن البحرين تضم جزيرة كبيرة غنية بالمياه العذبة والخضراوات والأشجار الباسقة وغنية بالجواهر ومغاصات اللؤلؤ ومصايد الأسماك، وأن سكانها وهم من القبائل العربية كانوا يبيعون اللؤلؤ للتجار الذين ينقلونه بدورهم إلى بلاد الهند وفارس والبلاد العربية الأخرى فيدر على البحرين أرباحاً طائلة" .

أما ما كتبه القائد الأديب الشاعر العثماني علي شلبي، الذي أوكلت له مهمة مهاجمة البرتغاليين في الخليج عام ١٥٥٣م، في وصف جزيرة البحرين فهو "وفي البحرين وجدنا ويالها من حكمة عجيبة - الغواصين وكل واحد منهم يمسك بيده زقاً يغوص في البحر حوالي ثمانية أبواع (الباع حوالي المتر ونصف المتر) أو أكثر ثم يملؤ ما بيده من زق بماء عذب من القاع . وفي أيام الصيف يكون هذا الماء أكثر برودة من المياه الأخرى وأكثر عذوبة أيضاً . ويسترسل علي شلبي فيذكر بأن هذا الماء جيد جداً وأن الآية الكريمة "مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) إنما تتحدث عن هذا وهم يعتقدون أن هذا الماء هو سبب إطلاق هذا الاسم على البلد"(٤٩) .

ولقد أتاح خروج البرتغاليين من الخليج العربي الفرصة أمام بعض التجمعات القبلية للهجرة من مواطنها في شبه الجزيرة العربية متجهة نحو الساحل الغربي للخليج العربي إثر تعرضها لقسوة البيئة وطلباً للخيرات من لؤلؤ وأسماك وما تجلبه السفن من تجارة تأتيها من البلاد القاصية والدانية . ومن هذه القبائل العربية عرب العتوب الذين ينتمون إلى قبيلة عنزة التي تعرضت في أواخر القرن السابع عشر (١٦٦٥ - ١٦٦٧م) إلى قحط شديد سمي (صلهام) هلك فيه عدد كبير من الناس، ونشبت فيه الحروب بين القبائل للتنازع على البقاء لقلة الخيرات ويقول في ذلك أحد أدباء سدير :

غدا الناس أثلاثاً فثلث شريدة
يلاوي صليب البين عار وجائع
وثلث إلى بطن الثرى دفن ميت
وثلث إلى الأرياف جال وناجع

هذه الأسباب وغيرها دفعت بعض القبائل إلى الهجرة صوب مناطق غنية بالخيرات كالعراق والأحساء ومناطق

الخليج العربي[٥٠] . وقد اجتذبت موارد البحرين الطبيعية وموقعها الاستراتيجي الآمن ومناخها الأقل قسوة مما يجاورها من مناطق أنظار أية جماعة رغبت في تحسين مستواها المعيشي . ويصف لاندن[٥١] اقتصاد البحرين عام ١٧٨٠م بأنه يعتمد أساساً على البيئة فتواجد الماء العذب المستمر ساعد على زراعة النخيل والخضراوات عبر آلاف السنين، كما أن صيد السمك واللؤلؤ كان يشكل عنصراً أساسياً لاقتصادها التقليدي . وعليه فإن التمر وصيد السمك كانا مصدرين لدفع الخراج على مر العصور لمن يحكم الجزر . أما التجارة والصناعة البحرية فإنها مبنية على تبادل المنتجات المحلية (خاصة اللآلئ) كما أن نقل البضائع الواردة من والصادرة إلى موانئ شرق الجزيرة العربية كان أيضاً مصدراً هاماً في نظام الاقتصاد المحلي التقليدي .

وقد كان لدخول آل خليفة البحرين وتوطيد دعائم حكمهم فيها (١٧٨٣م) أكبر الأثر في خلق نظام مستقر في البحرين يحميها من الأطماع الخارجية والاضطرابات الداخلية الناجمة عن التنافس في الحكم، مما ساعد على خلق نظام اجتماعي اقتصادي خاص بدولة البحرين، حقق ازدهاراً تجارياً رغم الأطماع التي ما انفكت تحاول السيطرة على خيرات الجزيرة من حين لآخر إلى أن وقعت البحرين الاتفاقية الأنجلو بحرينية الأولى (١٨٦١م) مزيلة بذلك خطر أي غزو خارجي يهدد البحرين[٥٢] ولتتفرغ الدولة لعمليات البناء والتنمية والتي مازالت مستمرة حتى يومنا هذا .

من هذا السرد التاريخي لتتابع الحضارات في دلمون، نجد أن البحرين وعلى مر العصور وتتابع الحضارات كانت بلداً زراعياً، وأن مياهها الجوفية المتدفقة على هيئة عيون طبيعية كانت الركيزة الأساسية لقيام هذا النوع من النشاط الاقتصادي . أما مساحة الرقعة الزراعية فيها فهي في تباين من فترة لأخرى تبعاً لوفرة مياه الأمطار والاستقرار والرخاء الذي تمتعت به كل فترة . غير أن الثابت هو أن الأجزاء الشمالية والشرقية والغربية حيث تتركز معظم عيون البحرين الطبيعية كانت وعلى مر العصور مناطق قيام المدن واستقرار السكان . إذ تنتشر الينابيع البحرية على امتداد السواحل الشرقية والشمالية الشرقية لجزيرة سترة والمحرق وبدرجة أقل على السواحل

الشمالية لجزيرة البحرين عند سنابس وباربار ودراز . أما الينابيع البرية فتظهر بشكل متفرق في مناطق من جزيرة سترة، والأجزاء الشرقية من جزيرة البحرين، في مناطق النويدرات، وسند، وتوبلي، وفي الأجزاء الشمالية والشمالية الوسطى، والشمالية الشرقية من جزيرة البحرين في المقشع، وكرانة، وعالي، وفي مناطق المنامة الكبرى، وجزيرة النبيه صالح .

إن استمرار تدفق المياه من عيون البحرين لآلاف السنين يعكس حجم المخزون الجوفي لهذه المياه في منطقة وفترة اتسمت بالجفاف منذ حوالي ٦٠٠٠ سنة(٥٣) . مما يدل على أن هذه المياه هي مياه أحفورية غير متجددة، ملئت خلال الفترات المطيرة التي تعرضت لها مكاشف التكوينات الحاملة للمياه في البحرين والخزان العربي الشرقي الواقعة في صحراء الدهناء . إذ اتسمت هذه الفترات بأمطار منتظمة غزيرة استمرت لفترة طويلة تمكنت خلالها مياه الأمطار من ملء الخزانات الجوفية بكميات كبيرة من المياه لتتدفق شرقاً تبعا للميل العام للطبقات الحاملة لها نحو الساحل السعودي الشرقي والبحرين وتظهر على السطح مرة أخرى بهيئة عيون طبيعية وينابيع كأحد أشكال التصريف الطبيعي لهذا الخزان الإقليمي .

إن حضارة البحرين منذ العصور القديمة وحتى بداية القرن العشرين تدين بقيامها وتطورها إلى مياه العيون الطبيعية التي حباها بها الله والتي جعلت منها منطقة جذب لأعداد كبيرة من السكان استقروا حول مياهها المتدفقة وغطائها الأخضر، مما أكسب هذه المياه قدسية خاصة لدى سكان تلك الجزيرة وما جاورها، وما المعابد التي وجدت حول البعض منها كمعبد باربار ومعبد أم السجور ودراز وسار وغيرها إلا دليل على قدسية هذه المياه . ولعل انتشار مظاهر الجفاف حول الجزيرة زاد من أهمية وقدسية هذه العيون المعطاءة . ولا يختلف الحاضر عن الماضي فلازال لبعض العيون في البحرين وحتى الماضي القريب قدسية خاصة كعيون جزيرة النبيه صالح، كما استمرت بعض العيون الأخرى ملتقىً للناس وبخاصة في أفراحهم وتزاوجهم حيث كان العرسان يزفون على مشارفها تيمناً، ويغتسلون بمياهها تطهراً كعين أم شعوم وعين عذاري . في حين جذبت عيون أخرى سكان البحرين لجمالها وتدفقها وكثرة

مياهـها والبيئـة الزراعيـة المتراميـة المحيطة بها كعين قصاري وعين الرحى . كما وكانت العيون في البحريـن تعتـبر مصايف للسكان حتى الماضي القريـب، حيث يذكـر النبـهاني الطـائي[٥٤] في كتابـه التحفـة النبهانيـة "أنه في زمـن الصيـف ينزل غـالب الأهـالي والحكـام قـرب مـاء العيـون العذبـة الـتي عنـد سواحل البحر بين النخيل والبساتين من أواسط الربيـع حتـى أوائل الخريـف في بيوت مؤقتة من جريد النخيل" .

فلقد وصـف النبـهاني الطـائي[٥٥] الـذي زار البحريـن أوائـل هـذا القـرن (١٩١١م) عيـون البحريـن فذكـر "أن جزيـرة البحريـن كثـيرة الميـاه العذبـة، ولكثرة ينابيعها البحرية وعيونها البريـة كـانت في غايـة الخصوبـة سـوى أن فلاحتـها غـير متقنـة ويوجـد في وسـط البحـر جملة ينـابيع عذبـة تفور بقوة . فيغوص عليـها المستقون فيملئـون منـها القرب للسفن ولشرب غالب أهل البلـدة وأن من الواقعة علـى سـاحل البحـر لما يتدفق ماءها ويسيل على وجـه الأرض . ومنها ما إذا جزر البحر ظهرت فاستقوا منها . وإذا مد البحر علاها بنحـو ستة أذرع فيغوصـون عليـها للاستسـقاء . واليـنابيع البحريـة هـي ألطـف مياهـهم لصيانتـها عـن الأوسـاخ الـتي تقذفـها الرياح في العيون غالباً . وأيضاً ليس بها دود ولا طيسـي (ميكـروب) وذلـك عـدم مكثـه بسرعة وفورانـه وتدفقـه"[٥٦] .

ويسترسل فيذكر "وعدد الينابيع البحرية المشهورة عندهم بأسماء مخصوصـة نحـو ٢٥ ينبوعـاً غـير الصغـار والمجهولـة الاسـم، وعـدد الـتي في الـبر نحـو ٢٠٠ عين وذلك غير الصغار، وغالبـها يسيح على وجه الأرض ثم يفيـض في البحـر . وأن عيون البحريـن وينابيعـها الموجـودة اليوم تزيـد علـى معـدل (حالـة أرضـها الطبيعيـة) بكثـير، وفي الحقيقـة أن البحريـن أكـثر البقـاع مياهـاً مـع أنـها جزيرة" .

غير أن اكتشاف البترول أوائل هذا القرن وما واكبه من زيادة سكانية وتطور سريع في الجزيرة العربية والبحرين ومـا أدى إليـه مـن تطـور صنـاعي وزراعـي بسبب ثروات النفـط أدت إلى استنزاف المياه الجوفية في فترة لا تجاوز ٧٥ سنة . وإذا كـانت الـثروة البتروليـة قـد استطاعت حتـى يومنـا هـذا أن تمدنـا بالمياه المحلاة من البحر، فـهل بإمكـان الأجيال القادمة العيـش في هـذه المنطقـة بعد نضوب الماء والبترول، أو أن ننتظر حصول معجزة قادمة على هيئـة عصـور

مطيرة لشبه الجزيرة العربية ليتحقق حديث رسولنا ﷺ **"لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً"** (رواه مسلم) .

هند عبد العزيز القصيبي

د. أسماء علي أباحسين

د. وليد خليل الزباري



بعض من أختام الفترة الدلمونية (متحف البحرين الوطني)



إنكي إله المياه العذبة تحت الأرضية (متحف البحرين الوطني)

المراجع

١ - القصيبي، هند عبد العزيز، ١٩٩٨م . تاريخ وواقع العيـون الطبيعية في دولـة البحرين . أطروحـة ماجستير، جامعة الخليج العربي، البحرين، ص ١٣ - ٣٦، ٤٢، ١٢٥ .

٢ - الأحمد، سامي سعيد، ١٩٨٥م . تاريخ الخليج العربي مـن أقدم الأزمنـة حتـى التحريـر العربـي . مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ص ٢١١ .

٣ - جواد علي، علي، ١٩٧٦م . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . جـ ١، الطبعة الثانيـة، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٥٥٣ .

الخليفة، عبد الله بن خالد، وعبد الملك الحمر، ١٩٨٢م . البحريـن عـبر التـاريخ، جـ ١، المطبعـة الحكومية وزارة الإعلام، دولة البحرين، ص ١٥، ١٦ .

الأحمد، م.س. ص٢٠٨ - ٢١٢ .

٤ - بيبي، جيوفـري، ١٩٨٥م . البحـث عـن دلـون . ترجمـة أحمد عبيـدلي، دلمون للنشـر، نيقوسيا، ص١٣٠ - ١٣٢

٥ - الأحمد، م.س. ص٢١١ .

٦ - رايس، مايكل، ١٩٨٧م . تلك الجزيرة على حافة العالم . الوثيقة، العدد العاشر، ص١٨٢ - ١٩٧ .

٧ - النجم، عبد الرحمن عبد الكريم، ١٩٧٣م . البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، طبع دار الحرية، بغداد، ص١٧ .

٨ - آلخليفة والحمر، م.س. ص١٩ .

٩ - الأحمد، م.س. ص ٥٧ . وجواد علي . جـ١ . م . س . ص ٥٣٣ - ٥٣٤ .

١٠ - جواد علي، جـ١، م.س. ص ١٩٢ .

١١ - بيبي، م.س. ص ٤٧٦ .

١٢ - بيبي، م.س. ص٧٣، ٧٤، ٧٦ .

١٣ - شرف، عبد العزيز طريح، ١٩٨٥م . مناخ أواخر البليستوسين والتغيرات التي طرأت عليـه خـلال العهود التالية حتى أواسط القرن التاسع عشر . الكتاب الجغرافي السنوي، العدد الأول، الريـاض، ص٩١ .

١٤ - Larson, C.E., 1983 . Life and Land use on the Bahrain Islands, the Geoarcheology of an Ancient Society. Univ. of Chicago, pp.74 - 76 & p. 200 .

١٥ - Woodburn, M., 1995. Ancient Saar, Uncovering Bahrain's Past, London - Bahrain Archaeologcal Expedition, North Star Publishing. U.K. London. P48

١٦ - بيبي، م.س. ص٢٢١ .

١٧ - جواد علي، جـ١، م.س. ص٥٦٦ و ٥٤٥ .

الخليفة والحمر، م.س. ص٧٧ .

١٨ - Larson. م. س. ص ٢٠١ .

١٩ - بيبي، م.س. ص ٢٢٥ .

٢٠ - جواد علي، جـ١، م.س.، ص٥٧١ .

٢١ - بيبي، م.س. ص٣٥١، ٣٥٢ .

٢٢ - الخليفة والحمر، م.س. ص٤٧ و ٤٨ .

جواد علي، جـ١ م.س. ص٥٤٥ و ٥٧١ .

٢٣ - شرف، م.س. ص٩١ .

٢٤ - Larson، م.س. ص١٩٢ - ١٩٥ و٢٠١ .

٢٥ - جواد علي، جـ١ م.س. ص٥٦٥ .

الأحمد، م.س. ص٢١٦ و٢١٧ و ٢٤٤ .

بيبي، م.س. ص٢٦٣ .

٢٦ - بيبي، م.س. ص٤٣٠ .

٢٧ - Larson، م.س. ص١٩٦ و ٢٠٣ .

٢٨ - بيبي، م.س. ص٤٣٠ و ٤٣٧ .

٢٩ - Larson، ص٢٠٣ .

٣٠ - جواد علي، جـ١ م.س. ص٥٢٩ .

الأحمد، م.س. ص٣٠٩ .

٣١ - Larson، م.س. ص٨٥ و ٢٠٤ .

٣٢ - جواد علي، جـ٢، م.س. ص٦٤٨ .

٣٣ - جواد علي، جـ٧، م.س. ص٢٦٧ .

٣٤ - النجم، م.س. ص٨٧ .

٣٥ - بيبي، م.س. ص٢٦٣ .

٣٦ - الخليفة والحمر، م.س. ص٥٢ .

٣٧ - جواد علي، جـ٢، م.س. ص٣٨ .

٣٨ - الخليفة والحمر، م.س. ص١٢١ .

بوتس، ا.ت.، ١٩٨٦م . برلين، أوال والمحرق (دراسة في سبب التسمية)، الوثيقة، العدد التاسع، مركز الوثائق التاريخية، دولة البحرين،ص١٥٧ .

٣٩ - جواد علي، جـ١، م.س. ص٢٤٠ - ٢٥٤ .

٤٠ - Larson، م.س. ص٢٠٦ .

٤١ - كانو، عبد اللطيف جاسم، ١٩٨٥م . البحرين في صدر الإسلام . الوثيقة، العدد السادس، مركز الوثائق التاريخية، دولة البحرين، ص١٩ و ٢٠ .

٤٢ - كيرفران، مونيك، وأبو خلدون، ١٩٨٣م . حفريات قلعة البحرين تضيف معلومات جديدة إلى التراث الحضاري، الوثيقة، العدد الثاني، مركز الوثائق التاريخية دولة البحرين، ص١٧٧ و١٧٨ .

٤٣ - كيرفران، مونيك، وآرليت نيجر، وميشيل بيرازولي، ١٩٨٢م . حفريات قلعة البحرين ١٩٧٧ - ١٩٧٩م . جـ١، مطبوعات وزارة الإعلام إدارة الآثار والمتاحف دولة البحرين، البحرين، ص١٨ .

٤٤ - بيبي، م.س. ص١١٧ .

الأحمد م.س. ص١٧٦ و١٩٥ .

٤٥ - الخليفة والحمر، م.س. ص٥٢ .

٤٦ - Larson، م.س. ص٢٠٦ .

٤٧ - الخليفة، عبد الله بن خالد، وعلي أباحسين، ١٩٩١م . البحرين عبر التاريخ، جـ٢، مركز الوثائق التاريخية، دولة البحرين، ص٩١ - ٩٣ .

٤٨ - ن.م.س. ص ١٤١ .

٤٩ - ن.م.س. ص١٥٧ .

٥٠ – بن عيسى، إبراهيم بن صالح، ١٩٦٦م . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان من ٧٠٠ – ١٣٤٠هـ، منشورات دار اليمامة، الرياض، ص٦١ .

٥١ – لاندن، روبرت، ١٩٨٦م . إعادة النظر في كتابة تاريخ البحرين، الجزء الأول ١٧٨٣ – ١٨٦١م، الوثيقة، العدد الثامن، مركز البحرين للوثائق التاريخية، دولة البحرين، ص٨٠ .

٥٢ – ن.م.س. ص٨٦ – ٨٩ .

٥٣ – McClure,1976; McClure, H.A. 1976. Radiocarbon Chronology of Last Quaternary Lakes in the Arabia. Nature. Desert : 755. P. 756 - 263 .

الوليعي، عبد الله ناصر، ١٩٨٨م . تغيرات المناخ في المناطق الجافة، "دراسة حالة" في المملكة العربية السعودية، الكتاب الجغرافي السنوي، العدد الرابع، الرياض، ص٤٦ – ٥٤ .

عبده، طلعت أحمد محمد، ١٩٨٨م . الجغرافيا التاريخية لشبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل التاريخ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص١٢٦ – ١٣٦ .

٥٤ – الطائي، ١٩٨٦م . ص٢٢ .

٥٥ – ن.م.س. ص٢١ .

٥٦ – ن.م.س. ص٢٢ .

دولة مسقط في الخليج



سيد سعيد بن سلطان البوسعيد

بقلم :

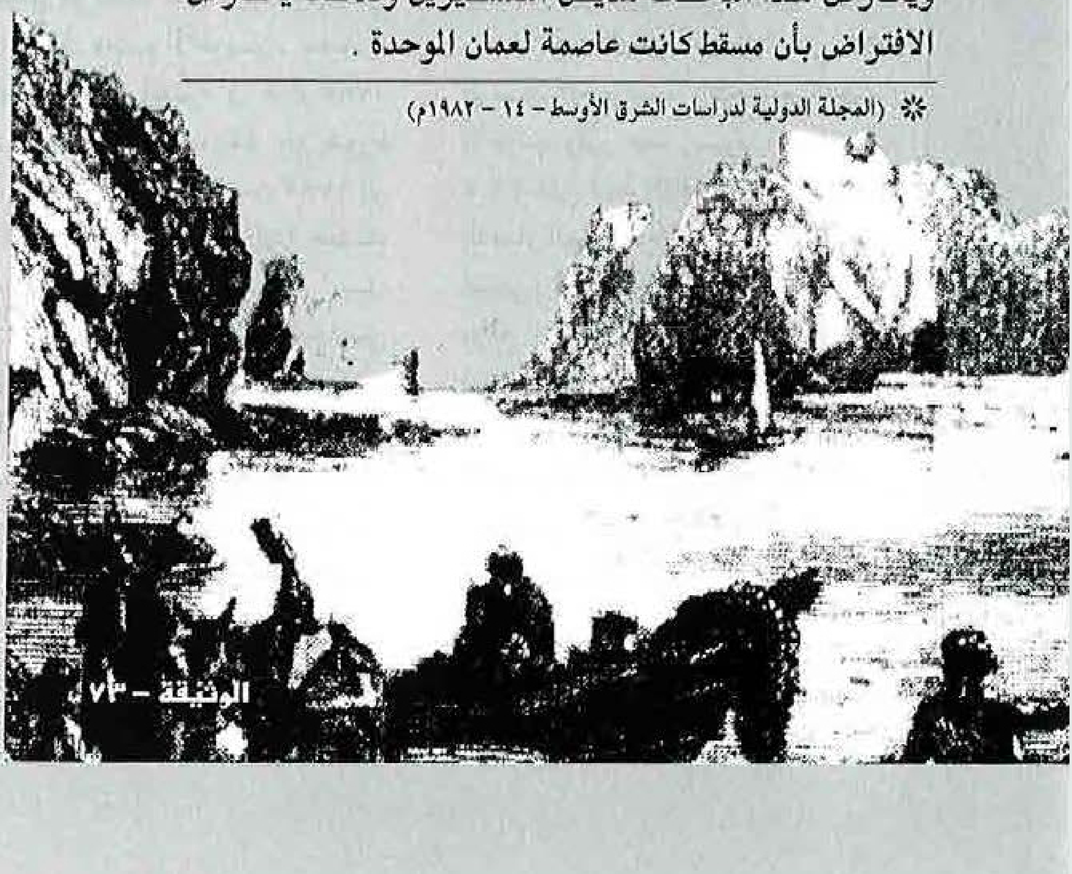
كالفيـــن أيتش آلـين



وشرق أفريقيا ١٧٨٥ - ١٨٢٩م *

يعتقد بصفة تقليدية عبر القرنين الماضيين عن تاريخ عمان بأن البلاد تم توحيدها في عهد آل بوسعيد، الذي كان مقره في الرستاق أولاً ثم نقل إلى مسقط لاحقاً، عندما تولى حمد بن سعيد الحكم في ١٧٨٥م[1] . وطبقاً لما ورد في لوريمر فإن نقل العاصمة إلى مسقط، وهي ميناء رئيسي للبلاد، كان له أثر تمزيقي للسياسة العمانية[2] . في حين يعتقد ج.ب. كيلي بأن هذا التغيير يمثل تحولاً في قاعدة السلطة من البر إلى البحر[3] . ويعارض هذا البحث هذين التفسيرين وكذلك يعارض الافتراض بأن مسقط كانت عاصمة لعمان الموحدة .

* (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط - ١٤ - ١٩٨٢م)



لقد أنشأ حمد بن سعيد في عام ١٧٨٥م دولة "مستقلة" في مسقط وساعدته هذه الخطوة في الاستفادة بالتجارة مع المنطقة الداخلية لعمان التي كانت تعتمد على مسقط لاستيراد المواد الغذائية والمنسوجات والمعادن والمواد الخام وفي نفس الوقت انتهت معارضة القبائل له وكانت أكبر عائق واجهه كل حاكم أراد أن يسيطر على المنطقة الداخلية والمركز التجاري معاً[4] . وبعد أن استقر في مسقط تبنى كل من حمد وخلفاؤه سياسة عسكرية وسياسبة عدوانية في الخليج العربي (١٧٨٥ - ١٨٢٠) وفي شرق أفريقيا (١٨٢٠ - ١٨٢٩م) بقصد إنشاء إمبراطورية تجارية عاصمتها مسقط وكان المبدأ الأساسي لهذه السياسة عدم تدخلها في شئون عمان التي كانت مقسمة بين قادة قبائل شتى .

وكان حمد بن سعيد ابناً لثاني إمام بوسعيدي هو سعيد بن أحمد ولم يكن حمد، مثل معظم الآخرين، مطمئناً لحكم أبيه[5] فتمرد في عام ١٧٨٥ وفرض سيطرته على مسقط. ولم يتورط حمد في فترة حكمه (من ١٧٨٥ إلى ١٧٩٢م) في السياسات العمانية حيث بقي والده في الحكم شرعياً[6] . بل ركز[7] اهتمامه على الوضع السياسي والتجاري في الخليج العربي الذي كان في حالة اضطراب عقب وفاة كريم خان الزندي في ١٧٧٩م[8] وكانت هذه السياسة عبارة عن اتخاذ إجراءات عديدة لجلب التجارة لمسقط وجعلها مركزاً تجارياً لمنطقة الخليج العربي ونقطة لمراقبة مرور السلع التجارية فيها .

تركزت المبادرة التجارية على تنظيم الرسوم الجمركية وتشجيع التجار الأجانب وقرّر حمد رسوماً ثابتة بواقع ٦,٥٪ على قيمة الفاتورة[9] . مما شجّع التجار الهنود وخاصة الهندوس على المجيء لمسقط لأنهم كانوا يدفعون رسوماً بواقع ٩٪ سابقاً[10] . وكان ذلك رسماً تمييزياً وأقام حمد روابط تجارية مع كل من السند وأفغانستان عن طريق وادي الأندوس والبنجاب وفي هذه المهمة تلقى دعماً من التطور الاقتصادي في السند حيث برزت مجموعة من التجار

المسلمين بمساعدة من حكومة إسلامية حديثة التشكيل فيها وحاولت هذه المجموعة انتزاع السيطرة على الأعمال التجارية من أيدي الهندوس الذين تمتعوا بجذور عميقة في هذا الحقل[11] .

ولم تكف هذه السياسة الاقتصادية فقط لفرض سيطرة مسقط على تجارة الخليج بسبب وجود المنافسين الآخرين ومنهم القواسم من رأس الخيمة والعتوب للبحرين الذين بحثوا عن دور لهم في تجارة الخليج[12] قد حاول حمد فرض مراقبته على هؤلاء المنافسين عن طريق استيلائه على الداخل إلى كل من الهند وشرق أفريقيا نظراً لحاجتهم إلى البضائع من تلك البلدان وانطلاقاً من هذا الاعتبار احتل حمد كلاً من ميناء خورفكان في خليج عمان وجزيرة الحمراء في جنوب غرب رأس الخيمة في ١٧٨٧م[13] وزوّد أسطوله البحري بإضافة فرقاطة[14] أن هذين الإجراءين مما أكدا لمسقط السيطرة على مضيق هرمز .

وكان لإجراءات حمد في تبسيط الرسوم الجمركية وتوسعة الاتصالات التجارية ومراقبة المدخل إلى الخليج تأثير جيد على تجارة مسقط. وأصبحت المدينة من أنشط الموانئ في منطقة الخليج العربي وحلت محل بندر عباس كمركز تجاري هام[15] . ومن سوء الحظ أنه عندما بدأت هذه السياسة تأتي بنتائج مثمرة توفي حمد فجأةً في عام ١٧٩٢. وواجهت مسقط الفوضى بسبب الصراعات التي نشبت بين أفراد أسرة البوسعيد لانتزاع الحكم. وأخيراً فاز سلطان بن أحمد، عم حمد وخصمه من زمن طويل[16] ولقد ضمنت اتفاقية البركة[17] في ١٧٩٣ استقلال مسقط .

لم يتعاطف التاريخ مع سلطان بن أحمد . ففرانسيس واردن وهو شبه معاصر للأحداث وكان موظفاً في حكومة بومباي جاء بالملاحظات التالية عن أنشطة سلطان في الخليج : "أن روح المبادرة التي اتسمت بها سيرة السيد سلطان، إمام مسقط، الذي انتزع الحكم من أخيه الأكبر،قد أدت إلى نزاعات خطيرة مع العرب وعدة حروب معهم... والمشاكل التي برزت في هذه الفترة ودامت حتى وفاة سيد سلطان في ١٨٠٤م تنسب إلى تصرفات هذا الحاكم في محاولاته تحقيق طموحاته الجشعة"[18] . يقول ج.ب. كيلي بأن سياسة حكومة الهند في ترك حماية مرور السفن في الخليج في أيدي سيد

سلطان لم تكن صائبةً كما ثبت من تصرفاته اللاحقة"[19] . تعكس هذه الآراء تعصباً إنجليزياً إمبراطورياً وسوء فهم لسيرة سلطان ومصالحه الحقيقية. فقد أراد سلطان بن أحمد مثل سلفه أن يؤسس إمبراطوريةً تجاريةً بقاعدتها في مسقط .

تعرضت مسقط لعقبة أثناء الثغرة بين وفاة حمد وإبرام اتفاقية البركة . احتل القواسم كلاً من خورفكان وجزيرة الحمراء وفقدت مسقط سيطرتها على المدخل إلى الخليج . انتهز كل من القواسم والعتوب الفرصة لإنعاش مصالحهم الاقتصادية والتجارية دون خطر تدخل من مسقط . وبعد أن استقر سلطان في مسقط حوَّل أنظاره نحو الخليج وكان يملك جوادر على ساحل مكران فعلاً حسب اتفاقية أبرمها مع حاكم ساحل مكران في ١٧٨٤م واكتسب سلطان ميناء شابار المجاور وأبرم اتفاقاً مع الحكومة الإيرانية مما أعطى له السيطرة على كل من بندر عباس وتوابعها - القشم وميناب وهنجام وهرمز[20] .

وبعد أن سيطر على المدخل إلى الخليج، وجَّه سيد سلطان أنظاره إلى القواسم والعتوب . حاول سلطان أولاً فرض ترخيص على الملاحة في الخليج بأكملها[21] ولكن أسطوله لم يكن قويا لينفذ هذا القرار . فحاول الاستعانة بحلفاءه لتنفيذ خطته بمن فيهم ناصر السويدي ورحمة بن جابر وكلاهما من أشهر "القراصنة"[22] . احتفظ سلطان دائماً بمكانته الرسمية في تعامله مع القراصنة . ويذكر على سبيل المثال مسألة ناصر السويدي الذي أغضب زعيم القواسم فطرده من رأس الخيمة لكنه نال حماية سلطان وسُمح له أن يستوطن هرمز وفيما بعد حصل على تشجيع سلطان للقيام بأعمال القرصنة ضد سفن القواسم والعتوب . هاجم ناصر بعض السفن الهندية أيضاً . وفي بداية القرن التاسع عشر نجح هذا التحالف إلى درجة أن سلطان اقترح لشركة الهند الشرقية بأنه ينصح لها أن تسلم بضائعها له لنقلها بأمان في مياه الخليج ولتسليمها إلى الجهة المختصة . وليس من الغريب أن البضائع التي لم تسلَّم إلى سلطان سقطت في أيدي القراصنة وتم بيعها في أسواق مسقط[23] .

وعلى الرغم من محاولة سلطان إلا أن عتوب البحرين ازدهروا خاصةً لأن

الجزيرة كانت مركزاً لتجارة اللؤلؤ . وبسبب فشل الإجراءات غير مباشرة صمم سلطان على غزو الجزيرة وفي عام ١٧٩٩م احتجز ثلاث سفن للعتوب بتهمة عدم حملها التصاريح الصادرة منه[24] واستعد لغزو البحرين . استعد العتوب أيضاً لمواجهة الموقف ووجد العتوب حليفاً لهم في حاكم بوشهر . ثم تفاوض سلطان مع العتوب وأبرم اتفاقاً بينهما والتزم العتوب طبقاً للاتفاق بدفع رسوم المرور لمسقط مستقبلاً على شرط أن يعفى لهم جزءاً من المتبقيات من الرسوم الماضية[25]. مقابل انسحاب قوات مسقط .

هناك ضوء جانبي لغزو مسقط للبحرين وهو محاولة سيد سلطان فرض سيطرته على جزيرة خرج[26]. وكان المفروض بصفة عامة أن المبرر لهذا الهجوم هو معاقبة بوشهر لمساعدتها للعتوب ولكن في الحقيقة إذا نظرنا لهذه المحاولة في ضوء رغبة سيد سلطان في فرض سيطرته على تجارة الخليج فمن الواضح أن احتلال جزيرة خرج كان يعطي لسيد سلطان فرصة "ذهبية" لتحويل التجارة من بوشهر إلى خرج حتى تصبح خرج قاعدة لمراقبة تجارة الخليج العربي عن طريق مراقبة الأسواق في شمال الخليج . ولكن لسوء الحظ فشلت الخطة .

وكان على سلطان أن يهتم بالقوى الأوروبية أيضاً بالإضافة إلى جيرانه العرب في الخليج خاصة بالفرنسيين والبريطانيين . فأقام سلطان علاقات ودية مع فرنسا في موريشيوس ولكن بريطانيا كانت قوة ناشئة في المحيط الهندي والخليج وسبَّبَ النفوذ الفرنسي في مسقط قلقاً لدى سلطات بريطانيا وبدأ الإنجليز تحركات دبلوماسية في ١٧٩٨م بهذا الشأن مما أدى إلى عقد اتفاق بين الإنجليز ومسقط وأعلن سلطان في هذا الاتفاق عن صداقته للإنجليز ووعد بعدم السماح لفرنسا بأن تقيم مكتباً تجارياً في مسقط (وكان ذلك هو ما كان عليه سلطان سابقاً على كل حال) وسمح للإنجليز بفتح مكتب تجاري في بندر عباس[27] ومقابل ذلك سمح الإنجليز للسفن المسقطية أن تنقل ٥٠٠٠ مُنّد (**maund**) من الملح إلى كلكتا في حين سمح للسفن العربية الأخرى بـ ١٠٠٠ مُنّد فقط . وكان امتياز نقل الملح هو العنصر الأساسي في هذا الاتفاق .

وهكذا أصبحت المناطق الإيرانية التي اكتسبها سلطان لأسباب استراتيجية أولاً مناطق رابحة اقتصادياً . وفي عام ١٨٠٢م بلغ الدخل من بندر عباس ١٠٠,٠٠٠ دولار ماريا تريزا (وهو يساوي ثلث دخل سلطان السنوي) ومعظمه من معدن الملح في هرمز(28) .

نجحت سياسة سلطان الخليجية في عام ١٨٠٠م نجاحاً بالغاً . فاعترف العتوب بتفوق مسقط والقواسم كانوا تحت مراقبته . وامتلك سلطان أراض على جانبي مضيق هرمز، ووصل إلى تفاهم مع الأوروبيين . غير أن الأوضاع تغيرت عندما ظهر السعوديون في الخليج وفي عمان . فالنشاطات السعودية أدت ليس فقط إلى التأثير على التجارة الداخلية بل إلى تشجيع كل من القواسم والعتوب للتحرر من سيطرة مسقط .

وقد أقام سلطان اتصالات مع السعوديين لأول مرة في ١٧٩٩م عندما قام أفراد "الدروع" من مؤيدي السعوديين من حدود الربع الخالي بغارات في عمان على نطاق واسع مما أدى إلى التأثير على التجارة الداخلية(29) . وكان سلطان قلقاً من هذه الغارات بصورة مباشرة بسبب نتائجها الهدامة لمصالح التجارة فتحالف سلطان مع أخيه قيس حاكم صحار لكبح "الدروع" ومن ثم حاول سلطان إخراج السعوديين من قاعدتهم في البُريمي وبالرغم من فشل هذا الغزو تفاوض سلطان مع أعدائه وتم التوصل إلى هدنة معهم .

وفي وقت كان سلطان متورطاً مع السعوديين أكد كل من القواسم والعتوب استقلالهما . فاحتل القواسم جزيرة قشم واستخدموها كقاعدة لشن هجمات ضد السفن المسقطية . ولم يعد سلطان يسيطر على مضيق هرمز وأوقف العتوب دفع رسوم المرور . حاول سلطان أن يسوي هذه المسألة في مايو عام ١٨٠١م بغزو البحرين واحتلالها لكن السعوديين تدخلوا في جانب العتوب وأخرجوا المفرزة المسقطية(30) .

أدرك سلطان بأنه لا يستطيع التعامل مع السعوديين منفرداً فذهب لمكة حيث تحالف مع الشريف غالب في يناير عام ١٨٠٣م(31) ، وأثناء غيابه في مكة، قام بدر بن سيف من آل بوسعيد، وهو شديد التوق، بمحاولة قلب النظام لكنه فشل واستعان بالسعوديين . واستجابة لهذا النداء قام السعوديون بغزو عمان في ١٨٠٣م ولما

واجهت مسقط خطر احتلال السعوديين أرسل سلطان بعثة إلى الدرعية وتوصل إلى اتفاق مما ضمن له مكانته في مسقط مقابل دفع ١٢،٠٠٠ دولار ماريا تريزا سنوياً للسعوديين وتعيين سفير سعودي في مسقط[32]. واصل السعوديون عملياتهم في باطنة فيما بعد ولكن اغتيال الحاكم السعودي والاضطرابات الوراثية التي تلت هذا الاغتيال في الدرعية حررت سلطان من مخاوفه .

وعقب زوال الخطر السعودي وجه سلطان أنظاره نحو الخليج مرة ثانية ومن أولى تحركاته في هذا الاتجاه سفره إلى البصرة لجمع إعانة مالية معهودة من العثمانيين[33] ولوضع خطة مشتركة ضد السعوديين[34] لكنه لم ينجح ورجع لمسقط في نوفمبر عام ١٨٠٤م . شاء القدر أن يسقط ضحية في طريقه لمسقط بسبب القتال الذي نشب بينه وبين أساطيل القواسم والعتوب بالقرب من قشم فقتل قبل وصوله إلى مسقط .

لقد سبب موت سلطان غير المتوقع نزاعات وراثية كالعادة . فتولى بدر بن سيف زمام الحكم لمدة ثلاث سنوات . لكنه اتبع سياسة عنيفة بتحريض من الوكيل البريطاني في مسقط، وهي سياسة إخضاع سائر عمان لحكمه[35] .

وفي النهاية اغتيل على يد سعيد بن سلطان البالغ من العمر ١٧ سنة وأصبح سعيد سيد مسقط . وعلى الرغم من أنه امتلك غوادر وبندر عباس فقط دون توابعهما من الجزر وكانت هرمز قد سقطت في أيدي القواسم وبدر لا يزال حياً ، وتمتع كل من القواسم والعتوب بالتطور والتنمية لمدة سبع سنوات دون اضطراب، إلا أن سعيد بن سلطان استمر في اعتقاده بأن مصالح مسقط لاتزال ترتبط مع الخليج وليس مع عمان[36] فبدأ بمحاولاته لإعادة مجد مسقط إلى ما كان عليه سابقاً .

اهتم سعيد أولاً باستعادة العلاقات الودية مع كل من السعوديين والفرنسيين وكان سعيد خائفاً من احتمال رد فعل سعودي لاغتيال بدر لأن بدر كان على علاقة ودية مع السعوديين . أكد سعيد من جديد التزامه بدفع ٥٠،٠٠٠ دولار ماريا تريزا سنوياً للسعوديين لإرضاء الدرعية[37] ولكن الفرنسيين كانوا غاضبين منه بسبب صداقته مع الإنجليز بل هاجم الفرنسيون بعض السفن المسقطية في المحيط الهندي . وقام سعيد

بتسوية الخلافات مع الفرنسيين في يونيو عام ١٨٠٧م حتى أنه سمح لفرنسا أن تفتح قنصلية في مسقط بالرغم من معارضة الإنجليز[38] .

وفي أعقاب تسوية الأمور بينه من جهة وبين السعوديين والفرنسيين من جهة أخرى وجه سعيد أنظاره نحو القواسم في الخليج وكانوا قد أصبحوا أقوياء في وجه غياب قوة مسقط في الخليج وكان أن تمكنوا من جمع ٦٣ سفينة كبيرة و١٩٠٠ رجل للقتال وكذلك سيطروا على مضيق هرمز بسبب احتلالهم لكل من هرمز وقشم في مضايق هرمز ولخورفكان و (ديبه) في خليج عمان . وشن سعيد هجوماً على خور فكان في مايو عام ١٨٠٨م وعلى الرغم من أنه فشل في الاستيلاء على المدينة إلا أنه وصل إلى اتفاق مع الشيخ القاسمي، سلطان بن صقر لنقل السلطة على خورفكان وديبه لمسقط .

ولم يرض السعوديون بالتفاهم الذي وصل إليه كل من سعيد والقواسم فألقى السعوديون القبض على سلطان بن صقر واعتقلوه في الدرعية وعينوا شيخاً جديداً في رأس الخيمة[39] . اتبع الشيخ القاسمي الجديد سياسة عدوانية في الخليج لكسب تأييد أفراد القبيلة الذين كانوا لا يزالون من مؤيدي سلطان وهكذا أصبح للقواسم موقف في منطقة الخليج . اضطر سعيد الذي استعاد سيطرة مسقط على شاه بهار[40] إلى معالجة أزمة القواسم مرة ثانية .

وقد طالت الحرب بين القواسم ومسقط إذ بدأت في عام ١٨٠٨ - ١٨٠٩م وتورط فيها كل من السعوديين والعتوب والبريطانيين وعدد من القوى الصغيرة في الخليج ويعكس هذا التطور أحسن تعبير لسياسة سعيد في الخليج وقد بدأت الحرب عندما شن سعيد هجوماً على رأس الخيمة وقد فشل الهجوم عندما لم يساهم فيه بعض من حلفائه مثل رحمة بن جابر والقواسم الذين كانوا من مؤيدي سلطان بن صقر . فقام القواسم بالتحالف مع السعوديين واحتلوا خورفكان وشناص . ورداً لهذا التطور تحالف سعيد مع الإنجليز وهاجم كلاهما كلاً من رأس الخيمة وشناص في عام ١٨٠٩م . وقد فشل هذا الهجوم المشترك بسبب عدم رغبة الإنجليز في قتال السعوديين مباشرة وأوقف الإنجليز القتال كلياً عندما سمعوا عن وصول التعزيزات السعودية لنجدة الموانئ التي كانت تحت الحصار .

وقد أعطى السعوديون فرصة لسعيد أن يتراجع عن موقفه عندما عرضوا عليه في آخر عام ١٨٠٩م المشاركة في الغارات على البصرة والكويت من قبل القواسم والعتوب ولكن سعيد رفض الاقتراح . هاجم السعوديون عمان في عام ١٨١٠م ولم يتصد سعيد لهجمات السعوديين في عمان بل هاجم المفرزات السعودية في كل من البحرين والزبارة ونجح لحد ما[41] وفي أواخر عام ١٨١١م عندما كان السعوديون متورطين مع المصريين في الحجاز قام سعيد بطرد المفرزتين المذكورتين وألقى القبض على الوالي في الخليج[42] وحصل على اعتراف العتوب بسيادة مسقط عليهم .

وفي أعقاب إزالة الخطر السعودي وفرض سيطرته على البحرين اهتم سعيد بمسألة القواسم . فرّ سلطان بن صقر من الدرعية ولجأ إلى مسقط حيث وضع هو وسعيد خططاً لغزو رأس الخيمة . فشلت الخطة التي نفذت في عام ١٨١٢م وواجه سعيد رد الفعل السعودي . رشا سعيد القائد السعودي الذي تجنب مسقط وتقدم نحو جنوب عمان[43] . ثم تعرضت رأس الخيمة لهجوم آخر في عام ١٨١٣م ونتيجة لذلك فرض الشيخ سلطان سيطرته على الشارقة وتأكد سعيد من القواسم والتزامهم بالهدنة وهكذا ضمن الأمان للسفن المسقطية . ادعى لوريمر بأن سعيد لم ينو إعادة رأس الخيمة لسلطان وقد يكون هذا صحيحاً[44] . فوجود مشيختين متخاصمتين قاسميتين في كل من رأس الخيمة والشارقة كان في مصلحة سعيد بدلاً من أن تكونا موحدتين تحت زعامة شيخ واحد .

لم يستمتع سعيد بفوزه إلا قليلاً ففي عام ١٨١٥م قام القواسم بغارة ضد مطرح ورد سعيد بمحاصرة رأس الخيمة في ١٨١٦م لمدة ٤ أشهر ولكن عندما كان الأسطول المسقطي في الخليج احتل القواسم خورفكان وأوقف العتوب دفع ضريبة المرور والخراج السنوي لمسقط . فرفع سعيد الحصار عن رأس الخيمة وشن هجوماً فاشلاً ضد البحرين . واجه سعيد نكستين ورجع لمسقط فاشلاً في سياسته الخليجية فشلاً تاماً .

وكان سعيد محتاجاً للمساعدة ومن حسن الحظ، كما يبدو، بدأ الإنجليز يبدون اهتماماً بالغاً بالقرصنة في الخليج ووضعوا خططاً عسكرية لكبح القواسم . دعا الإنجليز سعيد ليشاركهم في

عملياتهم ضد القواسم ولكن سعيد لم يرض بالاقتراح الإنجليزي بسبب نية الإنجليز لتوريط محمد علي في مخططاتهم[45] . ولم يثق سعيد بالمصريين ولم يرد استبدال الخطر السعودي بالخطر المصري ومحمد علي كان أخطر من السعوديين وأقوى منهم . وعندما لم يبال محمد علي باقتراح الإنجليز شاركهم سعيد وهو مرتاح البال . فاحتل الإنجليز رأس الخيمة في ديسمبر ١٨١٩م واعترفوا بالشيخ سلطان كرئيس الشيوخ ووافق القواسم والقبائل الأخرى من الساحل على عدم ممارسة الغزو وفقاً لبنود الاتفاقية العامة لعام ١٨٢٠م[46] .

وفي أعقاب إزالة خطر القواسم وجه سعيد اهتمامه إلى البحرين . تعلق أمل سعيد بأن الإنجليز سيساعدونه في كبح العتوب بسبب دورهم النشيط في توزيع البضائع التي أخذها القواسم . شعر العتوب بموقفهم الحساس الخطير وتفاوضوا مع الإنجليز لانضمامهم إلى الاتفاقية العامة ثم وجه الإنجليز إنذاراً لسعيد بأنهم لن يسمحوا بنشوب أعمال عدوانية في الخليج[47]. وفي هذه الأثناء كان العتوب يقومون بالمفاوضات مع سعيد في مسقط ووصلوا إلى اتفاق معه ووفقاً له اعترف العتوب بتابعيتهم لسعيد والالتزام بدفع ضريبة المرور وخراج سنوي قدره ٣٠،٠٠٠ دولار ماريا تريزا[48] . أخبر سعيد الإنجليز بأنه لا داعي لغزو البحرين كما اقترحه سابقاً .

وعلى الرغم من الوصول إلى اتفاق مع العتوب وإبرام الاتفاقية العامة لعام ١٨٢٠م وتحذير الإنجليز لسعيد من القيام بأعمال عدوانية في الخليج إلا أن هذه التطورات لم تبشر بالخير بخصوص مسقط . وكانت مسقط تستفيد من أعمال القرصنة من حيث ازدهار التجارة . لأن التجار لجأوا إلى أسطول سعيد خائفين من هجمات القواسم . وبعد القضاء على القرصنة تحررت التجارة من مخاوف القرصنة نسبياً . وفضلاً عن ذلك اعتبر الإنجليز أي قتال في مياه الخليج بمثابة قرصنة على الرغم من أن الاتفاقية العامة قامت بالتمييز بين القرصنة والحرب . وأن أية محاولة لسعيد لمعاقبة القواسم أو البحرين بواسطة العمليات البحرية ضدهم سوف تتعرض لتدخل الإنجليز[49] . ولم يكن السيد سعيد يتمتع بحرية التصرف في إتباع سياسة مستقلة في الخليج .

لقد فشلت سياسة مسقط الخليجية ليس فقط سياسياً بل اقتصادياً أيضاً . فإن الإحصائيات التي تتوفر لدينا تشير إلى الوضع المتدهور للاقتصاد في العقدين الأوليين للقرن التاسع عشر . وحسب تخمين نيبور بلغ دخل أحمد بن سعيد حوالي ٥٠,٠٠٠ دولار ماريا تريزا في عام ١٧٦٥م(50) وارتفع الدخل في عهد سلطان بن أحمد إلى ٢٠٠,٠٠٠ دولار ولكن انخفض إلى ١٠٠,٠٠٠ دولار(51) . ويجب أن ننظر إلى هذه الأرقام بنوع من التحفظ لأنها قد لا تكون صحيحة لعدة أسباب إما للنقل الخاطئ أو عدم الاستقرار في الضرائب الجمركية أو التضخم المالي أو عدة عوامل أخرى . إلا أن أحداث التدهور الاقتصادي والاستنتاج المدعم بملاحظات كننجهام يؤكد في عام ١٨٦١م بأن حجم التجارة كان أكبر بكثير في عهد سلطان بن أحمد(52) .

ودون شك أدرك سعيد بن سلطان بأن سياسته الاقتصادية تحتاج إلى تقييم جديد فنفذ في عام ١٨٢٠م برنامجاً جديداً استهدف الاحتفاظ بمركز مسقط في الخليج من جهة وتوسعة نفوذها على سواحل شرق أفريقيا من جهة ثانية . وترمز مبادرة سعيد في شرق أفريقيا إلى تغيير رئيسي في العلاقات السواحيلية المسقطية . ومن بداية سلالة اليعاربة في القرن السابع عشر، وعهد حكم البوسعيديين الأولين في كل من عمان ومسقط كانت الدول السواحيلية المتفرقة تعتبر من توابع عمان على الرغم من أن سيادة عمان كانت غير مباشرة . ومادام حكام سواحيلي يدفعون الضرائب على تصدير القرفة للهند أو الخليج أو إلى الفرنسيين في "سكارينز" فلم يكن هناك ما يدعو لتدخل العمانيين في شئونهم(53) . ولقد تغيرت الظروف بعد عام ١٨٢٠م عندما هاجم سعيد في نفس الوقت كلا من البوعلي وشرق أفريقيا ولم تكن أهدافه من هذه الهجمات تختلف عن السابق . فمن ضمن سياسته القديمة، استهدف سعيد القضاء على كافة المنافسين وفرض احتكار تجاري لصالح مسقط .

وصف لوريمر حملة البوعلي **"كحدث غريب في تاريخ عمان"**(54) ويظهر من الغريب حقيقة بأن سعيد يتورط مع قبيلة في جنوب عمان ولكن إذا نظرنا إلى هذا الحدث في ضوء

سياسته الجديدة تجاه شرق أفريقيا يختفي العجب . وكان بني بوعلي، قد قاموا إضافة إلى امتلاكهم النخيل في جعلان باحتلال ميناء الشقره الذي استخدموه كقاعدة لإزعاج مرور السفن بين مسقط وشرق أفريقيا . وشكلوا تهديداً لخطط سعيد وكان لابد من تدميرهم ولكن كانت هناك مشكلة وهي قوة بني بوعلي في البر والبحر . فاستعان سعيد بالإنجليز وأقنعهم بأن البوعلي ليسوا إلا مجموعة من القراصنة فوافق الإنجليز على مشاركة سعيد في حملته ضدهم . حاول الشريكان الاقتحام مرتين ثم هاجمت قوة مشتركة من المساقطة والإنجليز بلاد البوعلي ودمرت المدينة وقطعت النخيل وأسرت شيوخ القبيلة(55) . هكذا انتهى الخطر الذي هدد مخططات سعيد بشأن شرق أفريقيا .

وخلال ثلاث سنوات بين ١٨٢٠ و ١٨٢٣ اهتم سعيد بشئون شرق أفريقيا فقط . توقف الأسطول المسقطي في أواخر ١٨٢٠م في كل من "مركا" و "برافا" على ساحل الصومال وحصل على اعترافهما بسيادة مسقط عليهما . ثم احتل الأسطول موانئ كل من مقديشو وباتي وواسن وبمبا وتانجا(56) .

وأخيراً استعد سعيد في عام ١٨٢٣م لمواجهة عدوه الرئيسي على الساحل السواحيلي، المزارع حاكم مومباسا .

نشأ المزارع(57) أصلاً في عمان لكنهم أصبحوا سلالة حاكمة في مومباسا أثناء عهد اليعاربة ولما تولى أحمد بن سعيد البوسعيدي الحكم في عمان أعلن المزارع استقلالهم مع أنهم احتفظوا ببعض الصلات مع عمان(58) ولكن في عام ١٨١٤م تولى حاكم جديد قطع جميع العلاقات مع مسقط(59) إلا أن سعيد لزم الصمت آنذاك . أصبحت مومباسا في عهد المزارع مركزاً سواحيلياً تجارياً وأصبحت قبيلة المزارع قبيلة قوية . اكتشف سعيد نفسه ذلك عندما فشلت محاصرته "لقلعة المسيح" وهي حصن قوي للمزارع . فاستأجر بعض القراصنة المنعزلين عن القواسم ليجوبوا المياه على الساحل الأفريقي الشرقي ويهاجموا سفن المزارع في حين وضع هو خططاً لغزو المزارع مرة ثانية(60) .

توقفت صادرات سعيد من أفريقيا فجأة في فبراير عام ١٨٢٤م لما أعلن

وليام أوين، وهو قائد بحري بريطاني ويقوم بحملة ضد الاستعباد، عن حماية بريطانيا لومباسا مقابل التزامها بعدم ممارسة تجارة الرقيق وارتاح المزارع بهذا الترتيب ارتياحاً بالغاً لأنهم كانوا يريدون مثل هذا الترتيب منذ وقت طويل[61] . قام سعيد بمحاولات دبلوماسية في بومباي للقضاء على مبادرة أوين وسحبه من مومباسا إلا أنه لم يستطع أن يعمل شيئاً ضد مومباسا وهي محمية بريطانية على الساحل السواحيلي .

وبالإضافة إلى المشاكل التي واجهها سعيد في شرق أفريقيا فقد واجه صعوبات في الخليج وكذلك في علاقاته مع الإنجليز . وقدأثارت البحرين دائماً العراقيل في تنفيذ خططه وكلما استعد سعيد لغزو العتوب تدخل الإنجليز وكذلك اضطر سعيد أن يتفاوض مع إيران من جديد حول سيادته على بندر عباس وكان أسطوله البحري يمارس الضغط على البصرة ليضمن لمسقط امتيازات تجارية فيها[62] وكان الإنجليز يمارسون الضغط عليه ليتجنب تجارة الرقيق ولم يكن سعيد راضياً بذلك لأن الساحل السواحيلي كان أكبر مصدر للرقيق[63] .

أعاد سعيد النظر في سياساته في عام ١٨٢٦م وكتب رسالة لمندوبه في بومباي أعرب فيها عن استعداده لإنهاء تجارة الرقيق إذا دافع الإنجليز عن مصالحه في الخليج بحراً وبراً أو ساعدوه بمنحه عوناً مالياً أو إعطاءه موزمبيق البرتغالية كي يغادر مسقط ويستوطن زنجبار[64] . لقد أدرك سعيد بأن ازدهار مسقط يعتمد أساساً على سيطرتها على الخليج ولما كانت هذه السيطرة مفقودة فمن الأفضل له أن ينتقل إلى شرق أفريقيا .

وفي نفس الوقت استمر سعيد في محاولاته ليوسع مصالحه في كل من الخليج وشرق أفريقيا . انسحب أوين من مومباسا نهائياً في ١٨٢٧م ودخل سعيد في مفاوضات مع المزارع آملاً أن يفرض سيطرته عليهم دون اللجوء إلى قتال لكنه لم يفلح وقاد سعيد الأسطول المسقطي شخصياً إلى مومباسا في يناير ١٨٢٨م . وكان ظهور الأسطول أمامهم قد أقنع المزارع بفائدة المفاوضات فوافقوا على إقامة مفرزة مسقطية في مومباسا وتقاسم الرسوم الجمركية للميناء على

قدم المساواة . ولكن سعيد قام بخرق الاتفاقية على الفور واحتل المدينة وفرض سيطرته الكاملة على مومباسا ثم قام بزيارة زنجبار حيث اشترى بعض الأراضي فيها وعيّن أحد أبنائه والياً عليها[65] .

وعقب فوزه على المزارع وجّه سعيد أنظاره إلى الخليج ليحتل البحرين وشن هجوماً ضد البحرين في سبتمبر ١٨٢٨م لكنه فشل وأبرم سعيد اتفاقاً مع العتوب واعترف طبقاً للاتفاق باستقلال البحرين كما التزم بمساعدة البحرين إذا تعرضت لغزو من طرف ثالث[66] . واعترف سعيد بالأمر الواقع وبأن العتوب متساوون معه .

لقد قضت هزيمة سعيد على يد العتوب نهائياً على طموحاته للسيطرة على الخليج ومن جهة أخرى حاصر المزارع المفرزة المسقطية لمدة سبعة أشهر وأجبروها على الانسحاب إلى زنجبار[67] واتضح لسعيد بأنه سوف يفقد شرق أفريقيا أيضاً إلا إذا ركز مجهوده على الساحل السواحيلي . فغادر إلى زنجبار في عام ١٨٢٩م وكرس جهوده لمدة الـ ٢٧ سنة التالية لتأسيس إمبراطورية تجارية جديدة مبنية ليست على مسقط كقاعدة لها بل على زنجبار[68] .

اتخذت مسقط مكانةً ثانويةً وبدأت تتدهور تدريجاً مثلما كان الوضع في السنوات الأولى لحكم سعيد .

دخلت مسقط مرحلة جديدة في عام ١٧٨٥م عندما تمرد حمد بن سعيد على أبيه وأسس دولة مستقلة وأثناء حكمه القصير كانت التجارة من المقومات الأساسية لسياسة حكومته . استمر سلطان بن أحمد وهو الذي خلف حمد في اتباع نفس السياسة إلا أنه حاول أن يفرض سيطرة مسقط على موانئ الخليج العربية لكي يزيد حجم التجارة إلى الحد الأعلى . لقد كان العنصر الهام في سياسة سلطان هو التجنب المطلق للتورط في الشئون العمانية إلا إذا هددت المصالح التجارية لمسقط بصورة مباشرة كالغزوات السعودية . واستمر سعيد بن سلطان في اتباع سياسة أسلافه بالنسبة للخليج وحاول أن يمد مقومات هذه السياسة إلى شرق أفريقيا أيضاً ، ولكن عدة عوامل أخرى أجبرت سعيد على التركيز على شرق أفريقيا ومنها نهوض العتوب

في البحرين وقوة القواسم في رأس الخيمة وحماية بريطانيا للدول الخليجية وقد أثبتت شرق أفريقيا إمكانياتها الاقتصادية الأضخم وغادر سعيد مسقط نهائياً في ١٨٢٩م إلى زنجبار وتخلى عن فكرة إنشاء إمبراطورية تجارية تتخذ من مسقط قاعدة لها واهتم حكام مسقط فيما بعد ليس بالشئون التجارية بل بالشئون السياسية العمانية . واحتفظت مسقط باستقلالها ولكن مجموعة جديدة من المبادئ الاقتصادية والسياسية سادتها .

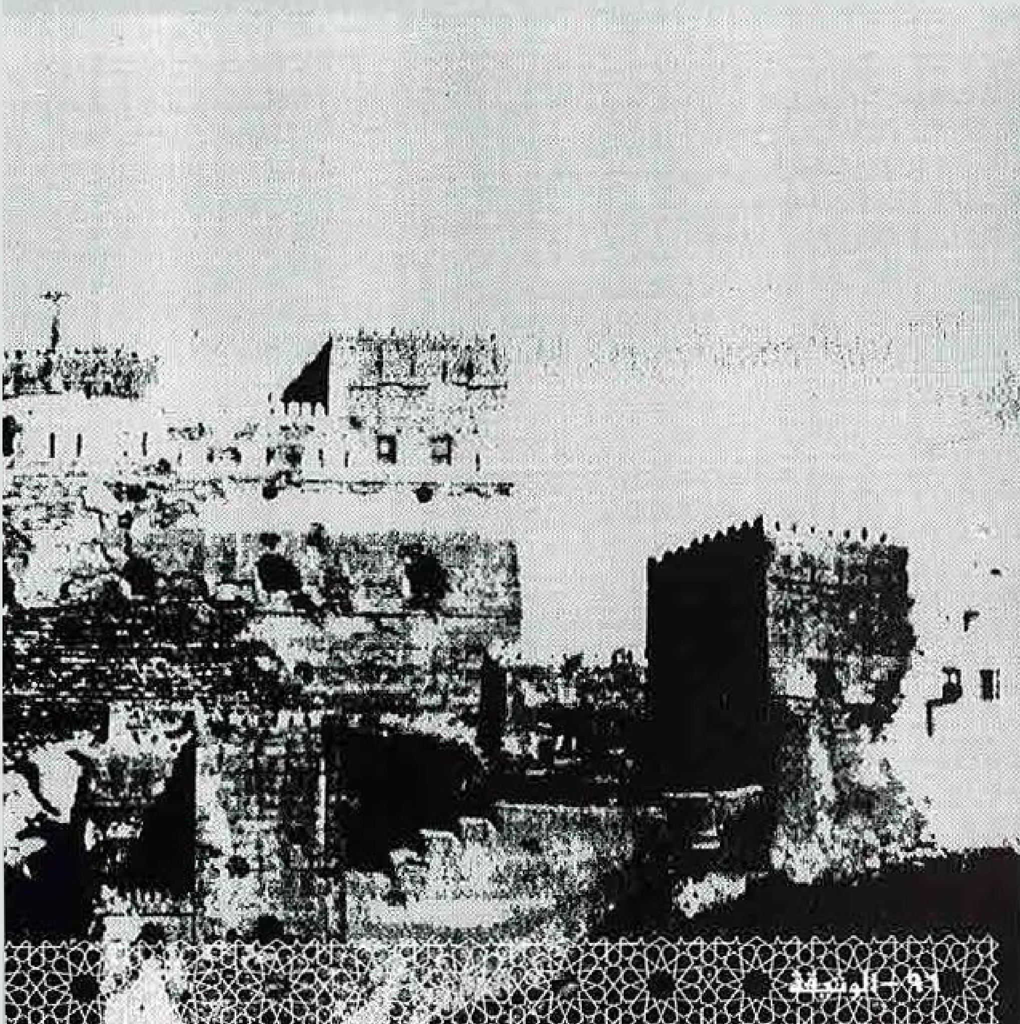
كالفين أيتش آلن

مدرسة أوزارك

بوينت لوك أوت - ميسوري

علاقات عمان مع القوى

في عهد سلطان بن أحمد



الأوروبية

١٧٩٣-١٨٠٤م

بقلم :
د. سلمان لفتة الزيدي

يقصد بالقوى الأوروبية بريطانيا وفرنسا حيث تأجج في عهد سلطان بن أحمد تنافس تلك القوتين لتحقيق التفوق في عمان ذات الأهمية القصوى في النظام البحري لغرب المحيط الهندي، وكان التفوق البريطاني الحاسم في ذلك الصراع قد أدى إلى ارتباط عمان بأول معاهدة مجحفة، دخلها حاكم عربي مع دولة أوروبية في التاريخ الحديث وأصبحت فيما بعد أساسا لنفوذ بريطانيا المطلق في عمان طيلة نصف قرن .

ولابد من الرجوع ولو بشكل موجز إلى بداية نفوذ هاتين الدولتين الأوروبيتين في عمان، حيث بدأ الاهتمام الفرنسي بها في بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر، والدليل على ذلك الاقتراح الذي قدمه (دي لالين) المبعوث الفرنسي إلى فارس عام ١٦٦٧م للاستيلاء على مسقط لأهميتها السوقية[1] إلا أن الاتراح لم يخرج إلى حيز التنفيذ، لمشاغل فرنسا الداخلية والخارجية



إلا أن الخطوات العملية لفرنسا في تأكيد وجودها في الشرق تمثلت في استيلائها على جزيرة موريشيوس[٢] وجعلها قاعدة للبحرية الفرنسية في المحيط الهندي، وكان من المحتم أن تنسحب مسقط عاجلاً أو آجلاً، إلى حقل الصراع البريطاني الفرنسي لأن من أهداف هذه القاعدة اعتراض مواصلات بريطانيا البحرية، ومراقبة تطورات الأحداث في الهند[٣].

حاول عرب عمان الابتعاد عن ساحة الصراع بين القوى الأوروبية، إلا أنهم وجدوا من الصعب العيش بسلام، دون التورط في أيدي أوروبا المحاربة، وبعد أن أدركوا بأنه لا المصالح التجارية ولا الأعراف الدولية يمكن أن تجعلهم بعيدين عن ميدان الصراع[٤].

وشهدت المياه العمانية عددا من المصادمات بين السفن الفرنسية والإنجليزية في سنوات ١٧٥٩، ١٧٦١، ١٧٧٨، ١٧٨١ عندما حاولت السفن الفرنسية إخراج السفن الإنجليزية من مياه ميناء مسقط الذي دخلته طلباً للحماية وهي المحاولة التي أفشلها الوالي خلفان بن محمد[٥]. ولم يكن موقف والي مسقط في الدفاع عن السفن البريطانية انحيازاً إليهم بقدر ما كان التزاماً بواجب حماية الدخيل أو اللاجئ حتى بقوة السلاح وهو فعل غريزي عند القبائل العربية[٦].

ولكن هذه الحوادث لم تؤثر على العلاقات بين فرنسا وعمان، نظراً للروابط التجارية الوثيقة بين عمان والمستعمرة الفرنسية[٧].

وقد أدرك الإمام أحمد بن سعيد ١٧٤٩ - ١٧٨٣م قيمة استمرار العلاقات بينه وبين الفرنسيين، حيث تبودلت الهدايا بينه وبين مالارتيك حاكم الجزيرة[٨]. ومما يؤكد ذلك ما كتبه حاكم مسقط إلى البحار الفرنسي المشهور دستان "إنني صديق للفرنسيين . . . إنني أعد نفسي ابناً للفرنسيين . . . إني أعرض عليك مينائي وكل ما أملك من ماء وماشية"[٩].

إلا أن العلاقات بين فرنسا وعمان تعرضت لأزمة شديدة في عهده عندما استولت السفن الفرنسية على السفينة العمانية (صالح) ذات الخمسين مدفعاً

عام ١٧٨١م[١٠] . مما دعا حاكم مسقط إلى أسر واحدة من ثلاث سفن فرنسية، وأبدت الحكومة الفرنسية اعتذارها عما حدث، وأرسلت سفينة تدعى كوريير دي فرانس "Courier De France" تعويضاً للسفينة "صالح" ومع أنها لم تصل إلى مسقط إذ استولت عليها سفينة حربية بريطانية، إلا أن المبادرة كان لها وقعها الطيب على السلطات العمانية[١١] .

والتزاماً بموقف الحياد بين بريطانيا وفرنسا، رفض إمام عمان الجديد سعيد بن أحمد (١٧٨٣ - ١٧٨٦م)، السماح للبعثة الفرنسية التي زارت مسقط عام ١٧٨٤م برئاسة روزيلي، إقامة وكالة فيها[١٢] .

إلا أن هذه العلاقات لم تستمر على هذا المنوال، بل أخذت تتحسن في عهد حمد بن سعيد (١٧٨٦ - ١٧٩٢م) وخاصة عندما عوضت السفينة (صالح) عام ١٧٩٠م ويأتي هذا التعويض بعد هزيمة الفرنسيين في الهند، (ريوند شيري وكاريكال) وحاجة (إيل دي فرانس) الشديدة للمؤن، وخاصة بعد أن ضرب الإنجليز الحصار الاقتصادي عليها، ورفض حاكم عمان تزويدها بما تحتاجه من المؤن[١٣] . مما أجبر فرنسا أن تهتم بموضوع عمان .

وعبر حاكم مسقط عن ارتياحه لوصول السفينة الفرنسية بقوله : "وصلت هديتكم الكريمة، ورغم أن السفينة التي أرسلت إلينا صغيرة جداً، ولا تساوي ربع التي فقدناها، فإنها في نظرنا أكبر كثيراً، وهي أكثر بهجة إلى أبعد حد، وامتلاكنا لها يمنحنا سروراً أعظم، إذ أن كل شيء مشترك بيننا"[١٤] .

كما خاطب حاكم مسقط المسيو (روسو) القنصل الفرنسي في بغداد مؤكداً احترام المواطنين الفرنسيين في عمان والذين يتمتعون (بالأفضلية على باقي الأوروبيين المتواجدين في عمان)[١٥] .

وبلغت العلاقات ذروتها حينما وافق حمد على تعيين وكيل دائم لفرنسا في عمان يعامل بكل أنواع الرعاية والعناية والاحترام، ويخصص له مسكن لائق ويتمتع بالحرية الكاملة[١٦] . وأكد روزيلي أهمية ذلك، لأن معناه اتخاذ مسقط نقطة للتجسس على الإنجليز في الهند، وفي حالة وقوع الحرب ستعتمد

موريشيوس في تموينها على البحارة العرب[١٧] .

إلا أن نشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وانشغال حكومة الإدارة بالأوضاع الداخلية في البلاد أعاق إقامة الوكالة .

إلا أن فرنسا أخذت تنظر إلى الخليج العربي كقاعدة هامة في حالة قيامها بحملة على الهند عندما نشبت الحرب بينها وبين إنجلترا عام ١٧٩٣م لذلك أخذت تنشط في إرسال البعثات إلى الشرق ومن أهمها بعثة (بروجيه دالفييه)[١٨] . وبعثة بوشامب إلى مسقط، وهو أحد الخبراء في شئون المنطقة وكلف بقرار من الحكومة الفرنسية عام ١٧٩٥م إنشاء قنصلية لها في مسقط[١٩] . للتجسس على تحركات الإنجليز في الهند، ودراسة الأحوال الداخلية في البلاد، وكذلك دراسة الطرق التي يمكن أن تستخدم في حالة غزو فرنسي للشرق[٢٠] .

إلا أن المبعوث الفرنسي لم يصل إلى مسقط، وذلك للتعليمات المتأخرة التي وردت إليه بالطواف حول مصر والقسطنطينية، حيث ألقت السلطات العثمانية القبض عليه وأودعته السجن[٢١] . كما أنه لم يكن واثقاً من نجاح مهمته لأن السلطات البريطانية في الهند عرفت بأمر مهمته وأخذت سفنهم الحربية تجوب الخليج العربي من أجل إلقاء القبض عليه[٢٢] . لذلك ما إن وقع الغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨م وما بذلته بريطانيا من نشاط واسع لإثارة حكام المسلمين ضد فرنسا حتى وجد مبرراً قوياً للاعتذار عن مهمته .

وفي عام ١٧٩٦م انتشرت الإشاعات في الهند أن حكومة مسقط تنوي التخلي عن حيادها في الصراع البريطاني الفرنسي لصالح فرنسا، وتسربت معلومات عن تحركات للسفن البريطانية وعليها تجار مسقطيون إلى جزيرة موريشيوس، واشترك التجار العمانيون في تصريف السلع البريطانية وبيع السفن المستولى عليها من الفرنسيين[٢٣] . وللتأكد من ذلك بعثت الملازم سكنر Skinner عام ١٧٩٦م وعرض عند لقائه بحاكم عمان مبلغاً يتراوح بين ألف إلى ثلاثة آلاف روبية، مقابل تسليمه كل فرنسي ومعه أوراقه، ويرتفع هذا المبلغ إلى ثمانية آلاف بالنسبة إلى (هيمقرايس) وهو إنجليزي خارج عن السلطة[٢٤] . ونتيجة لهذه الشكوك هددت حكومة بومباي العمانيين

بأنـها سـتمنع دخولهـم إلى الموانـئ الهندية[٢٥] . إلا أن سلطان بـن أحمـد نفى في الرسالة التي بعث بها إلى حاكم بومباي جونثان دنكان وجود فرنسيين في بلاده، وأكد على روابط العلاقـة والمحبة مع بريطانيا[٢٦] . كما صرح بأن شعبه لا يستطيع التميـيز بـين الرجل الفرنسي وبين غيره[٢٧] .

وعلى الرغم مـن هـذه العلاقـة الحميمة مع بريطانيـا، وتحذيراتـها المستمرة بقطع العلاقات مع فرنسا، إلا أن حاكم مسقط لم يأبـه بذلك واستمر على العلاقة السابقة مـع الجزيـرة الفرنسية مورشيوس واتضح ذلك مـن خلال الرسالة التي أرسلها إلى بومباي والتي تنم عن استمرار هـذه الروابـط بقولـه : "إنني حاكم بلـدي وحـر في اختيار الأسلوب الـذي أرتئيه لمصلحـة البلد . ما الذي صدر عن فرنسا لكي أمنع رعاياي من إقامة علاقات تجارية مع الفرنسيين[٢٨] .

حرصت فرنسا علـى اسـتمرار علاقتها بعمان، وذلك لأهميتها في نظر السياسة الفرنسية على الرغم من ارتباط حاكم مسقط بمعاهدتي ١٧٩٧ و ١٨٠٠م ... ني سيرد ذكرهما عنـد ... سلطان بن أحمد مع بريطانيا، إذ أعادت فرنسا ثلاث سفن مسـقطية اسـتولى عليـها القراصنـة الفرنسيون عـام ١٨٠١م وساعدت حـاكم عمان في حملته على البحرين[٢٩].وبعثت إلى سلطان بن أحمد هدايـا تقدر "بمائة ليرة مـع سـاعة ذهبيـة وخنجـر وصينيـة وصندوق كتابة وتاج مرصع بالأحجـار الكريمة لزوجتـه، وسـاعتين ذهبيتـين وخنجرين لوزيري الإمام[٣٠] .

ونتيجة لإدراك نابليون أثناء إقامتـه في مصر لأهمية مسقط كموقع علـى طريـق الهند، وتأكيدات (ديكان) حاكم إيل دي فرانس علـى أهميـة اسـتعادة المراكـز التجارية في الهند بموجب صلح أميان عـام ١٨٠٢م[٣١] . قـامت الحكومـة الفرنسية بإيعاز من نابليون بإرسال بعثـة إلى مسقط برئاسة (كافنيـاك) لتأسـيس قنصلية فيها، وبعد أن توقف في إيل دي فرانس للتشاور مع حاكمها ديكان الـذي وصل إلى مسقط في ٣ تشريـن الأول عـام ١٨٠٣م، علـى ظهـر السـفينة (أتلانتا)[٣٢] .

زودت البعثـة بتعليمـات لإقنـاع سـلطان بـن أحمـد بقبولـه (أي قبـول كافنياك) مقيماً دائماً في مسقط، إلا أنـه وجد حاكم مسقط مشغولاً في قتالـه مع جيرانـه[٣٣] وأجـرى مباحثـاته مـع

حاكم الميناء الذي أدرك مغبة العلاقة مع الفرنسيين، في وقت اشتدت فيه الحرب بين فرنسا وإنجلترا، وهذا ما دفعه للاعتذار إلى كافنياك بأنه لا يملك أي سلطة في استقبال مفوض خارجي(٣٤).

وبعودة سلطان رفض قبول كافنياك مقيماً في مسقط، لأن ذلك يشكل انتهاكاً لاتفاقية عام ١٧٩٨م مع بريطانيا، التي كانت القوة الوحيدة التي يمكنها أن تقدم المساعدة ضد حقوق السعوديين(٣٥).

لقد كان حاكم مسقط يدرك أنه في حالة حصول الفرنسيين على أية امتيازات في مسقط فإن ذلك سيهدد العلاقات مع الهند(٣٦). "وتوضع بلاده تحت حصار تجاري من جانب الهند"(٣٧) فما كان من سلطان إلا أن أرسل رسالة إلى حكومة بومباي يعلمها، بأنه رفض الاتصال بالبعثة الفرنسية والاستجابة لطلباتها وطلب حماية سفنه في كل الموانئ الهندية التي استجابت لطلبه بحماية السفن العمانية المتاجرة مع الموانئ الهندية(٣٨).

وبالرغم من فشل بعثة كافنياك، استمرت السفن الفرنسية باستخدام مسقط محطة لتموين السفن الفرنسية، وسوقاً لتصريف غنائم الحرب، وبالرغم من أن ذلك أزعج حكومة بومباي، إلا أن اتفاقية ١٧٩٨م لم تنص على أي حظر على السفن الفرنسية من ارتياد ميناء مسقط(٣٩). كما أنها لم تؤد إلى استياء الحكومة الفرنسية، وأعد كافنياك بعد إخفاق مهمته تقريراً حاول فيه أن يبرر فشله بالقول (إن بلاد عمان فقيرة لا تمثل أهمية سياسية أو اقتصادية ولا يعدو أن يكون شيخها شيخاً من مشايخ البدو، والفائدة الوحيدة التي قد تجنيها فرنسا من إقامة وكالة هناك، لا تتعدى إقامة محطة للبريد بين المحيط الهندي وأوروبا، وحتى هذه لا يمكن تحقيقها طالما بقي الإنجليز يسيطرون على الملاحة في الخليج(٤٠).

كما أنه أعد تقريراً آخر إلى تاليران (وزير خارجية فرنسا) لتغطية فشل مهمته أكد فيه أن العلاقة مع حاكم مسقط يمكن إدارتها عن طريق أحد التجار، وإبعاد الصفة الدبلوماسية للمبعوث، لأن ذلك يزعج المسقطيين، وأكد أن الجانب الإنجليزي يسيطر على

حاكم مسقط، وأنه لا يستطيع أن يلقى ذلك الاحترام الذي يليق به كمبعوث فرنسي[41].

إن هذا التقرير هو تغطية لخيبة أمله، متناسياً أهمية عمان السوقية التي تهالكت عليها حكومته سنين طويلة، من أجل الحصول على مكسب سياسي أو اقتصادي فيها.

كما أن العلاقات الدبلوماسية توقفت بعد إخفاق مهمته، ولم تُسترجَع حتى ١٨٠٧م في عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦م)، الذي أراد كسبها إلى جانبه بحربه ضد السعوديين والقواسم[42]. وقام بعقد اتفاقية معهم في السنة نفسها.

أما عن العلاقات العمانية - البريطانية فترجع بدايتها إلى زمن مؤسس سلالة اليعاربة ناصر بن مرشد اليعربي ١٦٢٤ - ١٦٤٩م) الذي طلب من شركة الهند الشرقية الإنجليزية[43] عقد معاهدة للتعاون عام ١٦٤٦م التي تضمنت امتيازات واسعة للإنجليز منها حرية الاستيراد والتصدير وإعفاء تجارتهم من الضرائب والتزامهم بالتعويض عن أية سرقة تتعرض لها البضائع الإنجليزية[44] إلا أنها لم تنفذ لضعف الحماس البريطاني آنذاك بمنطقة الخليج العربي بسبب المنافسة الهولندية الشديدة من ناحية، ولعدم استقرار الأوضاع فيه بشكل عام من ناحية أخرى

وفي عهد سلطان بن سيف الأول (١٦٤٩ - ١٦٧٩م)، أرسلت الشركة الإنجليزية الكولونيل رينسفورد عام ١٦٥٠ إلى مسقط باقتراح للإمام بالسماح بفتح وكالة في ذلك الميناء ولكن الإمام رفض الاقتراح[45]. ولا شك أن تجربة العمانيين المريرة مع البرتغاليين هي التي أملت ذلك الموقف كما رفض طلباً آخر للغرض نفسه، تقدم به (مستر ويش - Whish) ممثل الشركة في سورات عام ١٦٥٩م[46]. وكان إلحاح الشركة بسبب رغبة الإنجليز في الحصول على ضمانات أمنية لسفنهم في وقت اشتدت فيه الاشتباكات المسلحة بين العمانيين والبريطانيين، ولتزايد أهمية الخليج العربي طريقاً سريعاً لنقل نسخ من الرسائل الرسمية بين سورات ومركز الشركة[47].

وفي أواخر القرن السابع عشر أثار تصاعد قوة البحرية العمانية في عهد سيف بن سلطان الأول (١٦٩٢ -

١٧١١م) مخاوف الإنجليز مما دفع الكابتن (برانجوين) الوكيل في بندر عباس إلى الكتابة إلى مسئوليه محذراً من الخطر العماني وضرورة وضع حد لنشاطهم وإلا (فإن العمانيين سيصبحون طاعوناً يهدد الهند، كالطاعون المغربي على أوروبا)(٤٨) .

وقد راودت مسئول الشركة الإنجليزية فكرة تجهيز حملة ضد مسقط، إلا أن قوة الأسطول العماني، وعدم الرغبة في تعريض المصالح الإنجليزية للخطر وانشغالهم في تثبيت مواقعهم في الهند جعلتهم يصرفون النظر عن تنفيذها(٤٩) .

إلا أن القوة التي بلغتها مسقط في عهد دولة اليعاربة تعرضت للتصدع والانهيار بعد وفاة سلطان بن سيف الثاني عام ١٧١٨م، بسبب اندلاع الحرب الأهلية، وما رافقها من غزو أجنبي فكان ذلك إيذاناً بنهاية حكم اليعاربة وبداية حكم البوسعيد .

وانتهج مؤسس وحاكم السلالة الجديدة أحمد بن سعيد سياسة أسلافه بعدم السماح بإقامة تمثيل أجنبي في البلاد، ولهذا رفض عرضاً تقدمت به شركة الهند الشرقية الإنجليزية بإنشاء مركز لها في مسقط، وعبر عن ذلك الرحالة نيبور الذي مر بمسقط عام ١٧٦٥م وصرح : "ليس هناك ثمة مستوطنين أوروبيين رسميين وغير رسميين في مسقط(٥٠) .

وسار حمد بن سعيد (١٧٨٦ - ١٧٩٢م) على سياسة مؤسس السلالة إذ رفض طلباً تقدمت به شركة الهند الشرقية عام ١٧٨٥م، بالسماح لها بفتح وكالة في مسقط(٥١) .

وقد التزم سلطان بن أحمد في البداية سياسة الحياد في الصراع البريطاني الفرنسي في المحيط الهندي، وهو موقف لم تكن بريطانيا تطمع بأكثر منه آنذاك، إلا أن موقفه هذا لم يقدر له الاستمرار بسبب احتدام الصراع في نهاية القرن الثامن عشر، وللضغط البريطاني على الحاكم العماني لتحديد موقفه بشكل واضح ضد فرنسا، لاسيما بعد وصول معلومات بوجود بعض الفرنسيين في مسقط، لذلك أرسلت حكومة بومباي مبعوثاً إلى مسقط عام ١٧٩٨م للتأكد من ميوله وتثبيت موقفه إزاء بريطانيا وفرنسا .

وبتعيين المركيز ولزلي حاكماً عاماً للهند (١٧٩٨ - ١٨٠٥) حدث تطور

نوعي في السياسة البريطانية في الهند التي كانت تتسم بالحذر، إذ سلك الحاكم العام الجديد سياسة هجومية تقوم على توسيع ممتلكات الشركة في الهند والسعي إلى كسب الحلفاء تحقيقا لسياسته تلك(٥٢) . ولما كان النفوذ الفرنسي واضحاً في عمان مظهره العلاقات التجارية النشيطة مع (إيل دي فرانس) وما أشيع من أن هناك سفناً فرنسية وهولندية تتردد باستمرار على الموانئ العمانية وهي ترفع أعلاماً عربية(٥٣) لذلك أوفدت حكومة الهند إلى مسقط (ميرزا مهدي خان علي خان) لعقد معاهدة مع سلطان بن أحمد ١٧٩٨ .

أدركت بريطانيا خطورة استمرار علاقة فرنسا بعمان (مفتاح باب الخليج) ولهذا كان واجب الحاكم العام في الهند أن يحول دون سقوط هذا المفتاح بيد الفرنسيين . لاسيما ما كان بادياً من قوة النفوذ الفرنسي هناك بشكل ينذر بالخطر فالعلاقات مع (إيل دي فرانس) كانت مزدهرة كما كانت السفن الفرنسية وحليفتها الهولندية تتردد باستمرار على الموانئ العمانية إضافة إلى ما علم من أن سلطان بن أحمد يستخدم طبيباً فرنسياً، وأكد (سمث) وكيل شركة الهند في بوشهر المخاوف البريطانية "أن مسقط ستصبح عما قريب وكراً للجاسوسية الفرنسية على الهند، لأن خمس أو ست سفن عربية تقوم بنقل التجارة بين مورشيوس ومسقط وساحل مليبار ولاشك أن نقل الأنباء سيكون مورد ربح للبحارة العرب"(٥٤) .

وفي ١٣ أيلول ١٧٩٨م أصدر حاكم بومباي (جونثان دنكان) بناء على أوامر (ولزلي)، تعليماته إلى المقيم المعين الجديد في بوشهر (مرزا مهدي علي خان(٥٥) بالتوقف في مسقط لإجراء مفاوضات مع سلطان بن أحمد تهدف إلى تحديد موقفه من الصراع الدائر مع فرنسا، والضغط عليه بإصدار تعهد بإبعاد الفرنسيين وحلفائهم الهولنديين عن ممتلكاته، والسماح بتأسيس وكالة للشركة الإنجليزية في مسقط وإبدال طبيبه الفرنسي بجراح بريطاني(٥٦) . كما حمل هدية إلى الحاكم العماني قدرت قيمتها بـ (١٢٥٠ روبية)(٥٧) .

وصل المبعوث البريطاني إلى مسقط في الأسبوع الأول من تشرين الأول عام ١٧٩٨م وسلم رسالة حاكم بومباي إلى سلطان بن أحمد، تضمنت الرسالة

تحذيراً واضحاً لحاكم عمان من مغبة استمرار علاقته مع فرنسا . وبدأت المفاوضات التي استمرت عشرة أيام أكد فيها مبعوث الشركة لحاكم مسقط "أن ينظر إلى صداقة الحكومة الإنجليزية وتقديرها باعتبارها الروح الذي تتنفس به مسقط وتعيش، وأن يهرب من استمرار الصداقة الفرنسية كما يهرب من الوباء"(٥٨) لقد كان سلطان يدرك تفوق بريطانيا الساحق على فرنسا، إضافة إلى الأهمية المطلقة بالنسبة للتجارة العمانية مع الهند، لهذا فإنه لم يكن مستعداً للتضحية بازدهار بلاده الاقتصادي، حينما أصبح عليه الاختيار بين الجانبين المتصارعين ولهذا انحاز كلياً إلى جانب بريطانيا(٥٩) .

لذلك وقع في الثامن عشر منه أول معاهدة بين دولة عربية مستقلة ودولة أجنبية .

تضمنت المعاهدة سبع مواد، منها عدم الانحراف عن هذه المعاهدة، صديق أحد الطرفين هو صديق للطرف الآخر، لا يجوز إعطاء أي امتياز لأية شركة فرنسية أو هولندية على أرض عمان، تعهد سلطان للحكومة الإنجليزية بطرد الرعايا الفرنسيين وعدم السماح للسفن الفرنسية بالدخول إلى ميناء مسقط، تقديم المعونة لأية سفينة إنجليزية تتعرض للخطر في المياه الإقليمية العمانية والسماح للإنجليز بفتح وكالة في بندر عباس(٦٠) .

جعلت المعاهدة لبريطانيا اليد العليا في الشئون العمانية، وبداية العلاقات السياسية الوثيقة بين بريطانيا وعمان كما استهدفت إقصاء الفرنسيين والهولنديين من إقامة وكالة في مسقط، ومنع الفرنسيين من صداقة حاكم مسقط(٦١) . وقيدته بشروط كثيرة، جعلت دنكان حاكم بومباي يكتب إلى ولزلي الحاكم العام معلقاً على هذه المعاهدة بقوله "إن مهدي علي خان حصل بهذا الاتفاق على أكثر مما نأمله"(٦٢) .

وأعرب سلطان عن رغبته بإعادة فتح مركزها السابق في بندر عباس ورفض إقامته في مسقط، لأن ذلك يثير الفرنسيين والهولنديين وبذلك تتعرض التجارة العمانية لخطر العمليات القرصنية الفرنسية(٦٣) .

نظراً لطلبات سلطان المذكورة من حكومة بومباي، وافق الممثل البريطاني على توفير الماء والخشب للسفن العمانية في الموانئ الهندية، وزيادة كمية الملح

التي تحصل عليها من ١٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ مند[٦٤] . وهي قضايا لم تنص عليها المعاهدة .

لم تضع معاهدة ١٧٩٨م نهاية حقيقية لتردد مسقط في سياستها، ويدل على ذلك تبادل المراسلات بين دنكان حاكم بومباي وسلطان بن أحمد عام ١٧٩٩م فالأول يوجه اللوم والثاني يحاول تبرير موقفه بسبب استمرار علاقته التجارية مع الفرنسيين[٦٥] لأن قطع علاقاته يضر بمصالحه الاقتصادية .

إن عوامل عديدة دفعت سلطان بن أحمد لعقد معاهدة عام ١٧٩٨م مع بريطانيا منها التفوق البحري الذي حققته بريطانيا على فرنسا في المحيط الهندي ولاسيما بعد معركة أبي قير البحرية ١٧٩٨م والأهمية الاقتصادية القصوى التي كانت تمثلها الهند بالنسبة للتجارة العمانية[٦٦] . ولأن التعامل مع فرنسا سوف يضع بلاده تحت حصار تجاري من جانب بريطانيا . بالإضافة إلى أن حملة نابليون على مصر أثارت شعوراً عاماً ضد الفرنسيين في الشرق، كما أن الجانب البريطاني بدا هو الأقوى، ويمكن الاعتماد عليه في مواجهة أي خطر في المنطقة يمس عمان .

إن معاهدة ١٧٩٨م لم تحقق الغرض المطلوب في نظر بريطانيا لاستمرار العلاقات بين فرنسا وعمان، لذلك راودت بريطانيا الشكوك في موقف حاكم مسقط، وارتأت إرسال بعثة جديدة لمعرفة حقيقة موقفه إزاء بريطانيا وفرنسا .

بعد عام واحد من عقد معاهدة ١٧٩٨م أثيرت جملة من الأمور في موقف سلطان بن أحمد من الصراع البريطاني – الفرنسي، إذ وصلت أنباء إلى الهند بأنه (أي سلطان) يستخدم موظفين فرنسيين وأنه يشايع فرنسا، حتى أنه سمح لإحدى سفنه بأن تحمل كمية من الحبوب والكبريت استولى عليها الفرنسيون من إحدى السفن البريطانية التي كانت في طريقها إلى البصرة وبيعت في أسواق مسقط[٦٧] .

وقد لخص دنكان حاكم بومباي في إحدى رسائله إلى سلطان بن أحمد مآخذ السلطات البريطانية عليه ومنها، سوء معاملة الأميرال بلانكيت أثناء مروره بزنجبار في طريقه إلى البحر الأحمر، واستمرار العلاقات التجارية بين عمان وجزيرة مورشيوس الفرنسية[٦٨]،

واكتشاف السلطات البريطانية في البنغال مؤامرة ضد الوجود البريطاني دبرها عدد من الأمراء الهنود بمساعدة حاكم أفغانستان زمان شاه[٦٩].

ومما عزز شكوك بريطانيا الرسالتان اللتان أرسلهما نابليون بونابرت عام ١٧٧٩م إلى سلطان بن أحمد وتيبو صاحب[٧٠]. إلا أن الرسالتين الموجهتين لكليهما لم تصلا إليهما لوقوعهما بأيدي الوكيل البريطاني في مخا الذي بعث بهما إلى حكومة الهند[٧١] لذلك أوفدت حكومة بومباي مالكولم[٧٢] إلى مسقط أثناء توجهه إلى طهران لإجراء مباحثات مع سلطان عمان.

وصل مالكولم إلى مسقط في ٨ كانون الثاني عام ١٨٠٠م على ظهر الفرقاطة بومباي وتبادل وجهات النظر مع حاكم الميناء (سيف بن محمد) بسبب غياب سلطان في مهمة بحرية[٧٣]. وكان سيف يعرف الإنجليز وحكومتهم جيداً إذ قام بـ ٣٦ رحلة منها ست عشرة إلى بومباي، والباقي إلى كلكتا، وكان يدرك المصادر الجيدة والفوائد الكبيرة السياسية والتجارية لمسقط في تحالفها مع الإنجليز[٧٤].

استخدم مالكولم في حديثه أسلوب التهديد والوعيد، فذكر حاكم الميناء بالتفوق البريطاني الكامل وتدهور مركز فرنسا في الشرق حيث أن الفرنسيين كانوا قد انهزموا في الشرق ماعدا جزيرة مورشيوس التي ليس لها أهمية، وفقد حلفاؤهم الهولنديون. كل شيء في آسيا ماعدا بتافيا، وأشار إلى ما آل إليه تيبو صاحب سلطان ميسور بسبب انحيازه إلى جانب الفرنسيين[٧٥]، وما لقيه بونابرت من هزائم كبيرة في مصر، كما تباحث في مصير تجارة مسقط فيما لو أغلقت موانئ الهند أمام السفن التجارية المسقطية[٧٦].

ركز حديث مالكولم على إظهار قوة بريطانيا وإبراز ضعف ومساوىء الحكومة الفرنسية أملا في قطع علاقة حاكم مسقط بالفرنسيين مؤكداً أن ازدهار عمان مقرون بالتفوق الإنجليزي، وبعد ذلك غادر مالكولم مسقط للقاء السلطان وقد التقى به قرب جزيرة هنجام[٧٧]. وصعد على سطح سفينة القيادة للأسطول العماني (جنجافا) حيث استقبله سلطان عمان، وقدم مالكولم الرسائل والهدايا[٧٨].

وفي مباحثاته مع حاكم مسقط، كرر حديثه مع حاكم الميناء، والذي تضمن تأمين الحالة السياسية والازدهار التجاري لبلاده بتأكيد ارتباطه مع بريطانيا، ولهذا فإنه يأسف لاستمرار علاقته بالفرنسيين، وبالمقابل عبر سلطان كذلك عن أسفه لما حدث وأنه مستعد للسماح بإقامة (١٠٠٠ إنجليزي) بدلاً من واحد في مسقط، وأنه لا يرغب في التحالف إلا مع الحكومة الإنجليزية[٧٩].

وكانت التعليمات التي صدرت من حكومة الهند إلى مالكولم أن يعمل ما في وسعه لمناقشة أية نقاط تتعلق بالمصالح البريطانية في مسقط[٨٠]. كذلك تركزت المباحثات على هذا الجانب وأسفرت عن عقد معاهدة جديدة عام ١٨٠٠م، أكدت في مادتها الأولى على معاهدة ١٧٩٨م، ونصت الثانية على إقامة وكيل بريطاني في مسقط بشكل عام[٨١]. وعين أول وكيل سياسي بريطاني في مسقط وهو الجراح بوجيل الذي أصبح طبيباً للسلطان بدلا من طبيبه الفرنسي، وكمقيم بريطاني في مسقط يرعى مصالح حكومته هناك[٨٢].

وعلق كاي (Kaye) على هذا التعيين بقوله : "كانت هناك بوابتان لحديقة الدبلوماسية الإنجليزية في الشرق، الأولى التجارة، والثانية الطب. ونحن مدينون لإمبراطوريتنا الهندية في الواقع لكليهما" . وكان على بوكل أن يكون طبيباً وفي الوقت نفسه وكيلاً سياسياً[٨٣].

لم يتوقف النشاط الفرنسي بعد عقد المعاهدة بل جرت محاولات لكسب حاكم مسقط إلا أنها فشلت لالتزامه الجانب البريطاني[٨٤].

كما حصلت حكومة الهند من توقيع المعاهدتين على كسب مسقط إلى جانبها في صراعها المرير مع فرنسا، وأصبح لها نفوذ متميز في عمان، وأبعدت شبح القلق من احتمال تهديد فرنسي لنفوذها وعملت على تركيز المصالح البريطانية في عمان بشكل خاص والخليج العربي بشكل عام.

الدكتور سلمان لفتة الزيدي

جامعة بغداد

الهوامش

١ - لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين أحمد حسين، مجلة الخليج العربي، جامعة البصـرة، العـدد العـاشر، ١٩٧٨، ص ٩٠ .

◆ **Skeet, Ian; Muscat and Oman, The End of an Era. (London, 1974). P.40.**

٢ - تقع في المحيط الهندي على مسافة ٥٥٠ ميلاً إلى الشرق من مدغشقر و (٣٢٠٠) ميل عن رأس الرجاء الصالح، كان البرتغاليون أول من اكتشفها سنة ١٥١٠، ثم احتلها الهولنديون سنة ١٥٩٨، وأطلقوا عليها مورشيوس ولكن الفرنسيين أبدلوا الإسم إلى جزيرة فرنسا (**I - Ile de France**) وبقيت تحت سيطرتهم حتى سقوطها بيد الإنجليز عام ١٨١٠م : راجع محمد عبد الله العزاوي، نشاط فرنسا السياسي في الخليج العربي والإجراءات البريطانية المضادة ١٧٩٣ - ١٧٩٨م، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، المجلد الثامن عشر، العدد ٣ - ٤، ١٩٨٦ . هامش، ص ٣٧ .

٣ - **Coupland, R; East African and Its Invaders; from the Earliest times to the death of Seyyid Said in 1856 (Oxford Vep, 1961) P. 84.**

٤ - صالح محمد العـابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي (١٧٩٨ - ١٨١٠م) بغداد، ١٩٧٩ ص ٦٦ .

٥ - لمزيد من التفاصيل عن هذه الاصطلاحات أنظر : ◆ زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عـام ١٩١٤، بغداد ١٩٦٨، ص ٦٣ - ٦٤ .

٦ - المصدر نفسه والصفحة .

٧ - بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الجـزء الأول، الكويت ١٩٧٨ . ص ٨٧ .

٨ – كانت تصدر إلى عمان السكر والمنتجات الأخرى وتستورد المواد الغذائية كالحبوب والتمور . راجع : ♦ س.ب. مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٢ . ص ٢٢٦ . ♦ Coupland; op. Cit. P.84.

٩ – التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبوظبي وبين المملكة العربية السعودية، المجلد الأول، الأساس،١٩٠٥ . ص ١٠٨ . ومن الجدير بالذكر أن صيغ المبالغة كانت هي الغالبة في ذلك العصر بين الحكام الشرقيين ولا تعني مطلقاً واقع الأمر بقدر ما تدل على أسلوب في المجاملة الدبلوماسية .

١٠ – راجع : ♦ جون غوردون لوريمر، دليل الخليج العربي، القسم التاريخي، جـ٢، ترجمة مكاتب الترجمة بديوان حاكم قطر، ط٢، (الدوحة، بلا تاريخ) . ص٦٥٥ . إلا أن فيلبس يبتعد عن الواقع عندما يجعل هذه الأزمة عام ١٧٨٩م . ♦ وندل فلبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، (سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨١ . ص ٨٥ .

١١ – أنظر : صالح، المصدر السابق، ص ٦٤ .

١٢ – راجع : مايلز، المصدر السابق، ص ٢٢٩ إلا أن سكيت ونيكولز يقعان في خطأ عندما يعتبران الإمام وافق على إقامة وكالة فيها كما أنهما يحددان عام ١٨٠٥م موعداً لزيارة البعثة ، أنظر :

Skeet, op. Cit. P. 43, Nicholls; C.S.; The Swahilli Coast Politics and Diplomacy and Trade on the East African Littoral 1798 - 1856; George Allen and un wilted, 1971. P. 103.

١٣ – العزاوي، المصدر السابق ص٧ .

١٤ – رودلف سعيد روت، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ – ١٨٥٦، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، جامعة البصرة، ١٩٨٣ . ص ١٣٩ . ♦ فلبس، المصدر السابق، ص ٨٥ – ٨٦ .

١٥ – عرض حكومة المملكة العربية السعودية، المصدر السابق، ص ١٠٩ .

١٦ – روت، المصدر السابق، ص ١٣٩ .

١٧ – أنظر : صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، ١٩٦٥ . ص ٦٤ .

١٨ – من المتخصصين في علم التاريخ الطبيعي، تجولت البعثة خمس سنوات في تركيا ومصر وإيران ووصلت استنبول عام ١٧٩٣م، للتفاصيل أنظر : ♦ لوريمر، المصدر السابق، جـ١، ص٢٤٧ –

٢٥١ إن هـذه البعثة علميـة في ظاهرها سياسـية في أهدافها الراميـة إلى زيادة النشـاط الفرنسـي في فارس .

١٩ – تأخـر افتتـاح القنصليـة في مسـقط حتى عـام ١٨٩٤، وعين أوتافي أول قنصـل فرنسي في مسقط:
♦ Skeet ; Op.Cit. P.42.

٢٠ – عبد العزيـز عبد الغني إبراهيم، بريطانيـا وإمارات السـاحل العمـاني، بغداد ١٩٧٨ . ص٦٦، مديحة أحمـد درويش. سـلطنة عمان في القرنين الثامن عشـر و التاسع عشر. جدة، ١٩٨٢ ص ٥٤.

٢١ – H. Prentout; L` Ile de France Sons Decaen, 1803 - 1810, (Paris, 1901). P. 332.

٢٢ – أنظر : العزاوي، المصدر السابق، ص ٤٠ .

٢٣ – للتفاصيل أنظر : جون باريت تيلـي، بريطانيـا والخليـج ١٧٩٥ – ١٨٨٠، الجـزء الأول، ترجمـة محمـد أمـين عـبد الله، (سـلطنة عمـان، وزارة التراث القـومي والثقـافة، بـلا تـاريخ، ص١٠٠ – ١٠١ .

٢٤ – أنظر نص التعليمات الموجهة إلى سكنر :

♦ Saldanha, J.A. ed; Selection from states papers, Bombay, Regarding the East India Company's connection with the Gulf 1600 - 1800 (Calcutta, I, 08) p.p.334 - 335.

♦ لوريمر، القسم التاريخي، جـ٢، ص ٦٦٨ – ٦٦٩ .

٢٥ – Nicholls; Op. Cit. P.105.

٢٦ – أنظر نص الرسائل المتبادلة بينهما

Selection from stats papers, 1600 - 1800. P.p.335 - 337.

٢٧ – أنظر : Nicholls; op. Cit. 106.

٢٨ – للتفاصيل : I, bid, p. 107.

٢٩ – أنظر : Coupland; Op. Cit. P. 102.

٣٠ – الشئون الخارجية، المراسلات السياسية، بلاد فارس، الجزء الثامن، ص ١٦ . نقلاً عن إيزابيلا بالو، عمان وفرنسا صفحات من التاريخ، ترجمة السيد خزعل، باريس، بلا تاريخ، ص٦ . وقدمت الخيول العربية هدية للحاكم الفرنسي مجالون راجع :

♦Prentout, H. L'Ill De France Sons Decach 1803 - 1810, (Paris, 1901) P. 333 . Coupland; Op. Cit.. p. 102.

٣١ – راجع : **Coupland; Op.Cit. p. 333.**

٣٢ – وبوصوله علم بوجود باخرة إنجليزية في ميناء مسقط، وأخرى غادرت المرفأ منذ يومين : **I, bid. P.336.**

٣٣ – راجع : **Coupland; Op.Cit. p. 103.**

٣٤ – جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ – ١٨٦١، القاهرة، ١٩٦٧ . ص ١٢٤ .

٣٥ – للتفاصيل راجع : كيلي، المصدر السابق، ص ١١١ إلا أن نيكولز يخطيء عندما يعتبر حصول كافنياك على منزلة أومكانة في مسقط ، شبه ما حصل عليه الوكيل البريطاني سيتون : أنظر : **Nicholls; Op.Cit. P. 108.**

٣٦ – **Precis of Correspondence Regarding Affairs of the Gulf, 1801 - 1853. (Calcutta, 1906) p. 29.**

٣٧ – لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢ ص ١٧٥ ، أرنولد ولسون "الخليج العربي" ترجمة عبد القادر يوسف، الكويت، بلا تاريخ، ص ٣٧٩ .

٣٨ – سمير محمد على أبو ياسين، العلاقات العمانية – البريطانية ١٧٦٨ – ١٨٥٦م، البصرة، ١٩٨١ . ص ٤٩ .

٣٩ – أنظر : كيلي، المصدر السابق، ص ١١٧ .

٤٠ – العقاد، المصدر السابق، ص ٨٣ .

٤١ – **Prentout; Op.Cit. P.339.**

٤٢ – صالح، المصدر السابق، ص ١١١ .

٤٣ - أنشئت الشركة بمقتضى براءة ملكية بتوقيع من الملكة إليزابيث الأولى في نهاية عام ١٦٠٠، وكانت تظهر نفسها على أساس أنها لاتهتم إلا بالمصالح التجارية، ولكنها تسعى لتوطيد نفوذها السياسي والعسكري، وأصدرت الملكة مرسوماً للشركة المتاجرة مع الشرق. للتفاصيل أنظر :

◆ ولسن، المصدر السابق، ص ٢٦٨ - ٢٨٨ .

◆ فيلبس، المصدر السابق، ص ١١٠ - ١١١ .

٤٤ - ◆ **Jan Skeet; Mascut and Oman, The End of An Ara (London, 1, 1914) A. pp.1 . p.p.211 - 212.**

٤٥ - ◆ **Skeet; Op.Cit. p. 38.**

٤٦ - عائشة علي السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا ١٦٢٤ - ١٧٤١، بيروت ١٩٧٥، ص ١٩٦ .

٤٧ - عن تفضيل الخليج العربي على البحر الأحمر في تلك الحقبة يمكن الرجوع إلى :

Holden, Furber, The Overland route to India Journal of Indian History (Aug. 1955). P.P. 106 - 133.

٤٨ - من الجدير بالملاحظة أن معظم الكتاب الفرنسيين أطلقوا على النشاطات البحرية العربية والإسلامية في المتوسط أو في بحار الشرق تعبير (قرصنة) وهو ما يتنافى مع الروح العلمية من ناحية، ويعبر عن نزعة صليبية متعصبة من ناحية أخرى. (فشارلز لو) مؤرخ البحرية الهندية مثلاً يصنف العمليات البحرية العربية في الخليج قرصنة (إن القرصنة متغلغلة حتى بين أولئك العظماء العرب الذين لا يعرفون الراحة ولا الطاعة) كما أن كلاً من لوريمر وأرنولد ولسون وريشارد سانجر يعتبرون النشاط العماني البحري في عهد اليعاربة وصراعهم مع البرتغاليين (قرصنة) أنظر: صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠، بغداد، ١٩٧٦، ص ٤٣ - ٨٥ .

٤٩ - أنظر : العابد، موقف بريطانيا، مصدر سابق ص ٦٢ .

٥٠ - مقتبس من لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢ - ص ٦٥٥ .

٥١ - المصدر نفسه، ص ٦٦١ . ولسون، المصدر السابق، ص ٣١٤ .

٥٢ - صالح، المصدر السابق، ص ٧١ .

٥٣ – أنظر : لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢، ص ٦٦٩، ٦٧٨ .

٥٤ – أنظر : العزاوي، المصدر السابق، ص ٤٣ .

٥٥ – فارسي الأصل عمل في خدمة شركة الهند الشرقية، وعين مقيماً في بوشهر، وجاء إلى مسقط لعقد معاهدة مع حاكمها سلطان بن أحمد عام ١٧٩٨م : **Coupland; Op.Cit. p. 95.**

٥٦ – **Selection From states papers, 1600 - 1800, p. 340.**

٥٧ – العابد، موقف بريطانيا، ص ١٠٨ .

٥٨ – عرض حكومة المملكة العربية السعودية، المصدر السابق، ص ١١٦، لوريمر القسم التاريخي، جـ ٢، ص ٦٧٣ .

٥٩ – العابد، موقف بريطانيا، ص ١٠٩ – ١١٢ .

٦٠ – أنظر نص المعاهدة في :

أرنولد ولسون، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي، ١٩٨١، ص١٦٨ – ١٦٩، أحمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ الكويت، الجزء الأول، القسم الثاني، الكويت، ١٩٧٠، ص ٩٧ – ٩٩ .

٦١ – **Warden Francis; Historical Sketch of the Rise and Progress of the Government of Musket and continued to the year 1819; In S.R.B. G. No. XXIV. P.172.**

٦٢ – صلاح العقاد، الاستعمار في الخليج، القاهرة، ١٩٥٦م . ص ٤٠ .

٦٣ – لمزيد من التفاصيل أنظر : الرسائل المتبادلة بين مهدي علي خان وحكومة بومباي :

Selection from state papers, 1600 - 1800, p.p.346 - 348.

أما كوبلاند فيضع ألمانيا بدلاً من هولندا :

Sir Regland Coupland ; The Exploitation of East Africa 1856 - 1890,

The Slave Trade and The Scramble, (North Western University 1967). P. 8.

٦٤ – كيلي، المصدر السابق، ص ١٠٣ .

٦٥ - فؤاد سعيد العابد، سياسة بريطانيا في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، (الكويت، بلا تاريخ) ص ٢٦ .

٦٦ - للتفاصيل راجع : العابد، موقف بريطانيا، ص ١١٢ .

٦٧ - لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢، ص ٦٧١ .

٦٨ - العقاد، الاستعمار في الخليج، ص ٥٠ .

٦٩ - كيلي، المصدر السابق، ص ١٠٤ .

٧٠ - تيبو سلطان ميسور (١٧٨٢ - ١٧٩٩م)، كان عدواً للوجود البريطاني في الهند ولهذا عدّته فرنسا حليفاً لها . خاض ثلاث حروب ضد بريطانيا في (١٧٨٠ - ١٧٨٤) و (١٧٩٠ - ١٧٩٢) وانتهت الأخيرة في عام ١٧٩٩ بمصرعه واحتلال ميسور : لمزيد من التفاصيل أنظر :

♦ Denys Forrest; Tiger of Mysor, The Life and Death of Tipu Sultan, (London 1970).

٧١ - روت، المصدر السابق ص ١٤١، صالح، المصدر السابق، ص ٧٥ .

٧٢ - جاء مالكولم إلى الهند جندياً في جيش شركة الهند الشرقية وعمره لا يتجاوز ١٤ عاماً، وشهد العمليات الحربية في ميسور عام ١٧٦٠م، واختير للذهاب إلى بلاد فارس على رأس وفد من قِبَل ولسلي عام ١٧٩٦ : لمزيد من التفاصيل عن حياة مالكولم ونشاطاته أنظر :

♦ John William Kaye ; The Life and Correspondence of Major General Sir John Malcolm (London, 1856). 2 vols.

٧٣ - العابد، موقف بريطانيا، ص ١٢١ - ١٢٣ .

٧٤ - Kaye; Op.Cit. p. 106.

٧٥ - علاقة سلطان تيبو جزء من علاقته بالفرنسيين، حيث كان على اتصال دائم بحاكم عمان، واستمرار وكالته السياسية التي فتحت في عهد أحمد بن سعيد باقية في عهد سلطان بن أحمد والتي أطلق عليها اسم (المفوضية) : لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢، ص ٦٧٩ .

٧٦ - للتفاصيل أنظر : العابد، موقف بريطانيا، ص ١٢١ - ١٢٢ .

♦ Kaye; Op.Cit. p. p. 107 - 108.

٧٧ - والذي عبر عنه أوجدناه رغم أنه محاط ببعض الأبهة، يرتدي ثياباً بسيطة، كان لديه شال يلتف حول رأسه، والعباءة العربية التي تتدلى على أردنيه حيث كانت من قماش أيض ولا يضع أي زخارف أو حلي : أنظر : فلبس، المصدر السابق، ص ٨٦ - ٩٠ .

٧٨ - المكون من ساعة يدوية أنيقة مطرزة بالماس، وساعة جدارية مصنوعة من الفضة وخنجر من الذهب، وغدارة ذات ماسورتين، ومسدسين صغيرين، ومنظار لأولاده

♦ Kaye; Op.Cit. p. 109.

♦ I, bid; p.p. 110.

٧٩ - للتفاصيل أنظر :

إلا أن لوريمر يبتعد عن الواقع ويجعلهم عشرة أشخاص : لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢ ص٦٧٣ .

٨٠ - لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢ ص ٦٧٢ . ولسون، المصدر السابق ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

٨١ - Aitchison, C.U. ; (Complied; A collection of treaties, Engagments and sanads relating to India and Neighbouring countries (Calcutta 1902). Vols ; AII. P.p.208 - 209.

♦ أبو حاكمة، المصدر السابق، ص ١٠٠ - ١٠١ .

٨٢ - توفى (بوجيل) بعد وقت قصير بسبب مناخ مسقط الذي لم يكن ملائما لصحته، فحل محله (ديفيد سيتون) والذي عمل على إرساء النفوذ البريطاني في عمان : لوريمر، القسم التاريخي، جـ ٢، ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

٨٣ - Kaye; Op.Cit. p. 106.

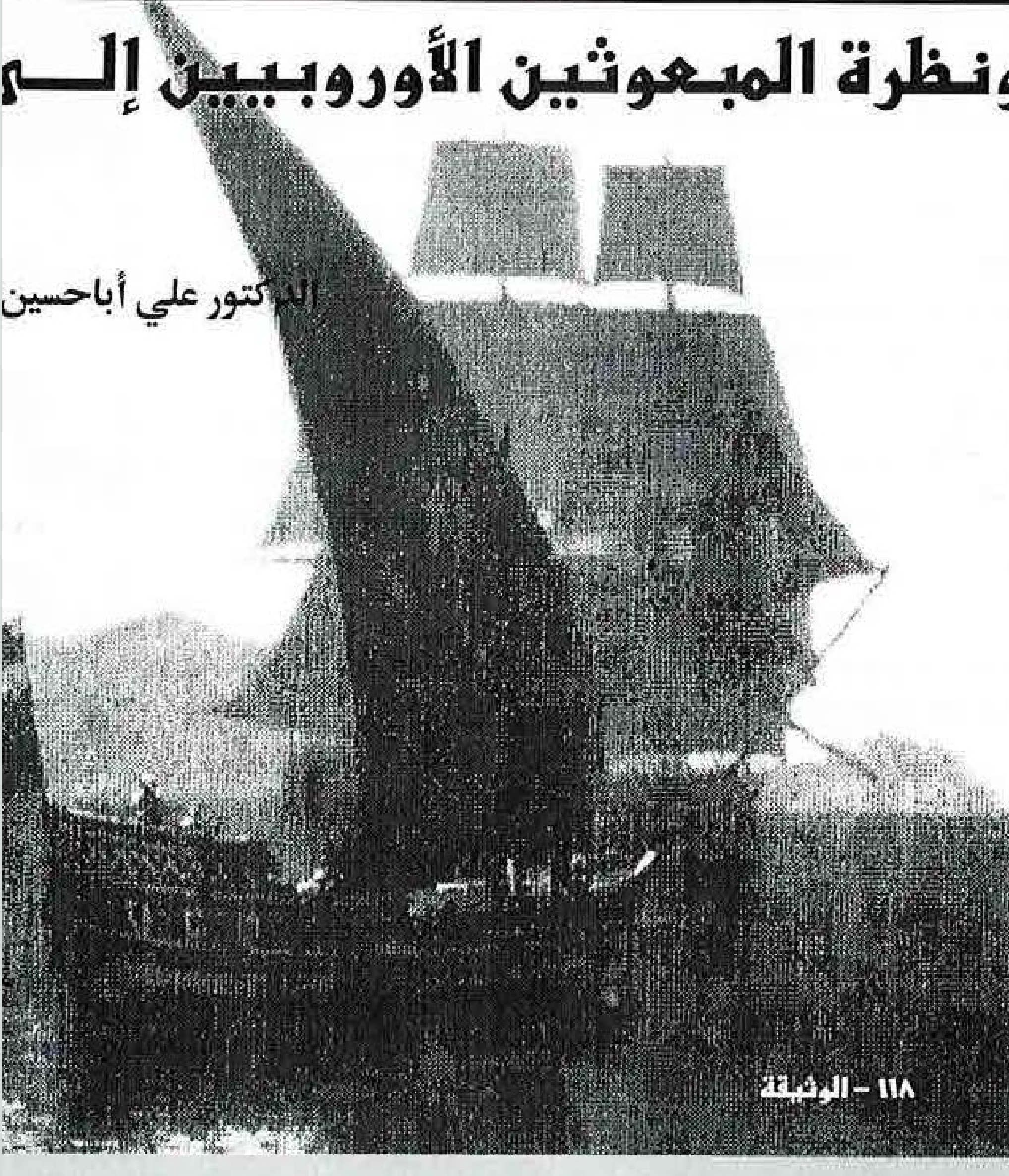
٨٤ - Roger M. ; Savory; The Gulf in Early Islamic Times, A.D. 1600 - 1800, in the Gulf States, (London, 1980). P. 38.

تعليق على بحث

فترة التنافس الأوروبي

ونظرة المبعوثين الأوروبيين إلى

الدكتور علي أباحسين



بين عامي ١٦٥٠-١٨٠٠

القوى العربية الفاعلة آنذاك[1]

استهل الدكتور سلوت بحثه القيم (بمقدمة) حول (مصادر تاريخ عرب الخليج) كما ورد في أرشيفات وكتب الدول الأوروبية وتتضمن :

١ – بحوث وكتب الرحالة وما حوته من نصوص وخرائط ورسوم وعددها أقل من خمسين كتابا وبحثا .

٢ – ما كتبه الموظفون الأوروبيون العاملون بشركات الهند الشرقية الهولندية والبريطانية وفي القنصليات الفرنسية .

٣ – مصادر (الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) وهي (إضافة) يشكر عليها الأستاذ (سلوت) حين ذكرها وعلى الباحثين وطلاب العلم الإطلاع عليها لإضافة حقائق أو تصحيحها فلم يعد الاعتماد على الوثائق البرتغالية والإنجليزية والهولندية والفرنسية فحسب بل أضاف (وثائق الكنيسة الإيطالية) عن عرب الخليج .



٤ – أما (الوثائق العثمانية) فقد أشار إلى أنها تتحدث عن الأحداث الهامة التي شهدتها الإمبراطورية العثمانية وحسب تقدير أورده مدير عام الأرشيف التركي في استنبول فإن أرشيفات الدولة تحوي نحو خمس عشرة مليون وثيقة عثمانية، ومنذ عام١٩٨٩م باشرت (الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية) بمشروع موفق وهو البحث عن الوثائق العثمانية ذات الصلة بتاريخ الخليج والجزيرة العربية وتصويرها ثم ترجمتها ترجمة موجزة) وقد تم الحصول على أكثر من أحد عشر ألف وثيقة وترجمتها تتحدث عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية ولازال العمل جارياً يقوم به مختصون في استنبول وتقوم الأمانة العامة بتصوير نسخ من هاتيك الوثائق لتسليمها إلى المراكز الأعضاء في الخليج العربي والجزيرة العربية أولاً بأول . لذا يمكن القول بأن الوثائق العثمانية تتحدث عن الأحداث الهامة التي شهدتها الإمبراطورية العثمانية وعن الأحداث التي تلقي الضوء على تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية .

وحين ذكر (الوثائق) التي تملأ الخزانات قال أن ما يتعلق (بعرب الخليج) قليل جداً حتى أنها لا تكون ١٠٪ من عدد (الوثائق الهولندية) التي تعد (بعشرات الآلاف) وأن عدد الوثائق للقرنين السابع عشر والثامن عشر التي تحكي تاريخ الخليج والمتواجدة في الأرشيفات الأوروبية ودور الوثائق ضخمة جداً حيث توجد (عشرات الآلاف من الوثائق الهولندية) و (الآلاف من الوثائق الإنجليزية) و (مئات من الوثائق البرتغالية والفرنسية) لكن حجم المواد ذات الاهتمام والصلة بتاريخ الخليج قليل جداً وخاصة بخصوص المواد الرسمية الهولندية التي رغم ضخامتها حجماً تركز أساساً على تجارة الشركة الهولندية ولا تغطي أكثر من ١٠٪ من هذه المواد .

ثم يذكر الآلاف من (الوثائق الإنجليزية) والمئات من (الوثائق البرتغالية والفرنسية) وهذا القول يحتاج إلى مزيد من الدقة . فلو راجعنا مثلاً ما ورد في كتاب (دور السجلات الهندية) وما تصدره (أركايف أدشن) بين حين

وآخر من صور الوثائق التي تملأ مجلدات وكذلك ما دونته (بنلوب توسون) في كشافها المنعوت بـ (سجلات المقيميات البريطانية والمعتمدين في الخليج) والمطبوع في لندن ١٩٧٩م لوجدنا أن الوثائق الإنجليزية تعد بأكثر من الآلاف وأن الأرشيف الهندي في بومباي فقط يضم ٨٩ ألف مجلد و٣٠٠ ألف إضبارة . ومثل ذلك الوثائق الفرنسية والبرتغالية . فهي أكثر من أن تعد بالمئات بل بالآلاف تلك التي تحكي تاريخ الخليج العربي .

وقد شهد الخليج العربي في العصر الحديث صراعاً سياسياً تمثل في تنافس القوى الأوروبية فيما بينها من جهة وبينها وبين القوى العربية المدافعة عن سيادتها وثروة بلادها ضد تلك القوى المتمثلة بالاستعمار البرتغالي ثم البريطاني والهولندي والفرنسي . ولم تستفد القوى العربية من التنافس الأوروبي لضرب بعض الدول المتنافسة بالبعض الآخر . ومما ساعد على تدخل القوى الأوروبية في الخليج العربي عوامل كثيرة منها :

ما أصاب الشعوب الإسلامية من صراع خاصة تلك التي تطل على الخليج العربي مما أفسح المجال للتدخل البرتغالي لبسط السيطرة على جزر وموانئ الخليج منذ القرن السادس عشر وما بعده حتى إذا ما ظهرت قبائل عربية امتلكت السفن وسيطرت على الملاحة والتجارة وصيد اللؤلؤ دب بينها الحسد لبعضها البعض فتصادموا فضعفوا مما هيأ الفرصة للقوى الأوروبية أن تجد لها مكاناً مناسباً في الخليج(٢) كما أن رد الفعل (للقوى العربية) في الخليج لم يكن قد خطط له سياسياً وقلما يتعاون العرب مع بعضهم ضد الأجنبي .

وتعليقنا على ما ورد ذكره عن موقف دول الخليج العربية اتحادهم وتعاونهم ضد البرتغاليين فقد حدث في ٢١ نوفمبر ١٥٢١م حينما أرسل إمام مسقط رسله إلى (دبي) و (خورفكان) و (توام) و (ليوا) و (قلهات وصحار ومسقط) و (البحرين) واتفقوا على الثورة ضد البرتغال فتحررت مسقط من نفوذ هرمز .

وكذلك حدث في ٩٢٨هـ/١٥٢٢م أن عرب (هرمز) و(البحرين) و (مسقط وقريات وصحار) قاموا بثورة ضد البرتغاليين في وقت واحد وليلة واحدة حيث قامت تلك المناطق على حين غرة بالهجوم على

البرتغاليين براً وبحراً وقاتلوهم فقتلوا كثيراً منهم وشنق أهل البحرين القائد البرتغالي على شجرة إلا أن وصول المدد للبرتغاليين أحبط الهجوم فسيطر البرتغاليون على الموقف[٣] ثم قام الإمام (ناصر بن مرشد)[٤] بتوحيد المدن الداخلية والساحلية في عمان ثم أرسل رسله إلى (صحار وقريات وشناص) و (خورفكان) و (دبي) و (ليوا) و (البحرين) كما أرسل رسوله إلى الوالي العثماني (بالبصرة) يعلمه على اتفاق المسلمين ضد البرتغاليين . أرسل إلى الساحل الفارسي لإطلاع (القبائل العربية) هناك عن الدولة الجديدة فأبلغ الرسول عرب (هرمز وشيراز وبندر عباس ولنجة وبوشهر وكونك) وإلى القرين (الكويت) أبلغ الجميع بمقاطعة السفن البرتغالية فتجاوب الجميع لنداء الإمام العماني وأيدت (القبائل العربية) في الساحل الفارسي لمناصرة عمان في الثورة ضد البرتغال، وفي ١٠٥٠هـ/١٦٤١م أرسل إمام عمان رسله إلى (القرين) و (البحرين) و (قطر) و(جلفار) و (دبي) و (ليوا) فاتته خمس سفن تحمل المقاتلين من نفس منطقتها مع خمسمائة ألف محمدية[٥] كما جاءت أربع سفن تحمل المدد من القمح والأرز والتمر من (القرين) وأخرى من (البحرين) وثالثة من شمال عمان (الإمارات العربية المتحدة وقطر) وسفينة رابعة جمع تكاليفها (عرب جزيرة خارج) ولقد أصر العرب على تضامنهم بأن يحاربوا مع أهل عمان ضد الأجنبي البرتغالي الدخيل لأنهم اعتبروا القضية قضيتهم وقالوا لا نعتمد على الأجانب في طرد الأجانب من خليجنا العربي . وبنى العمانيون خمس سفن في الهند وعليها المدافع والبحارة المدربين ووقعت المعركة فانتصر عرب الخليج وعقدت اتفاقية وبموجبها دفع البرتغاليون الجزية بانتظام لإمام عمان وسلموا مراكزهم الرئيسية وكافة تحصيناتهم للإمام وأطلق على إحدى السفن العربية اسم (الجلندي) ابن المستكبر أحد أئمة عمان الذي أنقذ سوقطرة من عدوان الروم، وسموا السفينة الثانية (جلفار) رأس الخيمة لتذكر الناس بإحراق البرتغاليين لها وسميت الثالثة (الرستاق) من مدن عمان، والرابعة (شاهين) تذكيراً بتلك السفينة الرائدة في التحذير من خطر البرتغال .

وجدير بالذكر فإن (القرين) وهو موضع الكويت الحالي والتي هي جزيرة صغيرة تقع في الشويخ أحد موانئ الكويت كيف أن جزيرة صغيرة تمكنت أن تجمع مالاً وترسل سفينة محملة بالمقاتلين فلابد أن القرين يسكنها جمع غفير من الناس في الفترة التي يتحدث عنها الأستاذ (عبد الله محمد الطائي) حوالي عام ١٠٥٠هـ/١٦٤١م .وأن هذه الرواية لم نعثر عليها فيما اطلعنا عليه من مصادر تاريخ الخليج العربي وهي تحتاج إلى مزيد من التحقيق التاريخي . وخلف الإمام ناصر بن مرشد الإمام (سلطان بن سيف اليعربي) الذي حرر مسقط والبلاد العمانية في عام ١٦٥٠م وعاد إلى (نزوى) ليستقبل المهنئين وعلم أن سفينة عربية يرتفع عليها شراع أبيض كبير قدمت من البصرة تحمل عرباً مهنئين من (قرين) و (كاظمة) و(البحرين) ومن (القبائل العربية ساحل فارس) ومن (قطر) و (دبي) و (خورفكان) و (جلفار) وقد كتب على شراعها : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وكتب أدنى من ذلك : (عرب البحر العربي يهنئون عمان بانتصارها على البرتغال) فعاد السلطان بن سيف إلى مسقط ليستقبل المهنئين العرب وعسى أن يبقى هذا المفهوم في بحرنا وخليجنا العربى فيمتد إلى الأحفاد على مر السنين(٦) .

وأورد الأستاذ (سلوت) في (ص١٤) من بحثه القيم إشارة مستقاة من وثيقة لقديس كاثوليكي في عمان محفوظة في أرشيفات روما لعام ١٦٥٠م حين احتل العرب مسقط على حد قوله دون تفصيل لذلك ومن هنا لابد من البحث عن الوثائق المحفوظة في أرشيفات روما حول ما يلقي الضوء على تاريخ الخليج عامة واتحاد الموانئ العربية في الخليج ضد البرتغاليين عام ١٦٤١م . وقد أشار الدكتور صادق الحلو إلى وثيقة من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية لمجهول تحت عنوان (تفصيل العلاقات بين فرنسا وفارس بين عامي ١٦٠٥ – ١٧٢٤م) ذكر فيها طرد البرتغاليين من مسقط على يد أحد القادة العرب . ويستطرد فيقول ولكن كاتب الوثيقة يخطئ في التاريخ فيحدده بعام ١٦٤٩م. وتشير هذه الوثيقة إلى أن السيادة في الخليج بعد هذا التاريخ أصبحت للعرب(٧) . لا أدري لماذا ذكر أن كاتب الوثيقة أخطأ في هذا التاريخ الذي يكاد

ينطبق مع ما أورده الأستاذ عبد الله الطائي وأن السيادة بعد هذا العام في الخليج أصبحت للعرب كما أنه لم يذكر من القائد الذي طرد البرتغاليين ربما أن الباحث لم يترجم الوثيقة كاملة ولذا لابد من الرجوع إليها وقد يكون فيها مزيد من التفاصيل . كما أن (هوارت) تناول في كتابه (تاريخ العرب) دور (ناصر بن مرشد) في طرد البرتغاليين وأنه نجح في حصرهم في قلاع صحار ومسقط ومطرح وقريات وأكمل ابن عمه (سلطان بن سيف) التحرير وقد أكد (ريفروايس دنيس دو ابريك) بيان أن الساقطة أخرجوا البرتغاليين من مسقط في حدود ١٦٤٨م بانتصار هائل كما سماه (هوارت) حيث فتح الطريق أمام (سلطان بن سيف) خليفة الإمام (ناصر بن مرشد) في التحرير[٨] .

وأورد الأستاذ (سلوت) في (ص١٢) من بحثه وصفاً عن هزيمة البرتغاليين من هرمز بتحالف الإنجليز مع الإيرانيين عام ١٦٢٢م وذكر ذلك عن رحالة إيطالي هو (بترو دي لافالي) الذي كان في إيران معاصراً للأحداث ويتضمن بحثه معلومات شيقة عن (مقاومة العرب للبرتغاليين) خاصة في (دبا) . وهذا ما يؤكد ما أورده الأستاذ الطائي .

وهناك تعليق على ما ذكره الأستاذ (سلوت) في (ص١٤) وهو يشير إلى الاتفاقية التي ناقشها (الشيخ القاسمي) ككبير للمفاوضين والتي فشلت وكأنها لم تكن واستمرت الحرب فحرر العرب مسقط في أواخر عام ١٦٥٠م ولدينا ثبوت مباشر لهذا الحادث لقديس كاثوليكي في عمان . وهذه الوثيقة محفوظة في أرشيفات روما .

وفي اعتقادنا أن هذه الوثيقة قد تكشف صحة ما ذكره الطائي من اتحاد العرب في الخليج ضد البرتغاليين لذا فقد البرتغاليون مسقط وهي آخر مواقعهم لإمام عمان وبهذا الانحدار لم يعد البرتغاليون منافسين خطرين في أي حقل من حقول التجارة الخارجية[٩] .

وأعود ثانية فأقول لم يذكر (الدكتور العابد) وهو يكتب عن القواسم ولا السيابي عن (الشيخ القاسمي) في هذه الفترة عام ١٦٥٠م إذ أن المعروف بأن نشاط القواسم وهم من القبائل العربية القاطنين بين رأس مسندم إلى أبوظبي حدث خلال (النصف الثاني من القرن الثامن عشر والعقدين الأول والثاني من

القرن التاسع عشر) ولم نعثر عليه في (منتصف القرن السابع عشر ١٦٥٠م)[١٠] .

ثم يذكر الأستاذ (سلوت) (ص١٢) (الشيخ القاسمي) الذي ذكره (روي فرير أندريد) ببحث تحت عنوان تعليقات روي فرير عام ١٦٤٣م والتي نشرها (لوسيانو كورديرو) و (باندور نجاسر لنكر) اللذان وصفا التحصينات التي أنشأها (روي فرير) والتي يمكن مراجعتها في (ليفرو دي استادو) . ويستطرد الباحث بقوله : ولأول مرة يذكر (الشيخ القاسمي) في مصدر أوروبي . ولازالت المصادر العربية والإنجليزية المعروفة لدينا تحدد ظهور القواسم سياسياً وعسكرياً في حوالي منتصف القرن الثامن عشر وليس قبل مائة عام وربما أن وثائق إيطالية أو هولندية تكشف عما أورده الباحث .

أما الاتفاقية التي أورد ذكرها الباحث وناقشها (القاسمي) ربما أنه يعني أن (الإمام ناصر بن مرشد) ناقشها وليس (القاسمي) لأن نشاط القواسم حدث بعد هذا التاريخ .

وعود على بدء فان موقف (الفرس) المناوئ للعرب قد أضعفهما معاً رغم أن الفرس قد عقدوا اتفاقيات مع الأوروبيين ضد سكان السواحل العربية كاتفاقهم مع البرتغاليين ضد العثمانيين المسلمين ومع الإنجليز ضد البرتغاليين وبذلك مهدوا السبيل للسيطرة الاقتصادية ثم السياسية للإنجليز في الخليج خاصة بعد أن دحرت بريطانيا فرنسا في حرب السبع سنوات عام ١٧٦٣م وانفتح المجال لتصفية القوى العربية في الخليج العربي .

وأخيراً فإن ظهور الشركات الأوروبية (كشركة الهند الشرقية الإنجليزية) و (شركة الهند الشرقية الهولندية) وبدء التنافس الاقتصادي بينها من العوامل التي أدت إلى فرض السيطرة على عرب الخليج ففي عام ١٦٠٠م طلب بعض التجار الإنجليز من الملكة اليزابيث الموافقة على القيام بالتجارة في الشرق فصدر مرسوم عام ١٦٠٠م بتأسيس شركة الهند الشرقية لتجارة التوابل ثم بقية السلع الأخرى وبعد فترة قصيرة أصبح للشركة أسطول بحري فاتجهت صوب الخليج العربي لمزاولة عملها بعد موافقة شاه فارس عام ١٦١٥م وأصبح للشركة وكلاء[١١] . ولابد من ذكر دور (الجواسيس والمغامرين)

الذين كشفوا الطريق للأوروبيين ورسموا الخرائط للخليج العربي وأن أول كشف للبرتغاليين سبق التدخل المسلح حين أوفد (بيدرو) شقيق (هنري الملاح) هذا إلى البلاط العثماني وبعثة أخرى إلى البلاط الفارسي لاستجلاء الأمور . كما أرسل ملك البرتغال (دون جوا الثاني) بعثات برتغالية متعددة في صدد البحث عن بلاد التوابل ومن هؤلاء (دي كوافيلو) و(إبراهيم البيجاوي) الذي أوفد إلى كل من بلاد فارس والدولة العثمانية . وأغلب الظن أن بعض (اليهود) في شبه جزيرة إيبيريه قد لعبوا دوراً في نطاق هذه البعثات الاستطلاعية مستغلين فرصة الخلاف التاريخي بين الدولة العثمانية وبلاد فارس وبذلك خطط الغربيون خططهم لجذب فارس إلى صف الغرب في صراع محتمل مع المسلمين في الشرق بما فيهم العثمانيون والعرب وأن التفاهم الذي حدث بين البرتغاليين والفرس إنما هو نتيجة مساع سابقة أدت إلى الحلف الصفوي البرتغالي ضد العثمانيين والعرب خاصة والمسلمين بصورة عامة وبعد أن تضاربت المصالح بين الفرس والبرتغال احتل البرتغاليون هرمز التي كانت ترتبط بروابط مع فارس ثم بدأت سيطرة البرتغاليين على بعض موانئ الخليج[١٢] ومن المغامرين والجواسيس والرحالة الذين قاموا برحلات إلى الشرق منذ عام ١٥٨٣م (رالف فيتش) و (جون نيوبرس) وهما تاجران و (وليم دبدن) الذي يعمل بتجارة الجواهر و (جيمس ستوري) وهو رسام وهؤلاء رحلوا إلى البصرة ومنها عبر الموانئ في الخليج العربي حتى وصلوا إلى هرمز فاعتُقِلوا على يد البرتغاليين على أنهم جواسيس وسجنوا ولكنهم قدموا تقارير عن سكان الخليج المناوئين للحكم البرتغالي وبذلك مهدوا لدخول الإنجليز ليحلوا محلهم وبدأت رحلات الشركة . كما أن الإنجليز شجعوا القرصنة ومن المؤكد أن الملكة اليزابث الأولى عينت (دريك) أميراً لقراصنة البحار ومثله (هوكنن) الذين يقطعون الطرق على السفن العائدة من أمريكا بعد اكتشافها[١٣] .

وعلى نطاق الدول فإن البرتغاليين والإنجليز والهولنديين والفرنسيين هم القراصنة حين جاءوا من بلادهم إلى الخليج العربي .

ولم تقتصر أعمال (شركة الهند الشرقية الإنجليزية) على التبادل التجاري فحسب بل تعدتها إلى نشاط

سياسي وعسكري فقد ساندت الفرس ضد البرتغاليين مقابل نصف عائدات ميناء (جمبرون) أو (بندر عباس) وهناك تأسس فرع للشركة ثم فرع آخر في البصرة عام ١٦٣٥م وما لبثت أن اتحدت الشركات البريطانية عام ١٧٠٨م وأطلق عليها اسم شركة الهند الشرقية الإنجليزية حتى بدأت قوى (هولندية) بالمنافسة لها ولكن الإنجليز هزموها في ١٧٥٩م بالقرب من (جينسورا) وبذلك تفوقت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي بدأت أهدافها الاقتصادية تتحول لأهداف سياسية فاجتاحت القوى الهولندية ثم الفرنسية .

ومما ساعد على تحقيق أهدافها سقوط الأسرة الصفوية على أثر غزو الأفغان لإيران إذ لم تستطع بلاد فارس مقاومة الدول الأجنبية ولكن الشركة انسحبت من (بندر عباس) إلى (البصرة) لتجعلها مركزاً للشركة ثم إلى (الكويت) ثم لتعود إلى (البصرة) وفي هذه الفترة أصبحت للشركة قوة عسكرية بحرية تقاوم بها المناوئين لها من شيوخ وشعوب الخليج باسم مكافحة القرصنة أو تجارة الرقيق وما يضمن لمصالحها الاستعمارية التوسع والاستقرار بينما وقف شيوخ وشعوب الخليج موقف المجاهدين المدافعين عن بلادهم وثرواتها .

وفي الوقت نفسه فقد واجهت الشركة ضغوطاً من التجار والضباط المساهمين والمشرفين على الشركة فتدخلت الحكومة بتشكيل مجلس المندوبين للسيطرة عليها فاستعادت نشاطها بعد عام ١٧٨٤م لتخلف لنا آلاف الوثائق عن الخليج العربي منها : تحت عنوان **I.O.R.G. 29** ومذكرات ويوميات ومراسلات تمتد من ١٧٠٨ - ١٧٦٣م .

وكان الخلاف الذي حدث بين القواسم وحكام عمان قد أضعف كلا من الجانبين ولكنه تحول فيما بعد إلى اصطدام بين القواسم والإنجليز في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بالتعاون مع العمانيين والتقرب من (السلفيين) الذين تربطهم مع (القواسم) علاقة يمليها عليهم الوازع الديني ضد الأجانب من الأوروبيين وحلفائهم من الفرس . ولابد من وقفة حول ما يدعيه البعض عن (الوهابيين) فإن ذلك خطأ تاريخي صححه الدكتور محمد بن سعد الشويعر بعد أن حقق في كثير من المصادر

ودلل على أن المقصود (بالوهابية هو الرستمية الخارجية) التي انتشرت في شمال أفريقيا منذ القرن الثاني الهجري على يد (عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم) وهو فارسي الأصل فنسبت إليه وهي فرقة من فرق الخوارج التي أسسها (عبد الله بن وهب الراسبي) المتوفي عام ٣٨هـ - ٦٥٨م والذي قتل في معركة النهروان لأنه خرج على الإمام علي رضي الله عنه بعد التحكيم أو قد تكون منسوبة إلى آخر . ولقد ظهر (عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم) في مدينة تاهرت ببلاد المغرب حيث أن والده قد أسس الدولة الرستمية في تاهرت بالمغرب فبويع ابنه عبد الوهاب ١٧١هـ ونسبت له فرقة الوهابية الخارجية وأسس الدولة الرستمية في شمال أفريقيا وتوفى عام ٢١١هـ والتي قضى عليها الفاطميون في القرن الثالث الهجري وذلك عام ٢٩٦هـ . أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة السلفية التصحيحية في نجد المولود بالعيينة عام ١١١٥هـ فقد بدأ الدعوة مع الإمام محمد بن سعود في الدرعية منذ عام ١١٥٨هـ ولما كانت معتقدات الرستميين الذين أطلقوا عليها الوهابية وهي تخالف أهل السنة والجماعة وما ثبت في الأحاديث الصحيحة فكانت ممقوتة من أهل المغرب والمشرق . فقد استغل المستعمرون أعداء الإسلام خاصة الأجانب تسميتها بالوهابية ونسبوها للشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الإصلاحية . وهي سابقة لها بنحو عشرة قرون لذا وجب التصحيح[١٤] .

أما (شركة الهند الشرقية الهولندية) فقد انسحبت من (بندر عباس) إلى (خارج) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر رغم مساعداتهم (لنادر شاه) في حربه ضد العمانيين الثائرين إلا أن الهولنديين لم ينجحوا فانسحبوا إلى (خارج) منذ عام ١٧٥٤م وكانت للهولنديين في هذه الفترة علاقات ودية مع العتوب ولابد من ذكر نص أورده الأستاذ (سلوت) وفيه :

(لقد جاء في تقرير هولندي لعام ١٧٥٦م أن مبارك بن صباح الأول ومحمد بن خليفة هما من أهم شيوخ العتوب ورغم أن مبارك كان ينتمي إلى عائلة أكثر (عراقة) وأهم مكانة من نظيره إلا أنه كان حديث السن وفقيراً نسبياً مما جعل محمد بن خليفة الذي كان غنياً ويمتلك عدة مراكب يحظى بسلطة

موازية له) . ويستطرد الأستاذ (سلوت) بقوله : (وفي هذا التقرير عنصران مهمان يتمثل أولهما بآل خليفة الذين يتعاملون بالملاحة ولقد ورد في مصدر إنجليزي معاصر أن ثراءهم قد جعلهم يحظون بعد عشرين سنة ولو مؤقتاً بمنصب شيخ الكويت الرئيسي)[١٥] ولدى الرجوع إلى الأصل الإنجليزي للأستاذ (سلوت) في ص٣٥١ ثم ترجمة ما ورد فيه عن هذا النص في ص٣٤١ وجدنا أن الترجمة ينبغي أن تكون كما يأتي : إن الشيخ مبارك بن صباح ينتمي إلى عائلة ذات (اعتبار واحترام) أي (More prestigious family) وليس كما ترجمت بأن العائلة أكثر (عراقة) فإن العراقة في الإنجليزية هي (Ancient) أو (Original antecedent) وتعني أصيل في نسبه والأصالة أو عراقة الجذور (Original roots) أما (Prestigious family more) فتعني عائلة (أكثر اعتباراً واحتراماً وليس (أكثر عراقة) فكلمة (عرق) في اللغة : أصل والأعرق ذو العرق وذو الأصل فيقال هو أعرق منك[١٦] كما ورد في الأصل الإنجليزي أن هناك عنصران مهمان في هذا المرجع هما :

أولاً : وكما يبدو كان آل خليفة (فرعاً من القبيلة) اهتمت بالملاحة . وهذه الجملة لم ترد في النص العربي للأستاذ (سلوت) لأنها تناقض النص الأول فإذا كان آل خليفة فرعاً من القبيلة التي ينتمي إليها آل صباح لذا فليس أحدهما أكثر عراقة من الآخر .

والملاحظة الثانية لما ورد للأستاذ (سلوت) للنص الإنجليزي وترجمته العربية : أن ثراء آل خليفة قد جعلهم يحظون بعد عشرين سنة ولو مؤقتاً بمنصب شيخ الكويت الرئيسي - أو ترجمة أخرى (أن ثروة آل خليفة بلغت مستوى بحيث أنهم بعد عشرين سنة تولوا مشيخة الكويت أو مكانة الشيخ الكبير للكويت ولو مؤقتاً) . وقد أشار للمصدر برقم (٨٤) ولدى رجوعنا إلى قائمة المراجع في ص٤٤٣ من الترجمة وجدنا أنه يشير إلى المجلد ٢٠٣ من EBD (يوميات البصرة الإنجليزية - English Basrah Diaries) فطلبنا خطياً إرسال صورة للوثيقة التي اعتمدها فأخبرنا مشكوراً أنه اطلع عليها على ميكروفيلم محفوظ لدى سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي في الشارقة وأن الفيلم رديء وأشك - والقول

للأستاذ سلوت - فيما إذا ما أمكن تصوير الوثيقة بصورة مقروءة . ويستطرد بقوله : ويمكنك أن تتصل بالأرشيفات الرسمية في بومباي وتطلب منها تصوير الصفحة المطلوبة أو المجلد كله(١٧) .

واستهل الباحث (في ص٧) وتحت عنوان (صورة للخلفية الاقتصادية) قوله : (إن القصد من التواجد الأوروبي هو التجارة) ثم تكررت ثانية في ص٨ بقوله (بأن معظم الوثائق الواردة من الأوروبيين المتواجدين في الخليج قد تناولت النشاط التجاري بشكل أو بآخر) .

وفي (ص٩) من البحث (كانت نقطة التركيز في سياسة هولندا في الخليج مجرد التجارة وكسب الأموال وكان الشريك التجاري الرئيسي إيران وأما بواسطة تقديم الحوافز أو بممارسة الضغط السياسي أو العسكري حاولت هولندا الحصول على أحسن ظروف تجارية لها . ولما برزت مصلحة هولندية تجارية متقطعة مع البصرة العثمانية استمرت نفس السياسة نحو الحكومة العثمانية هناك وتقدم (نيفهاوزن) وهو من كبار الموظفين لشركة الهند الشرقية الهولندية بنظريات حديثة حول التجارة الحرة فأقام مركزاً عسكرياً قوياً على جزيرة (خارج) كي يجعلها ميناءً حراً لجميع الجنسيات التي مارست التجارة في الخليج وقد فشلت هذه التجربة) .

و (**التعليق**) على ذلك قد أورده الباحث في قوله : حين قدم (نيفهاوزن) نفسه بالاشتراك مع (جان فاندر هلست) مشروعاً (لفتح البحرين) مؤرخ في ١ نوفمبر ١٧٥٤م وجاء في تقريرهما وصف للبحرين وحاكمها أخ الشيخ نصر آل مذكور الذي يملك سفينتين من سفن نادر شاه ولديه حرس مكون من نحو خمسين شخصاً ولا يتجاوز عدد جنوده مائة شخص ويستطرد كاتب التقرير الهولندي وهو مدير شركة الهند الشرقية الهولندية بقوله : فإذا أرسلتم سفينة أخرى وعلى متنها ٢٠٠ ملاح وحوالي ١٥٠ جندياً مع الذخائر فيمكن (فتح البحرين) دون مشقة أو ضحايا . ولقد عرض التقرير على المدير العام وبعد أن تم دراسة مناخ البحرين وعوائدها كمصايد اللؤلؤ فيها وسكانها الذين لا يحبون الحرب ويحبون السلام وأخيراً بعدها عن هولندا فقررت هولندا عدم المغامرة خاصة وأن الدول المجاورة والأوروبية لن يؤيدوا احتلال هولندا للبحرين(١٨) .

وعلى ضوء ذلك فإن هولندا خططت لاحتلال البحرين لكنها عدلت عن خطتها وهذا يدل على أن لها مطامع (سياسية وعسكرية) وليست (تجارية بحتة) وهذا هو شأن الدول الأوروبية الأخرى .

ويستطرد الباحث في ص٩ بقوله (كانت لسياسة بريطانيا نفس الأهداف لسياسة هولندا مع أنه كانت تسودها بعض الخلافات وقبل الستينات من القرن الثامن عشر كانت القوة العسكرية البريطانية في الخليج أقل من قوات هولندا) هذه الفقرة تناقض سابقتها وهي أن سياسة هولندا وبريطانيا مجرد التجارة .

وفي الصفحة العاشرة يذكر الباحث أن الرحالة الإيطالى البندقي (جاسبارو بالي عام ١٥٨٠م) قدم شرحاً تفصيلياً لأساليب الملاحة العربية وصيد اللؤلؤ حين وصف هرمز ووضعها في الخليج العربي ويذكر هذا الكتاب لأول مرة اسم (دبي) .

و (**التعليق**) على ذلك فإن اسم (دبي) قديم في التاريخ .وفي ص١١ قوله : كان من بين (العناصر العربية) من يمارس (حرب العصابات) ضد البرتغاليين والهرمزيين الذين طالبوا بفرض سيطرتهم على التجارة عبر الخليج، ولقد أدى هذا إلى تحالف بين الملاحين العرب وبين الإيرانيين من جهة ضد البرتغاليين غير أنه لم يكن تحالفاً عربياً موحداً ضد البرتغاليين .

التعليق : لا أعلم كيف يمكن وصف (العناصر العربية) الذين يدافعون عن بلادهم ضد الأجانب الذين قدموا إليها من على بعد آلاف الأميال ليسيطروا على ديارهم ويبتزوا خيراتهم كيف يسمون حربهم وهم يدافعون لطرد الأجنبي (بحرب العصابات) . ألا يجدر أن يسميها بـ (حرب غير نظامية مشروعة) (Legal Irregular War). ثم يذكر أن تحالف عرب الخليج لم يكن تحالفاً موحداً ضد البرتغاليين فماذا نسمي إرسال المعونات العسكرية والأفراد الذين لبوا طلب إمام عمان ؟

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما أورده الباحث في ص١٢ وهو يصف طرد البرتغاليين عن هرمز بتحالف الإنجليز مع الإيرانيين في عام ١٦٢٢م ويقول (إن رواية الرحالة الهامة لهذه الفترة هي للرحالة الإيطالي (بيترو ديلا فالي) الذي كان في إيران عام ١٦٢٢م ويتضمن تأليفه

معلومات مشوقة عن - مقاومة العرب للبرتغاليين - خاصة في دبا .

وذكر في (ص١٦) أن الرحالة (نيكولاس دي غراف) الجراح الهولندي هو أول أوروبي ذكر في كتابه جزيرة (طنب) وذلك خلال الفترة ١٦٧٢ - ١٦٧٣م فهل طنب لم تذكر قبل هذا التاريخ؟ الواقع التاريخي يحدثنا أن السيادة العربية على الجزر في الخليج العربي قديمة جداً وتعود إلى بدايات الوجود العربي وكانت مملكة هرمز العربية المستقلة أو ما تسمى (بلاد السواحل والجزائر) تضم جزراً كثيرة يمتلكها سلطان هرمز العربي ومنها طنب وأبو موسى وغيرها[١٩] .

وورد في ص١٨ قوله : واشترى الإيرانيون بعض الجزر التي احتلها العمانيون مقابل مبالغ ضخمة فما هي هذه الجزر ؟ ومتى تم بيعها ويستطرد مباشرة بقوله ومن النقاط المشوقة ذكر تقرير هولندي بأن القبائل العربية للساحل الإيراني أيدت العمانيين . في أي أمر أيدت القبائل العربية العمانيين ؟ هل في بيع بعض الجزر للإيرانيين أم بماذا كان تأييد القبائل العربية للعمانيين ؟

أما فرنسا فقد أسست شركة الهند الشرقية الفرنسية عام ١٦٦٤م بعد ظهور الإنجليز والهولنديين ونشاطهم التجاري ثم السياسي والعسكري في الخليج العربي وإن كان للفرنسيين وجود في أواخر القرن السادس عشر ١٥٩٩م على الساحل الفارسي في عهد الشاه عباس الأول وما يصاحب ذلك من نشاط حركة البعثات التبشيرية منذ بداية القرن السابع عشر بالإضافة إلى الرحالة الفرنسيين وما دونوه من وصف للموانئ في الخليج والأحوال السياسية والاجتماعية فيها ومنهم (هوارت) في كتابه تاريخ العرب، و (رافائيل دومان) في كتابه حالة فارس في عام ١٦٦٠م و (مارتن فرانسوا) في مذكراته للخليج العربي في النصف الثاني من القرن السابع عشر والرحالة (كاريه) و(كوديرو) و(دوبريه) و(جيان) وغيرهم في مذكراتهم التي وصفوا فيها أحوال الخليج العربي ومهدوا للتدخل الفرنسي فنافسوا الإنجليز والهولنديين الذين سبقوهم مستخدمين الرحالة التجار أو المبشرين بثياب رجال الدين وأحياناً التدخل بحجة بناء محطات للماء أو الوقود لسفنهم حتى إذا ما تمكنوا أرسلوا البعثات الدبلوماسية[٢٠] فأسست لها

مركزاً في (بندر عباس) ثم عينت لها قنصلا في البصرة في نهاية القرن السابع عشر ١٦٩٨م عقدت فرنسا اتفاقية مع الدول الكبرى لحماية المنطقة مما يسمونه بالقرصنة وإن كانت تلك الاتفاقية إسمية .

وقد نشر (جين أوتر) القنصل الفرنسي بالبصرة في حوالي ١٧٤٠م كتاباً بعنوان (الأسفار في تركيا وإيران) وفيه أخبار عن (عرب الهوله ودورهم التاريخي في الخليج) ويرى البعض أنه أقدم من أورد إشارة في كتاب مطبوع في أوروبا عن العتوب والهولة الذين تمردوا على طهماسب خان .

ولولا أن بريطانيا دحرت نابليون لحققت فرنسا مخططاتها الاستراتيجية في الخليج العربي واتجهت فرنسا في آخر القرن التاسع عشر نحو مسقط وتعاظم نفوذها إلا أن بريطانيا حافظت على مصالحها في الخليج وقطعت على فرنسا أطماعها ومواصلاتها فاتجهت نحو شرق أفريقيا ويمكن تحديد الفترة بين ١٨٠٧ - ١٨١٠م لانحسار النفوذ الفرنسي عن الخليج العربي وتفوق بريطانيا اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً[٢١] .

وإليك ما ورد في ص٢٣ من البحث للأستاذ (سلوت) عن انسحاب هولندا من جزيرة خارج قوله : "كانت هناك خطط هولندية لتعبئة الجنود من العرب في الخليج لاستخدامهم (كمرتزقة Mercenaries) في آسيا لكنها لم تفلح تلك الخطط الهولندية . كما أن ميناء (خرج) لم يأت بعائدات كافية لتغطية مصاريف احتلال (خرج) فقررت السلطات العليا للشركة التخلي عن جزيرة (خرج) ولكن قبل تنفيذ هذا القرار ورط محافظ (خرج) نفسه في النزاعات المحلية ولم يستطع أن يحافظ على المصالح التجارية إلا بواسطة التحالف مع الإيرانيين وأن رئيس (قبيلة زعب مير مهنا) الذي كان يحارب الإيرانيين قد احتل (جزيرة خرج) وكانت معاملته بصفة عامة مع الهولنديين حسنة فقد سمح لهم بالانصراف إلى بوشهر بدون عائق . وقد وصل خبر سقوط (خرج) في عام ١٧٦٧م إلى القنصل الهولندي في حلب عن طريق الرحالة الدينمركي (كارستن نيبور) والذي زارها وسمع معلومات عنها وطبع كتابة عام ١٧٧٢م .

وتعليقنا على ذلك : إن الهولنديين استأجروا جزيرة (خرج أو خارج) من الأمير (ناصر آل صعب) حاكم ميناء (ريك) أو (بندريج) فاستقر فيها (كنيفاوزن) مدير شركة الهند الشرقية الهولندية ومعه سفينتان وخمسون جندياً وبنى فيها قلعة واستقدم ثمانين عائلة صينية للاستيطان فيها لإنهاء عروبتها بعد إبعاد العرب منها ثم رفض دفع أجرة الجزيرة للأمير ناصر آل صعب وخاف الإنجليز من توسع نفوذ الهولنديين ففاوضوا الأمير ناصر على إقامة مركز لهم في بندر (ريك) فوافق الأمير لكن الأمير مهنا بن ناصر آل صعب) رفض الوجود الأجنبي سواء كان هولندياً أو إنجليزياً أو فارسياً فقام بحركة مناهضة في أواخر عام ١٧٥٤م إذ قتل مهنا والده ناصر وبعض أعوانه وتسلم الحكم فصمم الهولنديون والإنجليز والفرس على إزالته فحرك الهولنديون والفرس أخاه حسين بن ناصر فنحي (مهنا) في بداية عام ١٧٥٥م وسجنه ثم قامت حركة مؤيدة (لمهنا) فقتل فيها الأمير حسين آل صعب وعاد (مهنا) لتولي الإمارة فغادرت الوكالة البريطانية (خرج) إلى بندر عباس وبعد أن تخلص من الإنجليز اتجه إلى الهولنديين فطالبهم بدفع أجرة الجزيرة وانتهت الأزمة إلى صلح عام ١٧٦٥م، إلا أن تحالف (الفرس مع الهولنديين) أدى إلى حرب ضد (الأمير مهنا) انتهت بانتصاره وقتل ٧٠ هولندياً ومائتي فارسي ورحل الهولنديون من جزيرة (خارج) بعد استسلامهم ١٧٦٥م وليس ١٧٦٧م كما أشار الأستاذ سلوت نقلاً عن نيبور . وكانت نهاية الأمير مهنا أن حاصره (الإنجليز بتحالفهم مع الفرس) لمدة شهر وصمموا على (تجويع) سكان خرج حتى استسلموا وفر الأمير مهنا إلى الكويت ثم البصرة فأعدمه الوالي العثماني في مارس ١٧٦٩م . وقد حيكت أساطير والأساطير في اللغة أباطيل لا دليل لها تاريخياً تقول : أن سبب ثورة (الأمير مهنا) على والده والتي أدت إلى مقتل الوالد هو أن الأمير ناصر والد مهنا قد أهدى إلى (كنيفهاوزن) مدير شركة الهند الشرقية الهولندية جارية كان ابنه مهنا يحبها مما أثار غضب مهنا فقتل والده وطرد الهولنديين. إن هذه الأسطورة واهية في التاريخ إذ أن الأسباب الشخصية التافهة تذوب أمام الأسباب السياسية الكبيرة فإن الأمير مهنا كان رجلاً شهماً وكريماً حارب النفوذ الأجنبي عن بلاده وقد قال عنه (أرنولد ويلسن) : هكذا

انتهت حياة أجرأ (إنسان) في الخليج العربي[٢٢] .

لقد قدم الدكتور سلوت بحثاً قيماً لما فيه من إضافات موثقة وإن ملاحظاتنا هذه والتي تقبلها الدكتور مشكوراً برحابة صدر مما يدل على رغبته الصادقة في الوصول إلى الحقيقة التاريخية والله يوفق الجميع لخدمة البحث والباحثين وطلاب العلم .

خلاصة التعليقات

كتب في الصفحة الأولى من بحث (الدكتور سلوت) يقول :

إن عدد المطبوعات المعاصرة للرحالة الأوروبيين قليل جداً - أقل من ٥٠ - لكن الوثائق للقرنين السابع عشر والثامن عشر حول الخليج المتواجدة في الأرشيفات الأوروبية ودور الوثائق ضخمة جداً وتوجد عشرات الآلاف من الوثائق الهولندية والآلاف من الوثائق الإنجليزية ومئات من الوثائق البرتغالية والفرنسية لكن حجم المواد ذات اهتمامنا وذات صلة بالخليج قليل جداً وخاصة بخصوص المواد الرسمية الهولندية التي رغم ضخامتها حجماً تركز أساساً على تجارة الشركة الهولندية ولا تغطي أكثر من ١٠٪ من هذه المواد أموراً أخرى[٢٣] .

والتعليق على ما ورد أعلاه في الصفحة الأولى من البحث :

لاشك أن كتب الرحالة (الأوروبيين) التي كتبت عن الخليج العربي أكثر من خمسين وقد ختمنا بحثنا بأسماء بعضهم وعناوين كتبهم أو بحوثهم في الصفحات التالية من بحثنا هذا تحت عنوان (ومن كتب الرحالة) .

ثم يذكر الآلاف من الوثائق الإنجليزية والمئات من الوثائق البرتغالية والفرنسية وهذا يحتاج إلى دقة أكثر . فلو راجعنا ما ورد في كتاب (دور السجلات الهندية) وما تصدره (أركايف أدشن) بين حين وآخر من صور الوثائق التي تملأ مجلدات وكذلك ما دونته (بنلوب توسون) في كشافها المنعوت بـ (سجلات القيميات البريطانية والمعتمدين في الخليج) والمطبوع في لندن عام ١٩٧٩م لوجدنا أن الوثائق الإنجليزية تعد بأكثر من

الآلاف وأن الأرشيف الهندي في بومباي فقط يضم ٨٩ ألف مجلد و٣٠٠ ألـف إضبـارة . ومثل ذلك الوثائق الفرنسية والبرتغالية .

وورد في ص٦ من البحث . أسلوب المورفولوجي وفسرها بأنها تعـني (معرفـة أنـواع الوثـائق وأسـهل المصادر هـي قصص الأسـفار المطبوعـة أو المكتوبـة بخـط اليد لكافـة الجنسيات .

والتعليق هو :

(أسلوب المورفولوجي Morphological Way) في القاموس أن المورفولوجي هو (فرع من علم الأحياء يبحث في شكل الحيوانات والنباتات وبيئتها كما تعني : دراسة في بيئة شيء أو شكله . لا معرفة أنواع الوثائق(٢٤) .

ثم قوله :تفتقر الوثائق العثمانية إلى معلومات عن الخليج وأن سرد الأحداث في المصادر العثمانية أيضاً تركز على الأحداث الهامة التي شهدتـها الإمبراطوريـة العثمانيـة وعلى كل قد جاء وصف لبعض الوثائق العثمانية . **وتعليقنا** على ذلك فإن ما كتب عن دول الخليج العربي في الوثائق العثمانية يضم الآلاف منـها ولـدى الأمانـة العامـة لمراكـز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية أكثر من أحد عشر ألف وثيقة تحكي تاريخ المنطقة .

ونوع آخر هو يوميات كتبتها المؤسسـات الهولنديـة في بنـدر عبـاس والبصرة حـول الأحداث المحلية . وأنها تغطي فترة قصيرة . ومن نوع مماثل يوجد سرد لأحداث كهنة الكرمل في البصرة . وقد أعد الهولنديون نصوصاً وصفية وتقارير كاملة رسمية عن خلفيـة مصالحهم في الخليج وهي من أهم المصادر الأوروبية(٢٥) .

واستهل الباحث في (ص٧) وتحت عنوان (صورة للخلفية الاقتصاديـة) قولـه : (إن القصد من التواجد الأوروبي هو التجارة) ثم تكـررت ثانيـة في (ص٨) بقولـه (بـأن معظم الوثائق الواردة من الأوروبيين المتواجدين في الخليج قد تناولت النشاط التجاري بشكل أو بآخر) .

وفي (ص٩) من البحث كـانت نقطـة التركيز في سياسـة هولنـدا في الخليـج مجـرد التجارة وكسب الأموال وكان الشريك التجاري الرئيسي إيران إما بواسطة تقديم الحوافـز

أو بممارسة الضغط السياسي أو العسكري حاولت هولندا الحصول على أحسن ظروف تجارية لها)[٢٦] .

والتعليق على ذلك أورده الباحث في قوله : حين قدم (نيفاوزن) نفسه بالاشتراك مع (جان فاندر هلست) مشروعاً لفتح (البحرين) مؤرخ في ١ نوفمبر ١٧٥٤م وجاء في تقريرهما وصف للبحرين وحاكمها أخ الشيخ نصر آل مذكور الذي يملك سفينتين من سفن نادر شاه ولديه حرس مكون من نحو خمسين شخصاً ولا يتجاوز عدد جنوده مائة شخص . ويستطرد كاتب التقرير الهولندي وهو مدير شركة الهند الشرقية الهولندية بقوله : فإذا أرسلتم سفينة أخرى وعلى متنها مائتي ملاح وحوالي ١٥٠ جندياً مع الذخائر فيمكن (فتح البحرين) دون مشقة أو ضحايا .

وتعليقنا على ضوء ذلك فإن هولندا خططت لاحتلال البحرين لكنها عدلت عن خطتها وهذا يدل على أن لها مطامع (سياسية وعسكرية) وليست (تجارية بحتة) وهذا هو شأن الدول الأوروبية الأخرى .

ويستطرد الباحث في (ص٩) بقوله : كانت لسياسة بريطانيا نفس الأهداف لسياسة هولندا مع أنه كانت تسودها بعض الخلافات وقبل الستينات من القرن الثامن عشر كانت القوة العسكرية البريطانية في الخليج أقل من قوات هولندا) هذه الفقرة تناقض سابقتها التي تقول : إن سياسة هولندا وبريطانيا مجرد التجارة .

وفي (ص١١) قوله : كان من بين (العناصر العربية) من يمارس (حرب العصابات) ضد البرتغاليين والهرمزيين الذين طالبوا بفرض سيطرتهم على التجارة عبر الخليج، ولقد أدى هذا إلى تحالف بين الملاحين العرب وبين الإيرانيين من جهة ضد البرتغاليين غير أنه لم يكن تحالفاً عربياً موحدا ضد البرتغاليين .

التعليق : لا أعلم كيف يمكن وصف (العناصر العربية) الذين يدافعون عن بلادهم ضد الأجانب الذين قدموا إليها من على بعد آلاف الأميال ليسيطروا على ديارهم ويبتزوا خيراتهم كيف يسمون حربهم وهم يدافعون لطرد الأجنبي (بحرب العصابات) . ألا يجدر أن يسميها بـ (حرب غير نظامية مشروعة Legal Irregular War) . ثم يذكر أن تحالف عرب الخليج لم يكن تحالفاً موحداً ضد البرتغاليين . إذن فماذا تسمي إرسال

المعونات العسكرية والأفراد الذين لبوا طلب إمام عمان ؟ أليس ذلك تحالفاً موحداً ضد البرتغاليين أدى إلى اندحار البرتغاليين عن الخليج إلى حيث لا رجعة(٢٧) .

وكتب الباحث قوله : كان العتوب في ذلك الوقت يشكلون على ما يبدو اتحاداً يحكمه عدة شيوخ . وقد جاء في التقرير الهولندي لعام ١٧٥٦م أن (مبارك بن صباح) و (محمد بن خليفة) هما أهم شيوخهم . ورغم أن مبارك كان ينتمي إلى عائلة أكثر عراقة وأهم مكانة من نظيره، إلا أنه كان حديث السن وفقيراً نسبياً مما جعل محمد بن خليفة الذي كان غنياً ويمتلك عدة مراكب، يحظى بسلطة موازية له .

في هذا التقرير عنصران مهمان يتمثل أولهما بآل خليفة الذين يتعاملون بالملاحة . ولقد ورد في مصدر إنجليزي معاصر أن ثراءهم قد جعلهم يحظون بعد عشرين سنة - ولو مؤقتاً - بمنصب شيخ الكويت الرئيسي . وقد كانت هجرة آل خليفة وأتباعهم، مع سفنهم، إلى الزبارة وإلى جزيرة البحرين الغنية، نتيجة منطقية لذلك .

أما الترجمة ينبغي أن تكون كما يأتي : إن الشيخ مبارك بن صباح ينتمي إلى عائلة ذات (اعتبار واحترام) أي (More Prestigious Family)وليس كما ترجمت بأن العائلة أكثر (عراقة) فإن العراقة في الإنجليزية هي (Ancient) أو (Original Antecedent) وتعني أصيل في نسبه والأصالة أو عراقة الجذور (Original Roots) أما (More Prestigious Family) فتعني عائلة (أكثر اعتباراً واحتراماً وليس (أكثر عراقة) فكلمة (عرق) في اللغة : أصل والأعرق ذو العرق وذو الأصل فيقال هو أعرق منك في كذا أي أأصل منك . كما ورد في الأصل الإنجليزي أن هناك عنصران مهمان في هذا المرجع هما :

أولاً : وكما يبدو كان آل خليفة (فرعاً من القبيلة) اهتمت بالملاحة . وهذه الجملة لم ترد في النص العربي للأستاذ (سلوت) لأنها تناقض النص الأول فإذا كان آل خليفة فرعاً من القبيلة التي ينتمي إليها آل صباح لذا فليس أحدهما أكثر عراقة من الآخر .

والملاحظة الثانية : لما ورد للأستاذ (سلوت) للنص الإنجليزي وترجمته العربية : أن ثراء آل خليفة قد جعلهم يحظون بعد عشرين سنة ولو مؤقتاً بمنصب شيخ الكويت الرئيسي - أو ترجمة أخرى (أن ثروة آل خليفة بلغت مستوى بحيث أنهم بعد عشرين سنة تولوا مشيخة الكويت أو مكانة الشيخ الكبير للكويت ولو مؤقتاً) . وقد أشار للمصدر

برقم (٨٤) ولدى رجوعنا إلى قائمة المراجع في ص٤٤٣ من الترجمة وجدنا أنه يشير إلى المجلد ٢٠٣ من EBD (يوميات البصرة الإنجليزية – English Basrah Diaries) فطلبنا خطياً إرسال صورة للوثيقة التي اعتمدها فأخبرنا مشكوراً أنه اطلع عليها على ميكروفيلم محفوظ لدى سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي في الشارقة وأن الفيلم رديء وأشك – والقول للأستاذ سلوت – فيما إذا ما أمكن تصوير الوثيقة بصورة مقروءة. ويستطرد بقوله : ويمكنك أن تتصل بالأرشيفات الرسمية في بومباي وتطلب منها تصوير الصفحة المطلوبة أو المجلد كله[٢٨] .

وورد في (ص١٤) من البحث قوله :

وفي هذه الأثناء قد تعرض البرتغاليون لضغط متزايد من عرب عمان ولم تنفع السلسلة من التحصينات التي كان قد أنشأها (روي فرير) وفي كل وحدة منها حوالي ٢٥ حارساً . وتوجد تسجيلات في أرشيفات (روما) لمحاولات فاشلة لاستيطان اللاجئين الصابئة من شمال الخليج إلى (دبا) .

وتوجد تفاسير مفصلة للانهيار النهائي للبرتغاليين لسنة ١٦٤٨م في الأرشيفات البرتغالية إلا أن هذه الوثائق لا تكشف لنا كثيراً عن أحوال الخليج لأنها تلقي النظر على المناقشات البرتغالية الداخلية عن حماية مواقعهم في عمان وعن سقوط عدة قلاع برتغالية . وطرح حل لتسوية النزاع وبموجبه يستسلم البرتغاليون بدبا مقابل اعتراف بحكمهم على مسقط . وعلى كل إن الاتفاقية التي ناقشها الشيخ القاسمي ككبير المفاوضين فشلت كأنها لم تكن واستمرت الحرب واحتل العرب مسقط في أواخر ١٦٥٠م ولدينا ثبوت مباشر لهذا الحادث لقديس كاثوليكي في عمان وهذه الوثيقة محفوظة في أرشيفات روما .

التعليق : ربما أن الباحث يعني الإمام (ناصر بن مرشد) إمام عمان وليس الشيخ (القاسمي)[٢٩] .

وورد في (ص١٨) قوله : واشترى الإيرانيون بعض الجزر التي احتلها العمانيون مقابل مبالغ ضخمة . فما هي تلك الجزر ؟ ومتى تم بيعها ؟

ويستطرد الباحث مباشرة بقوله : ومن النقاط المشوقة ذكر تقرير هولندي بأن القبائل العربية للساحل الإيراني أيدت العمانيين . . . ففي أي أمر أيدت القبائل العربية العمانيين ؟[٣٠] .

أما نص كاتب البحث في (ص٢٣) حول انسحاب هولندا من جزيرة خارج قوله : كانت هناك خطط هولندية لتعبئة الجنود من العرب في الخليج لاستخدامهم (كمرتزقة Mercenaries) في آسيا لكنها لم تفلح تلك الخطط الهولندية . كما أن ميناء (خرج) لم يأت بعائدات كافية لتغطية مصاريف احتلال (خرج) فقررت السلطات العليا للشركة التخلي عن جزيرة (خرج) ولكن قبل تنفيذ هذا القرار ورط محافظ (خرج) نفسه في النزاعات المحلية ولم يستطع أن يحافظ على المصالح التجارية إلا بواسطة التحالف مع الإيرانيين وأن رئيس (قبيلة زعب مير مهنا) الذي كان يحارب الإيرانيين قد احتل (جزيرة خرج) وكانت معاملته بصفة عامة مع الهولنديين حسنة فقد سمح لهم بالانصراف إلى بوشهر بدون عائق . وقد وصل خبر سقوط (خرج) في عام ١٧٦٧م إلى القنصل الهولندي في حلب عن طريق الرحالة الدانمركي (كارستن نيبور) والذي زارها وسمع معلومات عنها وطبع كتابة عام ١٧٧٢م .

وتعليقنا على ذلك : أن الهولنديين استأجروا جزيرة (خرج أو خارج) من الأمير (ناصر آل صعب) حاكم ميناء (ريك) أو (بندريج) فاستقر فيها (كنيفاوزن) مدير شركة الهند الشرقية الهولندية ومعه سفينتان وخمسون جندياً وبنى فيها قلعة واستقدم ثمانين عائلة صينية للاستيطان فيها لإنهاء عروبتها بعد إبعاد العرب منها ثم رفض دفع أجرة الجزيرة للأمير ناصر آل صعب وخاف الإنجليز من توسع نفوذ الهولنديين ففاوضوا الأمير ناصر على إقامة مركز لهم في بندر (ريك) فوافق الأمير لكن الأمير مهنا بن ناصر آل صعب) رفض الوجود الأجنبي سواء كان هولندياً أو إنجليزياً أو فارسياً فقام بحركة مناهضة في أواخر عام ١٧٥٤م إذ قتل مهنا والده ناصر وبعض أعوانه وتسلم الحكم وفي ١٧٦٥م رحل الهولنديون بعد انتصار الأمير مهنا عليهم[٣١] وليس كما ذكر الباحث أن تحالفاً بين الإنجليز والفرس أدى إلى نهاية الأمير مهنا .

الدكتور : علي أبا حسين / البحرين

المراجع

١ - **أباحسين**، د.علي، تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، طبع مكة المكرمة ١٩٦٦م .

٢ - **التدمري**، أحمد جلال، الجزر العربية الثلاث، دراسة وثائقية طبع في رأس الخيمة .

٣ - **توسن**، بنيلوب، سجلات المقيميات البريطانية والمعتمدين في الخليج، طبع لندن ١٩٧٩م .

٤ - **الحلو**، د. صادق ياسين، الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية، الوثيقة العدد ٢٦، يوليو ١٩٩٤م .

٥ - **الحيدري**، إبراهيم فصيح صنعة الله، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد وبصرة ونجد (مخطوط) .

٦ - **الخصوصي**، د. بدر الدين عباس، دراسات في تاريخ الخليج العربي، الجزء الأول، الكويت، ١٩٧٨م .

٧ - **الخطيب**، د. مصطفى عقيل، التنافس الدولي في الخليج العربي، ١٦٢٢ - ١٧٦٣م . طبع مصر ١٩٨١م، والمقدمة للدكتور صلاح العقاد .

٨ - **زهدي**، سمور، تاريخ ساحل عمان السياسي، الجزء الأول طبع الكويت .

٩ - **زامباور**، معجم الأسرات الحاكمة، طبع بيروت، ١٩٨٠م .

١٠ - **السالمي**، نور الدين عبد الله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، الجزء الأول والثاني طبع في مطرح، ١٩٨١م .

١١ - **سلوت**، ب.ج. ، عرب الخليج، ترجمة عايدة خوري، ط١، أبوظبي ١٩٩٣م من إصدارات المجمع الثقافي .

١٢ - **الشويعر**، د. محمد بن سعد. تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، طبع الرياض، ١٩٩٣م .

١٣ - **الطائي**، عبد الله محمد، الشراع الكبير، ط ١، طبع روي، ١٩٨١م .

١٤ - **العابد**، د. صالح محمد، دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠م، ط ١، بغداد ١٩٧٨م .

موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠م، مراجعة جليل كمال الدين، بغداد، ١٩٧٩م .

١٥ - **العابد**، د. فؤاد سعيد، سياسة بريطانيا في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، طبع الكويت، ١٩٨١م .

١٦ - **العقاد**، التيارات السياسية في الخليج العربي، طبع روى، ١٩٨١م .

١٧ - **فهمي**، د. عبد القوي فهمي محمد، القواسم، طبع رأس الخيمة، ١٩٨١م .

١٨ - **لوريمر**، دليل الخليج، الجزء الأول، القسم التاريخي والجغرافي، ١٩١٥م .

١٩ - **المنجد**، قاموس، مادة (عرق) ط ٢٤ و٢٦ .

٢٠ - **المورد**، قاموس، مادة (Prestigious) .

٢١ - **د.النجار ود. أبو مغلي** . جزيرة خارج . ط ١ . بغداد

٢٢ - **الوحيدي**، حسين الوحيدي الخنجي العباسي، تاريخ لنجه، ط ١ ، دبي، ١٩٨٥م .

الدوريات :

١ - دراسات الخليج والجزيرة العربية :

◆ **العدد ٥**، شركة الهند الشرقية الإنجليزية، د. مصطفى النجار، يوليو ١٩٧٨م

◆ **العدد ٧**، العلاقات الاقتصادية بين فرنسا والخليج العربي، د. محمد علي الفراء، يوليو، ١٩٧٦م .

◆ **العدد ٧**، دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠م، د. صالح محمد العابد، مراجعة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ١٩٧٩م .

◆ **العدد ١٤**، إيضاح المعالم في تاريخ القواسم، لسالم بن حمود السيابي، مراجعة د. نجاة عبد القادر، إبريل ١٩٧٨م .

◆ **العدد ١٥**، شركة الهند الشرقية الإنجليزية، د. مصطفى النجار، يوليو ١٩٧٨م .

◆ **العدد ٣٦**، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠م، د. صالح العابد، مراجعة د. جليل كمال الدين، أكتوبر ١٩٨٣م .

◆ **العدد ٣٧**، مقاومة العمانيين للحملات الإيرانية على بلادهم ١٧٣٧ - ١٧٤٤م، د. طارق الحمداني، يناير ١٩٨٤م .

◆ **العدد ٥٨**، طريق بصرة - حلب للقوافل التجارية كما وصفها الرحالة الأوربيون في العصر الحديث، د. فلاح عبد الحسين ومصطفى عباس جعفر، إبريل ١٩٨٩م .

٢ - **المجلة الثقافية**، العدد ٣١، الجامعة الأردنية، يناير ١٩٨١م .

٣ - **مجلة العربي**، العدد ٢٧٧، ديسمبر ١٩٨١م .

٤ - **وثائق وتقارير هولندية وإنجليزية** .

٥ - **الوثيقة** :

◆ **العدد ٣**، الجبور عربان الشرق، د. علي أباحسين، يوليو ١٩٨٣م .

◆ **العدد ١١**، التواجد الهولندي في الخليج، د. سلوت، يوليو ١٩٨٧م .

◆ **العدد ١٥**، صفحات من تاريخ البحرين خلال الوثائق العثمانية، د. علي أباحسين، يوليو ١٩٨٩م .

◆ **العدد ١٧**، مكانة الساحل العربي للخليج في الخرائط الأوروبية من القرن ١٧ - ١٩، د. حسام الخادم، يوليو ١٩٩٠م .

◆ **العدد ٢١**، البحرين كما يراها الرحالة الغربيون، د. علـي أباحسين، يوليو ١٩٩٢م .

◆ **العدد ٢٦**، محاولات ألمانيا في التسلل إلى الخليج العربي، د. رولف جانج كولر، يوليو ١٩٩٤م .

◆ **العدد ٢٦**، الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية، د. صادق ياسين الحلو، يوليو ١٩٩٤م .

◆ **العدد ٢٩**، الحملة العثمانية على شرق الجزيرة العربية ودورها في تشكيل القوى السياسية في المنطقة، فايق حمدي طهبوب، يناير ١٩٩٦م .

ومن كتب الرحالة :

◆ **أباكاري**، من أسفار أباكاري في الهند والشرق الأدنى من ١٦٧٢ – ١٦٧٤م، ط ٢ (بالإنجليزية)، وصف مجلس الشيخ زايد بالقرب من ميناء كونك .

◆ **بروكس**، رحلة بحرية في الخليج، في ١٨٢٩م .

◆ **بكنجهام**، الأسفار إلى بلاد الرافدين، ١٨٢٨م (بالإنجليزية) .

◆ **بوركهاردت**، ١٨١٠م، سمى اسمه الشيخ إبراهيم المسلم، أصدر كتابه (ملاحظات عن البدو والوهابيين) .

◆ **بيدرو تكسيرا**، يهودي برتغالي يتظاهر بأنه مسيحي كاثوليكي، رحل إلى مسقط ١٥٨٧م .

◆ **جيمس هورسبيرغ**، مرشد السفن للأسفار من وإلى جزر الهند الشرقية، طبع لندن ١٨٢٦م (بالإنجليزية) .

◆ **تانيير**، ١٨١٧م .

◆ **تنويرو**، رحالة برتغالي يهودي بقي في هرمز خمس سنوات من ١٥٢٠م .

◆ **تورنيه**، ستة أسفار في ١٦٤٣م .

◆ **دود**، مقتطفات من التقارير الهولندية، كان مع سافاج مدير شركة الهند الشرقية الهولندية، وكتب إلى لندن حول عزم هولندا احتلال البحرين عام ١٧٥٤م .

◆ **جين أوتر**، ١٧٤٠م، قنصل فرنسا .

◆ **دوارتي باربوروسا**، برتغالي ١٥١٨م .

◆ **سادلير**، مذكرات عن رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م، طبع بومباي ١٨٦٦م . ترجمة أنس الرفاعي .

◆ **ستزن**، ١٨٠٢م، كتب عن عنزه وعاش ثلاثين عاماً بينهم . مستشار لإحدى الإمارات الألمانية التابعة وقتئذ لقيصر روسيا، ومات مسموماً في اليمن .

◆ **سترايس**، سائح هولندي ١٧٤٧م .

◆ **علي بك العباسي**، أسباني واسمه دومينجو باديا ليبليش، وهو جاسوس للإمبراطور نابليون الثالث الفرنسي، وكان يريد منه أن يعرف موقف مسلمي الشرق الأدنى من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما وصف مكة والمشاعر في ١٨٠١، وعاد إلى مكة١٨١٨م كما وصف دخول الجيوش إلى الدرعية وعلى رأسهم الإمام سعود .

◆ **الفاريز**، رحالة برتغالي توجه إلى الخليج العربي عام ١٥٢٦م ووصف مسقط وهرمز .

◆ **لوردويسو فاتيما**، رحل من ١٥٠٣ - ١٥٠٨م .

◆ **مانوئيل غودينهو**، برتغالي رحل في طريقه إلى الهند عبر الخليج العربي ووصف بعض موانيه مثل هرمز وجمبرون وكنج والبصرة .

◆ **نيبور**، رحلة في بلاد العرب، كتب عن الساحل الفارسي ١٧٥٩ - ١٧٦٥م .

◆ **ولستد**، الأسفار إلى مدينة الخلفاء عبر الخليج والبحر المتوسط، طبع لندن ١٨٤٠م (بالإنجليزية) .

◆ **هيوجين فان لنشوتن**، رحالة هولندي وصف الطريق من لشبونة إلى الشرق في فترة ما بين ١٥٨٣ - ١٥٩٢م .

◆ **والان أوغوسطين**، فنلندي أرسله محمد علي باشا ليشتري خيولاً من نجد وليستطلع أحوال جبل شمر، وهرمز وذكر أن جزر نخيلو وريق وغيرهما (مأهولة بالعرب) .

وهذه مقتطفات من التقارير الهولندية ١٧٥٤م :

أن تاجراً اسمه مستر (دود) كان مع (سافاج) و(نيفهاوزن) مدير شركة الهند الشرقية الهولندية في جمبرون (بندر عباس) . وكان مستر (دود) يقوم بزيارات إلى بوشهر وبندريج وكنكون (للتجسس) خلال فترة ستة أشهر . وقد كتب إلى لندن حول عزم هولندا احتلال البحرين وأن مدير شركة الهند الشرقية الهولندية (سافاج) قدم تقريراً حول ذلك وأن العرب متشاجرون فيما بينهم ومراكبهم ضعيفة يمكن إغراقها بسهولة . ولكل قرية شيخ وأقواهم لا يستطيع تعبئة أكثر من ٤٠٠ جندي ، وإمام مسقط ضعيف وينقصه المال ولا يطيعه الناس حتى في بلده وليس لديه إلا سفينة يستخدمها لجلب الرقيق من أفريقيا وليس للحرب . وفي البحرين لم يبق إلا سفينتين من بقايا السفن في عهد نادر شاه وهي غير صالحة للملاحة .

وفي فارس بعد وفاة نادر شاه ١٧٤٧م/١١٦٠هـ ووفاة (قلي خان) ظهر عدد كبير من الحكام لكل قرية ومدينة .

ورحالة ذكرهم كيلي في كتابه بريطانيا والخليج :

◆ رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، مجلدان، طبعة لندن ١٨٢٩م، بقلم بكنجهام .

◆ رحلة من الهند في اتجاه إنجلترا خلال عام ١٧٩٧م، بقلم جي. جاكسون، طبعة لندن ١٧٩٩م .

◆ ملاحظات لعمليات مسح للسواحل الشرقية للخليج في عــام ١٨٢٨م، نشـر في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد الخامس ١٨٣٥م .

◆ ملاحظات عن رحلة من غـزة عـبر المنطقـة الداخليـة مـن شبـه الجزيـرة إلى القطيف على الخليج العربي ومنها إلى عمان عام ١٨٦٢ -١٨٦٣م، نشر في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلـد الثـامن ١٨٦٣ - ١٨٦٤م، بقلـم دبليـو جـي بالجريف .

◆ ملاحظات عن رحلة إلى أواسط وشرق وجنوب الجزيرة خلال عـامي ١٨٦٢ - ١٨٦٣م، نشر في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية عـدد ٣٤ ١٨٦٤م، بقلـم دبليـو جي بالجريف . ورحلة أخـرى تقـع في مجلديـن طبعـة ١٨٦٥م، لنفس المؤلـف والعنوان .

◆ رحلات في شبه الجزيرة العربية، مجلدان، طبع لندن ١٨٣٨م بقلم اللفتنانت جي.آر. ولستد .

◆ بيانات عن رحلة إلى عمـان علـى امتـداد السـاحل الشرقـي لشبـه الجزيـرة، مترجم، نشر في مجلة جمعية بومباي الجغرافية، بقلم إف. وايتلوك .

◆ وصف تصويري لجزر السـاحل الواقـع عنـد مدخـل الخليـج، نشـر في مجلـة الجمعية الجغرافية الملكية ١٨٣٨م، بقلم إف. وايتلوك .

◆ مذكرة تتناول مصايد اللؤلؤ في الخليج، بقلم الميجر دي ويلسن، نشر في مجلـة الجمعية الجغرافية الملكية ١٨٣٣م .

الهوامش

١ - بدعوة من (مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي) للمشاركة في ندوة بعنوان (كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي) بكتابة تعليقات عن موضوع (مرحلة التنافس الأوروبي بين ١٦٥٠ - ١٨٠٠م) وقد عقدت الندوة في الفترة بين ٨ - ١١ إبريل ١٩٩٦م وقدمنا هذا البحث والتعليق على الموضوع المطلوب .

٢ - سلوت، عرب الخليج، ص٨٨ .

٣ - الوثيقة، العدد ١/ص١٣٩ صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي، د. علي أباحسين، ١٩٨٢م موغول محمد يعقوب، السياسة العثمانية في المحيط الهندي في عهد القانوني بين ١٥١٧ - ١٥٣٨م، استنبول ١٩٧٤م، والأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي، ص٢٥ و ٢٦ ووثيقة احتجاج السلطان دان جوان البرتغالي برقم ٩٢٢ . والشراع الكبير ص٣٦ .

٤ - توفي الإمام ناصر بن مرشد بنزوي عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م ودامت إمامته ٢٦ عاماً وخلفه سلطان بن سيف بن مالك ثاني أئمة اليعاربة في عمان والذي استطاع طرد البرتغاليين وفقدوا في عهده مسقط في٢٣ يناير ١٦٥٠م وهاجم مراكزهم في الهند وشرق أفريقية . وتوفى عام ١٠٩١هـ/١٦٨٠م . أنظر دليل أعلام عمان ص٨٠ . والسالمي، تحفة الأعيان جـ ٢ . ص٣ . والخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي جـ ١، ص٣٤ .

٥ - المحمدية في الأحساء تساوي ربع قرش ذهبي أو واحد من عشرين من الريال . والريال يساوي عشر الليرة العثمانية الذهب والروبية تساوي خمسة قروش ونصف القرش الذهبي . والمحمدية في عمان تختلف عنها في الأحساء . أنظر لوريمر . دليل الخليج، القسم الجغرافي ص٢٤٦ . والطائي، عبد الله بن محمد . الشراع الكبير ص٣٥ و ٤٣ .

٦ - الطائي، عبد الله محمد . الشراع الكبير . ص٣٥ و٧٠ و٨٠ و٩١ و٩٢ و١٣٠ . والخصوصي جـ ١ . ص٣٣ . والعربي، العدد ٢٧٧ ديسمبر ١٩٨١م .

٧ - الوثيقة، العدد ٢٦ . ص٥٨، عن وزارة الخارجية الفرنسية . بحوث ووثائق فارس، الجزء الثامن .

٨ - ن.م.س. ص٦٩ عن تاريخ العرب . جـ ٢ . طبع باريس ١٩١٣م .

٩ - العابد، ص٢٧ و ٢٨ .

١٠ - ن.م.س. ص١٩ وص٦٤ -٦٧ والسيابي، سالم بن حمود، إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ص٤١ . وعبد القوي، فهمي محمد، القواسم ص٣٥ .

١١ - دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ١٥، ص١٠١ - ١٠٣، د. مصطفى النجار .

١٢ - الوثيقة، العدد ١٥/ص٦٤، صفحات من تاريخ البحرين خلال الوثائق العثمانية للدكتور علي أباحسين .

١٣ - دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ٧/ص١٨٢، د. العابد .

١٤ - ن.م.س. العدد ١٥، ص١٠١ - ١٠٥ والعدد ١٤، ص١٣١ والعدد ٥/ص١٠٦ . والدكتور الشويعر، محمد بن سعد، تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية ص٢٧ - ٣٢ .

١٥ - سلوت، عرب الخليج، ص٣٤١ المترجم . وفي ص٣٥١ النص الإنجليزي نقلاً عن E.B.D. Vol. 293. P. 153 .

١٦ - المنجد، مادة (عرق) ص٥٠٠ و ٥٠١، ط٢٤ . والمورد، ص٧٢١ .

١٧ - رسالة مرسلة إلى الأستاذ سلوت بتاريخ ١٤ مايو ١٩٩٤م وجوابها بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٩٤م .

١٨ - في.أو.إس. رقم ٢٨٦٤/ص٣٢ تسلسل ٧١ في ١/نوفمبر ١٧٥٤م . وفي ٨ يناير ١٧٥٥م/ وتقرير برقم ٢٨٤٨ ص٦٧ في ٧/ أغسطس ١٧٥٥م .

١٩ - التدمري، ص٣٤ .

٢٠ - الوثيقة ٢٦/ ص ٥٦ - ٨٢ و د. مصطفى عقيل ص٢٤٦ - ٢٥٦ دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٧ / ص١١١ .

٢١ - دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٧ / ص١١١ يوليو ١٩٧٦م . العدد ٣٦ / ص٢٩٥ أكتوبر ١٩٨٢م، ولوريمر، دليل الخليج ١ /١١٣ . القسم التاريخي، وجين أوتر، الأسفار في تركيا وإيران ص٥٦ و ٥٨ .

٢٢ - د. النجار و د. أبو مغلي . جزيرة خارج، ص٣٨ و ٤٤ و ١١٦ .

٢٣ - وهذا نص الباحث :

The number of contemporary printed books of European travellers is limited, less than fifty, but the amount of documents of the seventeenth and eighteenth centuries concerning the Gulf in European archives and manuscript libraries is huge. There are tens of thousands of Dutch documents, many thousands of English and hundreds of Portuguese and French documents. The density of the material interesting for our subject in the huge number of documents concerning the Gulf can be rather low. This is especially the case with the Dutch official material which is huge is size, but tends to concentrate on the trade of the Dutch Company in the Gulf, and less than 10% of the material is about other matters.

٢٤ - أنظر المورد ص٥٩٣ ط ١٢ / بيروت ١٩٧٨م .

٢٥ - وهذا نص الباحث :

Ottoman narrative sources are also very much concentrated on the great events of the Ottoman Empire, but some Ottoman archival documents have been described.[11]

Another way of looking at the source material is the morphological way: what kinds of documents do we have. The easiest source are the travel descriptions, either printed or manuscript which survive of several nations. Another category are the diaries produced by the Dutch establishments of Bandar Abbas and Basra on local events. They only exist now for certain limited periods. Of a related kind is the chronicle of the Carmelite monks in Basra. The Dutch produced some descriptive texts, full official reports concerning the background of their interests in the Gulf which belong to the most important European sources, and an

٢٦ – وهذا نص الباحث :

B. ECONOMIC BACKGROUND PICTURE

The motive of European presence was trade. Trade was not the entire economy of the Gulf, but its cash value exceeded all other economic activities in the mountain deserts and sand deserts which cover the coasts of the Gulf. The only other economic activity which was of considerable importance was pearling. It should however be stated that

the Europeans usually had only a minor share of the trade of the Gulf, a few accidental sources indicate that during the seventeenth and most of the eighteenth century people from India and Arab sailors had a larger share. Anyhow, as trade was the main motive of European presence, most of the documents coming from Europeans present in the Gulf have something to do with the conduct of trading activities. The reason why the very few colonial ventures in the Gulf are stopped was because they were counterproductive in trading terms.

Dutch policy in the Gulf had only one focus: trade and earning of money. The main trading partner was Persia, and either by offering

٢٧ – وهذا نص الباحث :

There had always been a guerilla of Arab elements against the Portuguese-Hormuzian claim of controlling the trade through the Gulf and this produced an alliance of Arab sailors with the Persians against the Portuguese. It was however not so that there was a united Arab front against the Portuguese. Several tribes were willing to cooperate

٢٨ - وهذا نص الباحث :

from extending their presence beyond the Upper Gulf. At that time, the Utub seem to have been a federation, ruled by several shaikhs. The Dutch report of 1756 states that at that time the two most important Shaikhs of the Utub were Mubarak bin Sabah and Muhammad bin Khalifa. Mubarak belonged to the more prestigious family, but he was still young and rather poor, so that Muhammad bin Khalifa, who was rich and possessed many ships, had an authority equal to Mubarak. There are two important elements in this reference. The first is that apparently, the Al Khalifa were the shipping branch of the tribe. In fact, their wealth was such that twenty years afterwards, according to a contemporary English reference, an Al Khalifa seems to haven taken over, although temporarily, the position of principal Shaikh of Kuwait.[81]

351

٢٩ - وهذا نص الباحث :

Meanwhile the Portuguese came under ever more pressure from the Arabs in Oman. Ruy Freire's line of small fortresses with some 25 Lascar soldiers each was untenable. An attempt recorded in the archives in Rome of settling Sabaean refugees from the Upper Gulf in Dibba failed miserably.[31] For the final downfall of the Portuguese we have an exceptionally detailed batch of documents of the year 1648 in the Portuguese archives. These documents are not in the least revealing because they reflect the discussions among the Portuguese about the way their presence in Oman should be maintained. The Portuguese lost several fortresses. A settlement was proposed, according to which the Portuguese would give up Dibba in exchange for recognition of their rule over Muscat. However the agreement, for which the chief negotiator on the Arab side was an Al-Qasimi shaikh, came to nothing and the war continued and Muscat was taken by the Arabs end of 1650, of which event we have the most direct testimonies of a Catholic priest in Oman which is kept in the Propaganda Fide archives in Rome.[33]

E. THE PERIOD 1650-1695

Of the events immediately after the fall of Muscat we still have the report of a Dutch trading mission sent to explore the situation in

Muscat, which immediately returned because the place had become very poor and miserable. From the Portuguese side there are also interesting things: an attempt to replace Muscat by an establishment at Khasab (on this the best is a report by a Catholic priest in the Propaganda Fide archives in Rome), and a plan to have the Imam assassinated by

---

32. Tavernier, *Les six voyages*, vol. I, p. 236-237; cf. Slot, *Arabs of the Gulf*, p. 147

33. Slot, *Arabs of the Gulf*, p. 424

34. Chick, *Chronicle*, vol. I, pp. 329-330, 42C, 491

٣٠ – وهذا نص الباحث :

anything).[53] In the end the Omanis reached their objective. The Portuguese abandoned their establishment in Bandar Kung, their last foothold on the Gulf, and the Persians bought off the Omani occupation of some of their islands for a considerable sum of money.[54] An interesting point is that a Dutch report mentions that Arab tribes of the coast of Persia had supported the Omanis.[55]

٣١ – د. النجار، و د. أبو مغلي، جزيرة خارج . ص٣٨ – ٤٤ و١١٦ وهذا نص الباحث :

:the Dutch plans with Kharg were very limited and certainly did not include plans for settling Chinese on the island as the British feared. It was true that there were plans to recruit Arab soldiers in the Gulf to use them as mercenaries elsewhere in Asia, but not very much came of this.

The Dutch venture on Kharg came to nothing: the free port generated insufficient income and trade with Persia declined in the 1760's. The profits from Kharg were insufficient to cover the expenses of occupying the island and the Company's higher authorities decided to evacuate the island. Before this decision could be executed, the governor of Kharg had been caught in local conflicts, and he only found a way of protecting the trade interests by an alliance with the Persians. The Zaab chief Mir Muhanna, who was at war with the Persians, then conquered the island, but behaved on the whole in a gentlemanly manner towards the Dutch whom he left free to go to Bushihr.[69]

The news of the fall of Kharg was brought in 1767 to the Dutch consul in Aleppo by a Danish traveller, Carsten Niebuhr, who was the last survivor of a Danish scientific expedition to the Arabian peninsula.[70]

---

68. Ives, *Voyage*, 207-216. On the pearldiving see also W. Floor, 'Pearlfishing in the Persian Gulf in 1757' (*Persica* 10, 1982, pp. 209-222).

69. Slot, *Arabs of the Gulf*, pp. 366-370, 436-428; Floor, 'Dutch on Khark', pp. 190-193

70. According to a letter of the Dutch consul in Aleppo in Archives of the Dutch embassy in Istanbul prior to 1811, 664, Niebuhr had come from the Gulf with the news of the fall of Kharg and he had written a report on it for the Dutch ambassador in Istanbul. Indeed there is between the papers of Basra of 1766 in the same archives (nr. 671) a paper containing approximately the same text as Niebuhr published several years later in his book.

التعليل



يدور معنى التعليل حول تبيين علل الأشياء والظواهر، أي توضيح أسبابها، إذ أن العلة من كل شيء هي سببه . ويمكن حصر المفهوم العام للتعليل، لغوياً وفلسفياً، بالبحث عن العلة، أو عن السبب الذي يؤدي، بنفسه أو بوساطة انضمام غيره إليه، إلى أمر آخر يعرف بالمسبب، أو المعلول . وعملية التعليل قد تكون منطقية صرفة تدور مباحثها من الناحية الصورية فقط، أو طبيعية تتناول ظواهر الطبيعة أو الوجود عامة[1]. وعلى الرغم من أن العلة والسبب هما من المترادفات المشهورة

التاريخي

الأساس المنطقي.. والأبعاد المنهجية

بقلم:

الدكتور جميل موسى النجار

في الفلسفة، فإن بعض الفلاسفة يفرق بين مفهوميهما، فيجعل السبب هو الأمر الداعي، إلى الفعل ولأجله يفعل الفاعل، بينما يعتبر العلة هي الفاعل بعينه، ومن ثم يكون السبب أشد اختصاصاً بالأمور العرضية، أما العلة فاختصاصها أشدُ بالأمور الجوهرية[٢]. بيد أن كثيراً من العلوم، وخاصة الرياضية منها[٣] لم تتوقف كثيراً عند هذا الاختلاف الفلسفي – المنطقي حول وجود تطابق بين مفهومي العلة والسبب من عدمه، بل تجاوزته، في مناهج بحثها، إلى النظر لطبيعة العلاقة بين

العلة والسبب من جهة وبين القانون من جهة أخرى . أما في علم التاريخ، فيبدو لنا أن هناك تماثلا معنويا في الغالب بين العلة والسبب، باستثناء مايراه، من منطلق فلسفي، بعض المؤرخين من أن مفهوم السبب تشوبه التباسات عديدة، منها ما قد يدل عليه من (حتمية) تتنافى مع طبيعة الفعل في الحدث التاريخي . ومنها أن هذا الحدث لا ينجم عن سبب متفرد أو مجموعة من الأسباب يستقل فيها كل سبب بذاته، بل هو يعبر عن نظام من الأسباب يتوجب على المؤرخ أن يصل إليه بتحديد علاقة كل سبب بالآخر وبمعرفة درجات أهمية الأسباب وأولوياتها . فعمل المؤرخ لفهم الأحداث في نظر هؤلاء ليس هو البحث عن (السبب) فحسب، بل هو (تعليل) أو (تفسير) يتحرى فيه المؤرخ المنطق الداخلي لأحداث الماضي[٣] . ولكنه لا يترتب على هذا بالضرورة وجود اختلاف بين مفهومي (علة) الأحداث و (أسبابها)، فلذلك سوف لا نفرق بين العلة والسبب في بحثنا هذا الذي يستهدف التعرف على طبيعة التعليل في الدراسة التاريخية، والأساس الذي يربطه بمباحث المنطق الحديث .

والتعليل قديم قدم الفكر الفلسفي، بل هو في واقع الحال أقدم منه ويقترن وجوده بوجود الإنسان، إذ لم يعدم الإنسان البدائي التفكير في العلاقات السببية بين بعض ظواهر الطبيعة وبعضها الآخر، وإن كان إرجاع المسببات إلى أسباب ميتافيزيقية يطغى لديه على ما عداه من أسباب . وقد استمر مثل هذا الاتجاه الغيبي في تحديد الأسباب واضحاً في فكر الأوروبيين من فلاسفة ورجال دين حتى مطلع العصور الحديثة . إلا أنه أخذت تنمو منذ ذلك الحين مفاهيم واقعية علمية عن أسباب ظواهر الطبيعة، وكان نموها وانتشارها ملازماً للتقدم المطرد الذي كانت تحرزه العلوم .

ويهدف البحث عن الأسباب في العلوم إلى معرفة حقيقة وجود الأشياء . وإذا كان المنهج الاستقرائي الذي يعتمده

العلم يخلص إلى الكشف عن القوانين التي تفسر الظواهر، أي تبين كيفية ارتباطها ببعضها، فإن البحث عن سبب أو علة الظاهرة يهدف إلى معرفة سبب وجود هذه الظاهرة على هذا النحو دون نحو آخر. ذلك أن العلم لم يقنع، لفترات من تاريخه، بمعرفة القوانين التي تبين له كيف ترتبط الظواهر الطبيعية ببعضها، بل سعى إلى معرفة الأسباب الحقيقية لحدوث تلك الظواهر، ولماذا حدثت بالشكل الذي حدثت وتحدث فيه، وما هي غاية حدوثها، "لأن معرفة السبب الحقيقي في وجود ظاهرة ما معناه الوصول إلى تفسيرها على أكمل وجه يقبله العقل"[(٤)]. إلا أن اهتمام العلم بالبحث عن الأسباب أو العلل قد أخذ بالتقلص بعد أن نبذ العلم فكرة البحث عن الأسباب الأولى والعلل العلوية، وركز على استخلاص القوانين لأن القانون يكفي، من وجهة نظر كثير من العلماء والفلاسفة، لتفسير الظواهر وتوضيح العلاقات بينها. وليس هناك من داع، بوجوده، للتعرف على أسباب حدوث الظواهر أو غاياتها أو طريقة إيجادها، ولا سبيل في الواقع إلى ذلك في كثير من ظواهر الطبيعة.

وعلى الرغم من وجود هذا لاتجاه، الذي يدعو إلى إحلال القانون محل السبب أو العلة، فإن ظواهر ووقائع كثير من العلوم ما تزال، في دراستها والبحث فيها، بحاجة إلى التحري عن العلل أو الأسباب والكشف عنها[(٥)]. إذ لم تستغن بعض علوم الطبيعة عن عملية تقصي الأسباب التي تستهدف تفسير الظواهر وبيان حقيقة وجودها، وذلك من خلال وضع النظريات، أو حتى من خلال القوانين التي تعد مرحلة مؤقتة للوصول إلى ذلك الهدف. علاوة على أن الدراسة في العلوم الإنسانية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة السببية ولا يمكن لهذه العلوم أن تستغني عنها لأن معظم ظواهرها ووقائعها تصدر عن أفعال إرادية تخضع للتغير والتبدل على عكس الثبات والاطراد الذي تتسم به ظواهر الطبيعة، وللتعرف على هذه الأفعال ينبغي النفاذ إلى جوهرها وبواعثها الحقيقية، أي كشف أسبابها أو عللها[(٦)]. ومن ثم يغدو البحث عن الأسباب أمراً مهماً في العلوم الإنسانية، وبخاصة في علم التاريخ الذي يبدو أن التعليل فيه أكثر أهمية وجدوى لتفسير وقائعه وأحداثه وفهمها على وجه صحيح من البحث عن قوانين تنتظم هذه الوقائع والأحداث، وتفسرها

تفسيراً يطغى عليه القسر تارة والاطراد الذي يخالف طبيعة وقائعه تارة أخرى .

حقاً قد يؤدي البحث التاريخي الذي يقوم على استقراء عدد من الوقائع أو الأحداث الجزئية الخاصة بجانب معين من جوانب التاريخ العام، كدراسة الأديان والتشريعات، إلى استنباط بعض الصيغ العامة الشبيهة بالقوانين . ولكن مثل هذه الصيغ لا تعبر إلا عن تتابع متناسق - أو يبدو هكذا - للوقائع فحسب، وهي لا تقوى على تفسير تلك الوقائع لأنها لا تكشف عن العلة المحددة فيها(٧). وقد لا تصلح في الوقت نفسه للتنبؤ بالمستقبل أو تفسير الوقائع التي سيكشف عنها والانطباق عليها . ومن ثم فإن وقائع التاريخ لا يمكن أن تفسر على أساس انتظامها في قوانين عامة تشبه القوانين التي يستنبطها علماء الطبيعة لكيفيات ظواهرها، وذلك لأسباب متعددة منها أن الواقعة التاريخية تتصف بالتغير والتفرد الذي يخالف الثبات والاطراد الذي تتسم به ظواهر الطبيعة . فوقائع التاريخ وأحداثه هي أفعال إنسانية تتحكم فيها إرادات فردية أو اجتماعية، وهي غير متطابقة مع بعضها وإن تشابه بعضها مع البعض الآخر، لأن الحدث التاريخي "**هو بطبعه أمر مفرد نسيج وحده لا يتكرر هو نفسه أبداً**"(٨). وكما أن الوقائع التاريخية تختلف عن ظواهر الطبيعة، فإن علل الأولى تختلف عن علل الثانية أيضاً، فالعلة في التاريخ تختلف من حيث المعنى عن العلة في العلوم الطبيعية، ولذلك لا يمكن أن نرتب عليها قوانين لأن معناها لا يتمثل في مظهرها الخارجي، بل في جانبها الباطن (Its inner side)، على حد تعبير كولنغوود، بما يعني أنها تكشف عن أفكار معبرة عن رد فعل كائن عاقل حر الإرادة تجاه موقف يتطلب حلاً عملياً(٩). ومن الثابت في علوم الطبيعة أن تحدث مسببات معلومة إذا توافرت لها أسباب معينة . ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على مفهوم العلية أو السببية في التاريخ، إذ يمكن أن تلاحظ أسباب واحدة إلا أنه قد تترتب عليها مسببات مختلفة تحكمت في تباينها واختلافها ظروف وبيئات متنوعة، وفوق هذه وتلك تقلبات آراء وسلوك الإنسان صانع

أحداث التاريخ . فالأسباب نفسها التي تؤدي إلى حدوث ثورة سياسية قد تنجح في مجتمع من المجتمعات ولا تنجح في آخر . أو أنها قد تتمكن من إحداث الثورة في مجتمع منهما في فترة معينة من تاريخه ولا تتمكن من ذلك في فترة أخرى(١٠) .

ومن ثم فإن عملية استخلاص الصيغ والقوانين العامة من دراسة التاريخ هي عملية بالغة الصعوبة والتعقيد . والقوانين لا تستطيع، كما تبينا، أن تفسر الوقائع والأحداث التاريخية تفسيراً صحيحاً على الدوام بسبب من طبيعة الواقعة التاريخية التي تختلف عن طبيعة الظاهرة الطبيعية، واختلاف مفهوم العلة بين كل من علم التاريخ وعلوم الطبيعة . أضف إلى ذلك ما يجده المؤرخ من صعوبة كبيرة في السيطرة على تفصيلات أحداث التاريخ العام، التي لا يدخل المعروف منها تحت حصر، والربط فيما بينها بصيغ عامة أو قوانين كلية . وكل ذلك أدى إلى تركيز الدراسات التاريخية على التعليل، وربط أحداث التاريخ ووقائعه بـ (علاقات سببية جزئية)(١١) تتكفل بتفسيرها وإيضاح العلاقة فيما بينها بدلاً من القوانين العامة .

والبحث التاريخي في تقصيه عن الأسباب لا يخرج عن الأهداف التي يتوخاها البحث في علم الاجتماع وعلوم الطبيعة، فهذه العلوم جميعاً، بما فيها التاريخ، وإن اختلفت في تفصيلات مناهج بحثها، إلا أن مناهجها تتفق في هدف ربط الظواهر أو الوقائع بقوانين أو بعلاقات سببية تمكن من فهمها وتفسيرها . وهذه القوانين أو تلك العلاقات السببية التي تسعى إليها الدراسة المنهجية هي مما يضفي على موضوع الدراسة صفة العلم(١٢) . وقد تبين مما تقدم أن الربط بين أحداث الماضي بعلاقات سببية يناسب طبيعة التاريخ، ويفضي إلى فهم الأحداث وتفسيرها، وهو أكثر جدوى وأهمية لهدف الفهم والتفسير من فكرة استخلاص القوانين . وتتمثل أهمية السببية للدراسة التاريخية في أن مظاهر الماضي المختلفة وأحداثه المتباينة غير منفصلة عن بعضها، بل ترتبط فيما بينها بتأثيرات متبادلة، وينبغي لفهمها وتفسيرها إدراك وكشف طبيعة العلاقات

السببية التي تربط بينها وتتحكم فيها، لأن الكشف عن الأسباب يمكن من معرفة الأبعاد الحقيقية والتامة للحدث التاريخي . لذلك يذهب المؤرخ الإنجليزي إدوارد هالت كار إلى القول بأن دراسة التاريخ تقوم على "ترتيب أحداث الماضي في سياق منظم قوامه السبب والنتيجة"(١٣)، أي أن عمل المؤرخ يرتكز على قاعدة رئيسية ألا وهي التعليل، وإبراز الأحداث أو الوقائع مرتبطة بأسبابها . بيد أن هذا العمل لا يقوى عليه إلا من يستحق بجدارة لقب المؤرخ، إذ أنه، دون غيره، قادر على الإتيان بتعليلات أصيلة توصل إلى الحقيقة التاريخية أو تقترب منها إلى حد كبير .

وقد تنبه بعض المؤرخين منذ عهود التدوين التاريخي المبكرة إلى أهمية تقصي أسباب وقائع التاريخ وبيانها . فقد أشار هيرودوتس (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م.) في مقدمة تاريخه إلى الغرض الذي دعاه إلى تأليفه، وهو ضرورة حفظ أحداث الماضي وإبراز أسبابها "حتى لا تنطمس ذكرى الماضي في أذهان الرجال على مر الأيام وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التي اضطلع بها اليونانيون والأجانب (البرابرة) وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم إلى من يظهرها للملأ"(١٤) . كما أن آخرين من مؤرخي اليونان، مثل ثوسيديدس (٤٦٠ - ٣٩٥ ق.م.) وبوليبيوس (٢٠٥ - ١٢٣ ق.م.)، استقصوا في تواريخهم أسباب كثير من الأحداث وحرصوا على توضيحها، بل لم يكتف بوليبيوس بذلك فقسم أسباب بعض الأحداث إلى أسباب بعيدة وأخرى قريبة(١٥)، مدركاً الدور العرضي لبعض الأسباب والدور الحقيقي لبعضها الآخر . وكان ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) أبرز المؤرخين العرب المسلمين الذين اهتموا بالتعليل وبيان أسباب الأحداث ، فالتاريخ في باطنه، كما يقول، "نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق . ."(١٦) وفي العصر الحديث تعد مؤلفات مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) التاريخية نقطة انطلاق لاهتمام المؤرخين الأوروبيين بالتعليل التاريخي(١٧) .

والأسباب التي يوليها العمل التاريخي عنايته ويهتم بالبحث عنها أكثر من غيرها، لأنها تدخل ضمن نطاق اختصاصه المباشر، هي أسباب الوقائع

الجزئية الخاصة، لأن العمل التاريخي يتألف عادة من مجموعة مترابطة من هذه الوقائع تخص موضوعاً محدداً بعينه . ولكن هذا لا يمنع المؤرخ بالضرورة من البحث عن العلل، أو استخلاص بعض النظريات العامة لمظاهر وجوانب التاريخ البشري الرئيسية، كالجوانب المتعلقة بالأنظمة السياسية أو الاقتصادية أو غيرها . أو البحث عن مثل تلك العلل والنظريات لمجمل التاريخ العام، وإن كان هذا العمل يؤلف محور موضوع فلسفة التاريخ، ويدخل غالباً ضمن اهتمام المشتغلين بها . فالعمل التاريخي في بحثه عن الأسباب لا يخرج عادة عن نطاق حدوده الزمانية - المكانية، وغيرها من الحدود التي وضعها لنفسه، والتي لا تخرجه في نهاية الأمر إلى التأمل الفلسفي المحض . والمؤرخ يبحث، على سبيل المثال، عن أسباب قيام الدولة العباسية، حينما يتناول موضوعه هذه الدولة أو عصراً من عصورها أو جانباً معيناً من جوانب تاريخها، ولا يعنيه بعد ذلك أن يبحث عن القوانين العامة التي تفسر قيام الدول والأنظمة السياسية على امتداد تاريخ الإنسانية، أو أن يفسر قيام الدولة العباسية وفقاً لمثل تلك القوانين .

وتنقسم أسباب الوقائع الجزئية، التي تدخل كما أسلفنا في صميم عمل المؤرخ واختصاصه، إلى : أسباب حقيقية وأسباب عرضية . فالأولى هي الأسباب التي تتفاعل في خلقها ظروف متعددة ومتنوعة تحتاج أحياناً، لكي تتضافر، إلى مدة طويلة من الزمن . أما الأسباب العرضية، فهي أسباب طارئة وغير جوهرية تعمل على تحرك الأحداث وتفاقمها بسرعة، وتسمى أحياناً بالأسباب المباشرة فالسبب المباشر للحرب العالمية الأولى، مثلاً، هو حادث اغتيال ولي عهد النمسا في مدينة سراييفو من قبل شبان بوسنيين زودوا بأسلحة صربية، وما تلاه من خلاف نمساوي صربي أعلنت في أعقابه النمسا الحرب على صربيا . ثم امتد الخلاف ليشمل روسيا، وليتسع بعد ذلك إلى خلاف أوروبي . إلا أن الأسباب الحقيقية لهذه الحرب تختلف عن السبب المباشر لها، فهي أسباب متعددة تتعلق بالمصالح الاقتصادية والسياسية، بل وحتى الإيديولوجية والعرقية للدول الأوروبية . ومن المتعذر أن تفسر الحرب العالمية

الأولى، وتدرك أبعادها دون الكشف عن هذه الأسباب .

ويمكن القول بأن ما يميز الأسباب الحقيقية لحدث من الأحداث التاريخية هو قابلية الاستفادة منها في استخلاص أسباب الأحداث المشابهة، على عكس الأسباب العرضية التي تعتبر أسباباً فردية تختص بحادث معين، ومن ثم فهي غير قابلة للتعميم(١٨) . بيد أن القول بإمكانية الاعتماد على ما هو معروف من أسباب حقيقية لبعض الحوادث في استخلاص أسباب الحوادث المشابهة لها لا يعني بالضرورة أن السببية التاريخية تتصف بالثبات والسكون . فالسببية التاريخية، شأنها شأن السببية في بقية علوم الإنسان والمجتمع، سببية دينامية تختلف عن السببية الطبيعية المادية التي تتصف بالثبات إلى حد كبير(١٩) . وقد سبق القول بأن الأسباب ذاتها قد لا تفرز مسببات واحدة، حيث تؤثر في خلق هذه المسببات ظروف متعددة من بينها حرية إرادة الإنسان . كما أنه إذا عرفت لدينا أسباب معينة لحادث تاريخي محدد فلا يمكن دائماً أن تكون للحادث المماثل له الأسباب نفسها، ومن ثم فقد لا يصح استنباط سبب مجهول بقياسه على سبب معلوم لتماثل المسببات .

والبحث عن الأسباب الحقيقية للأحداث يقتضي من المؤرخ أن يتحرى الظروف التي أحاطت بتلك الأحداث، وطبيعة الفترة الزمنية التي سبقتها، ذلك أن أحداث التاريخ بأوجهها وأبعادها المتعددة، وفي تتابعها الزمني أيضاً، ترتبط مع بعضها البعض ارتباطاً عضوياً وثيقاً، ومن ثم فلا يمكن التوصل إلى أسباب الأحداث في التاريخ بأسلوب مباشر كما هو الحال في العلوم الأخرى(٢٠) .

وحينما يتحرى المؤرخ عن الأسباب في إطار محيطها المعاصر والسابق فإنه سيتوصل غالباً إلى عدد من الأسباب للحدث الواحد . بيد أنه لا يُكْتَفى في العمل التاريخي بالتوصل إلى هذه الأسباب وإبرازها فحسب، بل ينبغي ترتيبها ترتيباً قائماً على نظام محدد يوضح طبيعة العلاقة التي تربط بينها، وأولوية بعضها على البعض الآخر، ويحدد السبب الرئيسي فيها أو ما يمكن تسميته بسبب الأسباب، وهو ليس بالضرورة سبباً مفرداً، إذ ربما يكون أكثر من سبب واحد . فالمؤرخ الإنجليزي

إدوارد غيبون (ت ١٧٩٤) يتحدث في كتابه (اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها) عن عدد من الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الدولة، إلا أنه يحصر هذه الأسباب، في التحليل الأخير، بـ "انتصار البربرية والدين"(٢١). وفي كل ذلك لا يمكن للمؤرخ أن يغفل دور بعض الأحداث غير المتوقعة أو الطارئة، وما تحدثه من أسباب عرضية تؤثر في مجرى الأحداث وأسبابها الحقيقية.

ويبدو أن المؤرخ في عمله الباحث عن الأسباب إنما يماثل طبيعة العمل الذي دفع بالعلم الطبيعي إلى التقدم، فالشرط الضروري الذي أفضى بالمعرفة العلمية نحو التقدم، من وجهة نظر هنري بونكاريه (١٨٥٤ - ١٩١٢م)، إنما كان بتوجه العلم نحو (التنوع والوحدة)، أو (التعقيد والتيسير) رغم ما يبدو من تناقض في هذا التوجه. كذلك يمكن القول أن الأسباب في العمل التاريخي لا تنفك عن التكاثر كلما مضى هذا العمل قدماً في الكشف عن مظاهر الماضي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وجلى بصورة أكثر المظاهر السياسية والعسكرية، ومن ثم فلا مناص للمؤرخ من محاولة التعرف على الأسباب الكثيرة المتداخلة لهذه المظاهر المتعددة المترابطة، وتنظيمها لتوحيدها وتيسيرها بعد ذلك، بما يجعل هذا العمل مماثلاً لما يقوم به العلم، ودافعاً للتاريخ كي يحرز ما أحرزته العلوم الأخرى من تقدم " عبر هذا السياق المزدوج والمتناقض ظاهرياً"(٢٢).

على أن العمل الذي يستهدف الوصول إلى السبب الحقيقي للحدث التاريخي، عبر علاقة الحدث بالمنظومة التي أشرنا إليها، ليس عملاً ممكناً أو يسيراً في كل الأحيان لغموض الظروف التي تحيط ببعض أحداث الماضي، وقلة معلومات الأصول التاريخية عنها، أو تضارب روايات هذه الأصول. غير أن هذا يجب ألا يحول دون محاولة المؤرخ للوصول إلى أسباب الأحداث وكشفها. كذلك فإن صعوبة العمل الهادف إلى استخلاص أسباب الأحداث لا تنتفي بمعرفة الظروف التي أحاطت بها، ووفرة رواياتها، وتوافق هذه الروايات. ذلك أن هذا العمل مازال يفتقد إلى القواعد المحددة الثابتة، ويعتمد على بعض المبادئ العامة، أو انتقائية المؤرخ واجتهاده. وفي واقع الحال فإن وضع

مثل هذه القواعد ليس بالأمر الهين. وصعوبته لا تقتصر على التاريخ فحسب بل تشمل العلوم الإنسانية كافة لأنها تشترك جميعاً في معالجتها لظواهر متنوعة ومتداخلة تتصف بتركيبها المعقد وسرعة تطورها، مما يجعل البحث السببي فيها "بحثاً شاقاً إلى حد بعيد"(٤٣). أما انتقائية المؤرخ للأسباب واجتهاده في اختيارها وترتيبها، فهي نتيجة منطقية لغياب القواعد وتداخل الأحداث وتعقيدها وصيرورتها. والانتقاء هنا ليس له من معيار سوى قابلية المؤرخ على ربط الأحداث وفقاً للمنظور العقلي الذاتي الذي يعتمده.

والأساس الذي يستند إليه المؤرخ في التعليل واستخلاص أسباب الأحداث الجزئية والعامة هو التماثل بين الماضي والحاضر، والذي تترتب عليه إمكانية قياس علل الماضي على العلل المدركة في الحاضر. بيد أن المؤرخ قد يستعين أحياناً على إدراك أسباب الأحداث الجزئية، دون العامة، بتعليلات مؤلفي الوثائق والأصول التاريخية، وخاصة الذين شاهدوا الأحداث منهم، أو الذين عايشوها عن قرب، إذ أن تعليلات هؤلاء قد تكون أكثر واقعية وعملية من التعليل الذي يستند إلى قياس الماضي على الحاضر. وفي هذه الحالة بالذات يكون إدراك أسباب الأحداث الجزئية أوضح من إدراك أسباب التحولات العامة. أما الأحداث العامة، فمحاولة الوصول إلى أسبابها تستوجب اعتماد التماثل والموازنة بين الماضي والحاضر، والاسترشاد بالقواعد المتاحة. وقد وضعت بعض المبادئ للبحث عن أسباب تطور المجتمعات الماضية، منها:

١ - لمعرفة الأسباب التي تربط النظم والشرائع والمعتقدات والعادات بعضها بالبعض الآخر في مجتمع من المجتمعات، يجب تجاوز البحث عن هذه الأسباب في الأطر العامة المجملة التي تذكرها الوثائق عنها. فالوثائق تذكر تلك المظاهر من معتقدات ونظم وغيرها بصورة مجملة لا يتاح معها معرفة أسباب الترابط. وينبغي البحث عن هذه الأسباب في الطبائع والصفات العامة الغالبة لأفراد المجتمع، والتي تطغى على مظاهر نشاطاتهم المختلفة، مع مراعاة حقيقة وجود الاختلاف في العادات بين شخص وآخر من أفراد المجتمع الواحد، لكي لا تفسر، مثلاً، "أعمال الفنانين والعلماء بالمعتقدات

والعادات التي يتحلى بها أميرهم أو من يوردون لهم"[٢٤] .

٢ - يفترَض في البحث عن أسباب التطورات في مجتمعات الماضي أن يتم من خلال ملاحظة :

(أ) - عادات الأفراد : فالتطور يكون سببه أحياناً تغير هذه العادات . وتغير العادات يتم بتغيير طرق العمل والتفكير، إما إرادياً بمحاكاة مجتمع آخر، أو قسرياً بوقوع المجتمع تحت تأثير احتلال أجنبي على سبيل المثال .

(ب) - تغير الأجيال : أي أن أسباب التطور تتمثل في تغير العادات الذي يأتي في أعقاب انقراض جيل ومجيء جيل جديد يختلف عن السابق في أعرافه وعاداته . ويبدو أن أسباب التطور في هذه الحالة تكون أقوى وأكثر فاعلية من غيرها . ويكون التطور بطيئاً كلما نزع أبناء الجيل التالي إلى محاكاة أسلافهم .

(جـ) - يرى بعض الباحثين أن الأسباب الأنثروبولوجية لها أثر فعال في التطور، حيث يبدو للمؤرخين الفرنسيين لانجلوا ونينوبوس أن الاختلاف واضح بين الأجناس البيضاء والصفراء والسوداء، ويتجلى ذلك بعدم وصول أي شعب من الشعوب السوداء إلى مرحلة التمدن على حد تعبيرهما، وإن كانا يريان عدم وجود "طريقة مؤكدة لتحديد تأثير هذه الفروق الوراثية"[٢٥] .

وفيما عدا هذه الوسائل التي يمكن أن تتبع في تفسير الأحداث والبحث عن عللها، وهي التي تنحصر، كما تبينا، في تعليلات مؤلفي الأصول التاريخية، وقياس الماضي على الحاضر، وبعض المبادئ القائمة على ملاحظة طبائع وصفات الأفراد وعاداتهم، وتغير الأجيال، والصفات الأنثروبولوجية . نقول فيما عدا هذه الوسائل، فقد تطبق أحياناً طريقة الاستقراء التقليدية التي تتبعها العلوم الطبيعية، في مجال البحث عن الأسباب التاريخية . حيث يمكن استقراء الوقائع التاريخية المتعاقبة للأعراف أو النظم الاجتماعية على سبيل المثال في عدد من المجتمعات، ورصد تطورها، ومقارنة التطورات ببعضها لتحديد أسباب التطور أو علته العامة[٢٦] . ويُشبّه أسلوب استقراء ومقارنة الوقائع التاريخية هذا، والذي يهدف إلى كشف علل وأسباب أحداث التاريخ، بطريقتي الحضور والغياب اللتين وضعهما فرانسيس بيكون (١٥٦١

- ١٦٢٦م) لكشف طبائع الأشياء أو صفاتها النوعية، حيث تسجل في قائمة الحضور كل الأحوال التي تظهر فيها الظاهرة الطبيعية موضوع البحث، فإذا كان البحث حول الحرارة مثلاً، فتسجل حالات حضورها في الشمس والجسم الحي والاحتكاك . .الخ . أما قائمة الغياب فتسجل فيها الأحوال التي لا توجد فيها الظاهرة الطبيعية . ففي مثال الحرارة يسجل عدم وجودها في أشعة القمر والجسم الميت . . الخ . ومن ثم يمكن معرفة السبب المولد للحرارة من خلال مقارنة الأحوال في القائمتين، وهو السبب الذي ينتفي وجود الحرارة بغيابه(٢٧) . إلا أن ما يؤخذ على طريقة استخلاص أسباب الأحداث التاريخية الجزئية هذه هي أنها لا تقوم على أفكار واقعية، بل على أفكار مجردة قد لا تكون حقيقية وعملية عند التطبيق . علاوة على أن مقارناتها لا تمثل غالباً سوى مقارنات بين الكلمات دون معرفة تامة بتفصيلات الأحداث والظروف التي أحاطت بها(٢٨) .

وشبهة الابتعاد عن الواقعية في تفسير الأحداث والتعرف على عللها لا تقتصر على طريقة الاستقراء هذه فحسب، بل تتطرق إلى كل وسائل تفسير الأحداث التاريخية التي تبتغي الوصول إلى علل عامة أو صيغ تفسيرية شاملة لمظهر أو جانب من جوانب التاريخ العام ككل، أو تاريخ مجتمع من المجتمعات الإنسانية . وقد سبق القول بأن مثل هذا العمل قد لا يكون من صلب تخصص المؤرخ وواجبه . والتعليل التاريخي الذي ركز عليه هذا البحث هو التعليل الذي يقتصر على تقصي أسباب الأحداث التاريخية الجزئية دون الأسباب أو العلل العامة لتطور المجتمعات الماضية وأنظمتها المختلفة مما لا يدخل ضمن الاهتمام المباشر للدراسة التاريخية الصرفة . وإن كان هذا لا يحول بين المؤرخ، كما سبق وأن أشرنا أيضاً، وبين التحري عن مثل هذه العلل إذا أراد . ولكن الموضوعية التي تنشدها الدراسات التاريخية تقتضي استبعاد البحث عن علل هي ألصق بالتأملات الفلسفية لمجرى التاريخ العام، وأقرب إلى نظريات فلسفة التاريخ .

الدكتور جميل موسى النجار
ليبيا/ قسم التاريخ - كلية الآداب / بزوارة
جامعة السابع من أبريل

الهوامش

١ - ينظر : المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٥، الجزء الثاني، ص ٦٢٣ - ٦٢٤ . الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٦، المجلد الأول، الاصطلاحات والمفاهيم، ص ٢٨٢، ٤٧٢ .

٢ - الموسوعة الفلسفية العربية، نفسه، ص ٤٧٢ .

٣ - ينظر : كار، إدوارد، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر الكيالي وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.٣، بيروت ١٩٨٦م، ص ٩٨ - ٩٩ .

٤ - قاسم، محمود (دكتور)، المنطق الحديث ومناهج البحث ، ط.٥، دار المعارف، مصر ١٩٦٧م، ص ٢١٩ .

٥ - ينظر : محمد، علي عبد المعطي (الدكتور) و عطيتو، حربي عباس (الدكتور)، المنطق ومناهج البحث العلمي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢م، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

٦ - قاسم، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

٧ - لانجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي مع نصوص أخرى عن الفرنسية والألمانية تحت عنوان : النقد التاريخي، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٣١ .

٨ - بدوي، عبد الرحمن (الدكتور)، موسوعة الفلسفة، جـ ٢، المؤسسة العربية، بيروت ١٩٨٤، ص ١٦١ .

٩ - أنفسهما .

١٠ - أنفسهما، وينظر أيضاً : عثمان، حسن (الدكتور)، منهج البحث التاريخي، ط. ٤، دار المعارف، مصر ١٩٨٠م، ص ١٨٧ .

١١ - قاسم، ص ٥٢٧ .

١٢ – لانجلوا وسينوبوس، ص ٢٢٩ . وينظر أيضاً : قاسم، ص ٤٥٤ – ٤٥٥، ٤٦١ .

١٣ – ما هو التاريخ، ص ٩٨ .

١٤ – حلاق، حسان (الدكتور)، مقدمة في مناهج البحث التاريخي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٣٦ .

١٥ – للتفاصيل يراجع : توينبي، أرنولد، الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة لمعي المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠، ص ١٩٣ – ١٩٤ . حلاق، ص ٢٤١، ٢٥٣ . العروي، عبد الله، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٢، ج ٢، ص ٢٩٣ .

١٦ – مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، ج ١، ط ٣، دار نهضة مصر، القاهرة (د.ت). ص ٢٨٢ .

١٧ – كار، ص ٩٨ .

١٨ – نفسه، ص ١١٩ – ١٢٠ .

١٩ – الشنيطي، محمد فتحي (الدكتور)، أسس المنطق والمنهج العلمي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٠، ص ٢٣٥ .

٢٠ – ينظر : لانجلوا وسينوبوس، ص ٢٣٣ .

٢١ – كار، ص ١٠٠ .

٢٢ – نفسه، ص ١٠٢ .

٢٣ – الشنيطي، ص ٢٣٦ .

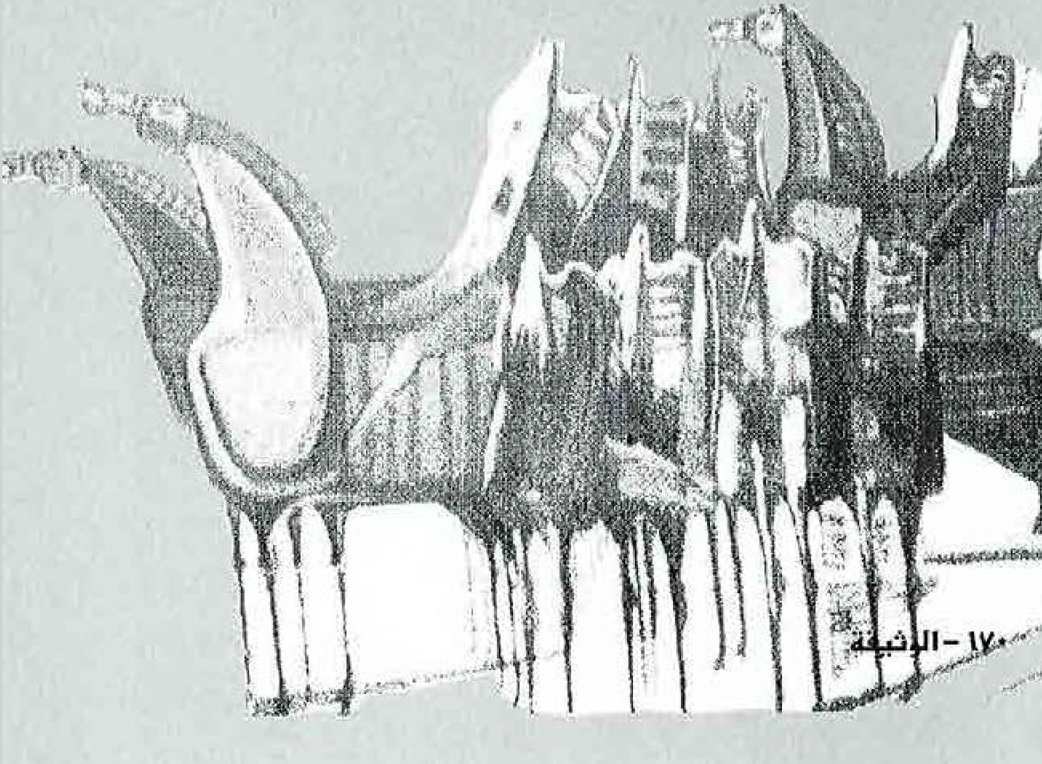
٢٤ و ٢٥ – لانجلوا وسينوبوس، ص ٢٣٥، وتنظر أيضاً الصفحة السابقة لها .

٢٦ – نفسه، ص ٢٣٢ .

٢٧ – بدوي، موسوعة الفلسفة، جـ ١، ص ٣٩٧ . قاسم، ص ١٨٩ – ١٩٠ .

٢٨ – لانجلوا وسينوبوس، ٢٣٢ .

الثقافة العربية



مرجعيات وجذور

بقلم:

د. إسماعيل نوري الربيعي

على الرغم من المحاولات التي بذلت من قِبَل الدولة العثمانية في ترميم البنية الإدارية والحكومية والرغبة في بلوغ مكانة تؤهلها لاستعادة موقعها السابق . فإن الخراب، كان قد استفحل وغدا ظاهرة مسيطرة على الحياة العامة، مما حفّز رعايا الدولة للنظر بشكل جدّي للأوضاع التي ألمّت بالسلطة الحاكمة، حيث برزت العديد من الدعوات والأصوات المنادية بضرورة الإصلاح وتغيير حالة الوهن التي غدت مستشرية في أوصال الدولة، ومدى انعكاسها في المفاصل والقطاعات الأساسية من سياسية واقتصادية واجتماعية . والواقع أن عهد الإصلاح الذي برز بشكل جدي في بداية القرن التاسع عشر، زمن السلطان محمود الثاني "١٨٠٨ – ١٨٣٩م"، لم يحقق النتائج المرجوّة منه، ولم يتحقق شيء من محاولات الإصلاح التي بقيت مجرد مشاريع[1] . إلا

أن هذا القول يعني أن الركود كان ملاصقاً للأمر بشكل مطلق . فقد أتاحت الإصلاحات العثمانية الصادرة علم ١٨٣٩م والمسماة خط شريف كلخانة والخط الهمايوني الصادر عام ١٨٥٦م، منح الفرصة لعناصر التجديد للعمل بحرية أوسع من السابق، وحصلت على مجال أكثر سعة، لإصدار بعض القوانين التي تتلاءم وروح التطورات التي شهدها العصر . ولولا القناعة الراسخة التي تهيأت للسلطة العليا، حول الأوضاع البالغة السوء التي تدور في فلكها الدولة، لما قُيِّضَ لقانون الأراضي العثماني أن يرى النور عام ١٨٥٨م أو قانون تسجيل الأراضي العثماني "الطابو" لضبط حدود الأراضي وتنظيم جباية العُشْر عام ١٨٦١م . ولما كان لهذه القوانين أن تحدث بعض التحولات في علاقة الأفراد بالحكومة أو في مجال الملكية الخاصة . فإن الاعتبارات السابقة والمتمثلة في سيطرة النخبة العثمانية التقليدية في المجال السياسي والديني والعسكري، كان لها الغلبة والكفة الرابحة على الصورة النهائية التي بلغتها مراحل الإصلاح[٢] .

شهد الواقع الثقافي في الدولة العثمانية نشاطا ملحوظا في مجال التعليم الذي تأثر بالتطورات السياسية والاقتصادية التي برزت وكان لها الفعل الواسع على العرب العاملين والدارسين في عاصمة الدولة، بالإضافة إلى الانفتاح الذي شهدته الصحافة التركية، الناطقة بلغة الثقافة "اللغة التركية" إبان تلك الحقبة، والتي استوعبت المواضيع الجديدة التي بدأت تتناقلها أفواه الناس، وتفكر بها، وكان من الطبيعي أن يبرز انعكاس تلك المواضيع بجلاء على رعايا الدولة العثمانية ومنهم العرب الذين نالوا القسط الوافر من الإهمال والعسف . وإذا ما كانت الفسحة التي وفرتها السلطات العثمانية في مجال تناول المواضيع التي تهم الناس وتناقش بعض همومهم وقضاياهم المباشرة، فإنما كانت لخدمة غايات وأهداف بعينها، يقع في مقدمتها امتصاص نقمة الناس على الأوضاع المتردية . فيما كانت هذه الحالة فرصة نادرة للمثقفين العرب للاطلاع عن كثب على المقالات والكتب التي اتسع مجال نشرها في العاصمة وباقي المدن العثمانية الكبرى والتي تناولت الاتجاهات والتيارات الجديدة

التي حفلت بها أوروبا ومثلت موضوعاً حيوياً بالغ الأهمية والتأثير على عقول المثقفين والمتنورين[٣].

وإذا كان للمتغيرات التي برزت في مركز الدولة العثمانية تأثير على فئة معينة من العرب، فإن التحولات التي أحدثتها التنظيمات العثمانية كان لها أبلغ الأثر في تغيير معالم الصورة الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي حيث تعرضت العلاقات القديمة داخل القبيلة إلى هزة عنيفة، تمثلت في تحول الشيخ إلى مالك كبير للأرض الزراعية التي كانت مشاعاً للقبيلة بجميع أفرادها، فيما توجه أثرياء ووجهاء المدن نحو تملك الأراضي الزراعية بشكل واسع. وإبان تلك الحقبة برزت ظاهرة تدفق رأس المال الأجنبي نحو الوطن العربي لاستثمار الأموال في مشاريع الغاية منها ربط الولايات العربية باقتصاد السوق ونبذ النشاط الاقتصادي السابق القائم على سد الحاجات المحلية. مما مهد السبيل أمام التجار الأوروبيين لتوسيع أنشطتهم وحفزهم نحو تأسيس المصارف لتمويل المشروعات. وكان من الطبيعي أن يبرز دور للتجار العرب الذين برزت منهم فئة تمكنت من لعب دور هام في مجال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، إلا أن تلك الأهمية بقيت تدور في فلك تحقيق المكاسب وتوطيد النفوذ[٤]، بدليل أنها توجهت نحو دعم مركزها على حساب القوى الاقتصادية الأقل حظوة من تجار صغار وحرفيين. وفيما كانت البورجوازية التجارية المحلية منشغلة بتوطيد نفوذها وتدعيم سيطرتها، توجه المثقفون[٥] نحو استيعاب الأفكار الجديدة والمتعلقة بتنظيم المجتمع وقيم الارتباط السائدة على أسس مختلفة عن الأنماط التقليدية التي عفا عليها الدهر وما عادت تستوعب نمط الحياة الجديدة، التي بلغتها الأفكار المنادية بالتحرر والتجديد، إلا أنه من المهم الإشارة إلى أن النخبة المثقفة ما كان لها أن تتحرك بهذه الفاعلية، لولا انبثاقها عن جملة المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي رافقت ظهور البورجوازية التجارية المحلية. فالملاحظة الجديرة بالاعتبار أن أغلب عناصر النخبة المثقفة كانوا ينحدرون من تلك الفئة والتي هيأت لهم فرصة التعليم خارج ولاياتهم، سواء في العاصمة العثمانية، أو في بعض الحواضر الأوروبية. وبهذا يكون ميدان الثقافة قد اكتسب دماءً جديدة، اعتماداً على

إتاحة الفرص أمام فئات واسعة، في حين أن المناخ العلمي والثقافي، كان ذا صبغة عائلية قوامه التعليم الديني التقليدي، حيث أبرزت الشام من الأسماء؛ آل الكزبري والطنطاوي والميداني والنابلسي والمرادي وقدمت مصر الجبرتيان حسن وعبد الرحمن والنفراوي والزبيدي والعيدروسي، فيما طلع من العراق آل الألوسي والحيدري والسويدي والرجبي والشاوي[٦] . وعلى الرغم من التطورات التي فرضت نفسها في ميدان الثقافة والعلوم من خلال ما كانت تتناقله الصحف والكتب المطبوعة، إلا أن ظلال السلطة العثمانية الثقيلة كانت بادية للعيان، وتمثلت في صرامة الرقيب التركي الذي ضيق الخناق على المطبوعات وجعلها تراوح في مضامين محددة . ولم تقف هذه الحالة عند عاصمة الدولة بقدر ما انتقلت عدواها إلى الولايات الخاضعة للسيطرة العثمانية لاسيما ولاية سوريا، التي شهدت هجرة واسعة من قبل مثقفيها للتوجه نحو مصر التي أتاحت للصحافة حرية أوسع في مجال التعبير عن الرأي[٧] .

أتيح لمصر أن تتصدى لموضوعات فكرية أوسع بكثير من الكتابات التي ظهرت في الولايات الخاضعة للسلطان العثماني، وكان هذا الأمر ينبع من عاملين؛ الأول يتلخص في وقوع مصر تحت الاحتلال البريطاني، الذي وجد من مصلحته تعزيز الاتجاه نحو إبراز التناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتحميل الدولة العثمانية وزر تخلفها والعمل على تقويض نفوذها . وهذا الأمر لا يخرج عن نزوع يصب في خدمة الأغراض الاستعمارية للوجود البريطاني . فيما يتلخص العامل الثاني في انشغال المفكرين العرب بالمحنة التي يقاسيها الشعب العربي، مركزين على الأوضاع المحيطة بهم، دون مراعاة للآتي من الأحداث والأوضاع المستقبلية[٨] . وقد ساهمت سياسة الالتفاف التي أخذت بها السلطات العثمانية بهدف تكريس مفاهيم الخنوع والإصرار على الإبقاء على كل ما هو قديم بدعوى حماية الدين الإسلامي، ومحاربة كل دعوة من شأنها الترويج للتنوير والتجديد ووسمها بالبدع والضلال . وعمل السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩م على تكريس نفسه ممثلا للأمة الإسلامية من خلال الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وعمل على توجيه وإخضاع كل الجهود لإبراز هذا

النهج، ووصف كل دعوة جديدة تحاول الإفصاح عن آمال وطموحات الشعوب الرازحة تحت السلطان العثماني بأنها دعوة موجهة ضد الدين والشريعة الإسلامية . من خلال تقريب أصحاب الطرق الصوفية الدينية التي كانت منتشرة في المدن، وجعل منها وسائل دعاية له بين العامة، ولم يتوان عن نفي أبرز شخصية سياسية إبان تلك الحقبة "**مدحت باشا**" الذي كان يتولى منصب "**الصدر الأعظم**" عام ١٨٧٦م، حين شعر أنه من أنصار الاتجاه المنادي بفصل السلطة السياسية عن الدينية(٩) . فيما فرضت رقابة صارمة على الصحف الصادرة في الدولة العثمانية، وتعرض الكتاب والمفكرون إلى متابعة وملاحقة جهاز الأمن، والتي كانت تقوم اتهاماتهم على المحاولات التي يعمد إليها بعض المثقفين بإنشاء صحف في بعض الحواضر الأوروبية مثل باريس أو العمل في الصحف القاهرية(١٠) .فرضت التطورات التي شهدتها الحياة السياسية المحيطة بالدولة العثمانية، الاتجاه نحو وجوب دراسة الأوضاع والبحث عن مخرج من التخبط الذي تدور في فلكه . وكان للاتصال الواسع مع الغرب، سواء على صعيد العلاقات الدولية ، أو تأثر الرعايا العثمانيين الذين أقاموا في أوروبا للدراسة أو العمل، دور أتاح الفرصة واسعة لظهور المفاهيم السياسية الجديدة حول السلطة السياسية وبروز الأفكار المنادية بضرورة التغيير في مجال تحديد علاقة الأفراد بالسلطة، من خلال الاستناد إلى القاعدة الدستورية التي تضمن الحقوق والواجبات الكفيلة بسير المجتمع والدولة وفق أسس محددة لا يمكن تجاوزها . ولم تجد النخبة المستنيرة المطالبة بالحياة الدستورية، صعوبة في طرح البديل، حين أشارت إلى إمكان الاستفادة من التجربة الأوروبية في مجال التمثيل البرلماني للشعب . إلا أن هذا لا يمنع من القول، بأن القوى الأوروبية كانت تعد ظهور الدستور في الدولة العثمانية أحد المطالب التي يجب الأخذ بها . وفي ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦م تم إعلان الدستور العثماني الذي روعي فيه المواءمة بين الشريعة الإسلامية والدساتير الأوروبية . حيث أتيح للسلطان عبد الحميد انتخاب أعضاء مجلس الأعيان، فيما تم انتخاب مجلس المبعوثان العثماني، وتم للبرلمان الاجتماع في ٩ آذار ١٨٧٧م(١١) .

مثلت التجربة الأوروبية في مجال التحديث وبناء الدولة على الأسس

الحديثة، مثالاً واضحاً على الرقي وحسن التناسق في الأداء. ولم يغفل المهتمون من الإشارة إلى الأسس الصحيحة التي اعتمدتها الأمم الأوروبية في مجال البناء والرقي، مشيرين إلى التدرج الذي اتخذه الأوروبيون سلماً لبلوغ الحالة التي وصلوا إليها. فكان التذكير، بأنه ما من تجربة يمكن لها أن ترى النور، ما لم يتوافر لها الجهد والعمل الجاد والإيمان إضافة إلى استيعاب تجارب السابقين للوقوف على الصالح والطالح من الأعمال، لكي يتم التوصل إلى عمل منظم غايته تحقيق الأهداف المرجوّة، حيث عمد رجال الحكومة العثمانية إلى الإفادة من تجربة الصحف وهي الابتكار الأوروبي، لتوسيع مدارك العامة، وجعل الأخبار والأفكار في مختلف مناحي الحياة بين يديَ مواطني الدولة. ليتسنى لهم الإفادة والإطلاع على ما يجري من حولهم. وفي هذا كان الرأي على أن الصحف وفي حال انتشارها وتوسيع دورها ستكون واسطة للتفاهم وبلوغ حالة من الإدراك بين الجهات الرسمية المثلة بالحكومة وقطاعات واسعة من الشعب، لاسيما النخبة المثقفة منهم. ولم تكن النظرة إلى أهمية الجريدة مجرد وسيلة لنقل الأخبار والإطلاع على المعلومات، بقدر ما كان الوعي بها كأداة مساعدة لنشر الثقافة والعلوم وترقيتها والارتفاع بمستواها. إضافة لاعتبارها تجربة جادة من شأنها تهيئة الأفكار لجميع فئات الشعب، لاستيعاب التطورات القادمة، والتي أُريد من منبر الصحافة أن تكون الميدان الذي يتم فيه الانفتاح على الناس(١٢).

كانت الأوضاع الاجتماعية في المشرق العربي تفصح عن ضيق ومشاكل متفاقمة، لاسيما بعد المجال الواسع الذي أتاحته السلطات العثمانية للاحتكارات الأجنبية من العمل والسيطرة على منافذ التطور الاقتصادي. حيث أسهمت في تعطيل تطور الدور الاقتصادي لنشاط الحرفيين، مما كان له أبلغ الأثر في ركود الفعاليات وجعلها مقصورة على قطاع صغير ومحدود من الإقطاعيين وتجار المدن الذين وجهوا جلّ أنشطتهم في مجال الصيرفة وتقديم القروض بفوائد كبيرة، والتي كان لها الأثر السلبي في إرهاق الفئات العاملة. وعلى هذا فإن القوى الوطنية وعت بشكل لا يرقى إليه الشك أن الخطر يكمن في محورين، يتمثل الأول في السيطرة العثمانية

وتخلف جهازها الإداري والحكومي، فيما يتلخص المحور الثاني في هيمنة الرأسمال الأوروبي الذي فرض وجوده على المنطقة بدعم من الحكومات الأوروبية وبالذات بريطانيا وفرنسا . وكان لاتساع العلاقات التجارية بين بلاد الشام والمناطق العربية كفلسطين وشرق الأردن وشبه جزيرة العرب والعراق، أثره الواضح في تعميق عرى الاتصال وتوثيق آصرة الاتحاد حول المصير المشترك الذي يربط المنطقة في مواجهة التحديات والأخطار الجسام التي تهدد الوحدة الثقافية والقومية للمنطقة . وكان للنشاط الدافق الذي بذله المتنوِّرون العرب في توكيد الهوية القومية والوعي بأهمية التصدي لكل الأساليب والأنشطة التي تهدف إلى تعزيز الانفصال والفُرقة بين أبناء الأمة الواحدة . ومثلت اللغة عاملاً رئيسياً في توكيد الوحدة الثقافية، وكانت النخبة المثقفة العربية قد وعت هذه المسألة بشكل جيد، حتى أنها جعلت منها أحد سبل العمل والانطلاق في تحقيق الغايات المنشودة . ولم يكن المثقفون العرب في معزل عن الاتجاهات والتيارات الثقافية والسياسية التي كان لها صدى في العالم . فقد أقدمت الصحف الصادرة في الحواضر العربية على ترجمة المقالات السياسية والفكرية والأدبية التي تتناول أبرز الظواهر في مجالات الحياة المختلفة . وانتقاء روائع الفكر الإنساني لتقديمه إلى القراء العرب، فيما حرص المثقفون والمتعلمون العرب على احتواء رفوف مكتباتهم على المجاميع الفكرية لأساطين الفكر العالمي، وكانت أغلب مقار الصحف أشبه بالنوادي الفكرية على حد تعبير لوتسكي، حيث يتم مناقشة مختلف القضايا ذات المساس بالحياة العامة . ولم تنقطع الصحف عن عامة الشعب أو تنعزل لأداء دور نخبوي موجه لخدمة أهداف وأغراض فئة بعينها، بل كانت أبوابها مشرعة أمام العامة، حتى أن العديد من الفلاحين كانوا يأتون بشكاواهم ضد الإقطاعيين وموظفي الحكومة بشكل مباشر إلى مقار الصحف . وإذا ما كانت الإشارة إلى عسر الأوضاع التي كانت تمر بها البلاد العربية، فإن ذلك لم يجعل النخبة المثقفة تنكفئ في زاوية العزلة . بل حاول المثقفون بكل جرأة ونشاط التعبير عما يجول في خاطرهم إزاء العديد من القضايا التي شغلت العالم . فلا غرو أن يخرج مثقفو بيروت الأحرار عام

١٩٠٩م، معبرين عن احتجاجهم إزاء الحكم الديكتاتوري في أسبانيا[١٣] .

وعت النخبة العربية المثقفة أهمية الصحافة في كسب الرأي العام، وكشف الحقائق وتوجيه الأنظار نحو التناقضات التي تحيط بالأوضاع العامة . ولم يقتصر الجهد في المجال الداخلي، بقدر ما توجه الوطنيون نحو الصحافة العالمية لشرح أبعاد القضايا للمجتمع العالمي . وفي هذا المجال يبرز دور الزعيم الوطني مصطفى كامل، الذي أخذ على عاتقه فضح الأساليب والمناورات التي كانت تعمد إليها سلطات الاحتلال البريطاني في مصر، استناداً إلى الأدلة القانونية والدستورية، ولم يكتف في تدبيج المقالات والدراسات، بل عمد للاتصال بالشخصيات السياسية والبرلمانية والإعلامية الفرنسية، وتنظيم الندوات والمحاورات والملتقيات حول القضية المصرية في فرنسا والنمسا وألمانيا[١٤] .

وفي هذا المجال يمكن الإشارة إلى الجهود التي كان يبذلها المثقفون العرب في الإفصاح عن الصورة المربكة التي تحيط بالأوضاع العربية . فلم تعد المطالب تركز على تغيير الصورة السياسية في المجال العثماني، بقدر ما كان التوجه نحو الاهتمام بالقضايا التي تهم الولايات العربية، وفي ذلك يمكن الإشارة إلى التطور السياسي الهام والمتمثل في الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي وإعلانها إعادة العمل بالدستور في ٢٣ تموز ١٩٠٨م، والتحول في مسار السلطة السياسية من الاستناد إلى سلطة فردية ممثّلة بالسلطان، نحو حكومة تقوم على الحقوق الدستورية[١٥]، إلا أن الأحداث كشفت عن خيبة أمل مريرة، كشفت عنها التوجهات التي اعتمدها الاتحاديون وحرصوا على تطبيقها . مما حدا بالنخبة المثقفة أن تمارس دورها في توسيع الآفاق الفكرية والعلمية لأبناء الولايات العربية، إدراكاً منها بأهمية المواجهة الحضارية مركزين على إحياء التراث العربي وتعليم اللغة العربية واعتبارها الهوية الثقافية للأمة العربية[١٦] . وبعد أن أفصح الاتحاديون عن النهج العنصري ومحاولة تذويب القوميات في الطورانية التركية، كان من الطبيعي أن تبلغ جذوة الحماس القومي مداها، لتلتف العناصر القومية من الضباط العرب حول شخص عزيز علي المصري، لتأسيس حزب العهد في ٢٨ تشرين الأول ١٩١٣م الذي أكد في منهاجه على استقلال البلاد العربية

والإبقاء على ارتباطها مركزياً مع الدولة العثمانية[17] . ولم يعد الارتباط بالدولة العثمانية، إلا مظهراً، في حين كانت اللامبالاة سمة ملازمة لأبناء الولايات العربية حول أدق الأخطار التي أحاقت بالإمبراطورية لاسيما في مجال الخسائر الحربية التي كانت تتلقاها تباعاً، في حين أن التعاطف مع الأخطار التي تهدد الولايات العربية يبرز بصورة أوسع، فحين شنت إيطاليا حربها على طرابلس الغرب عام ١٩١١م، نجد التفاعل قد بلغ أشده ممثلاً في حملات التبرع وإقامة الصلوات وتأجيج الحماس في النفوس . وهنا نجد أن الحس النقدي يأخذ مداه ويظهر بشكل واضح، فلم تعد الأنباء الحربية التي تصدرها دوائر الإعلام العثمانية تثير الاهتمام بقدر ما كانت مدعاة للمناقشة والمحاججة والتفسير الطويل والذي لا يخلو من ضعف الثقة بالأخبار ومصدرها[18] .

حرص المثقفون العرب على تحديد علاقتهم بالدولة العثمانية من خلال الدعوة اللامركزية والتي وجدوا فيها الضمانة الكافية لجعل العربية اللغة الرسمية في ولاياتهم مع الإبقاء على عنصر الشراكة والمثل بالدين الإسلامي للوقوف بوجه الأخطار والطموحات الاستعمارية[19] . وأخذت هذه الدعوة مداها في المجال السياسي، حين عمّق الاتحاديون من سياسة البطش والاضطهاد، لتبدأ مرحلة العمل المباشر والذي انبثق عنه تشكيل مجموعة من النواب العرب رفعت شعار المطالبة بحقوق العرب، فيما انضوى بعض النواب العرب في حزب الحرية والائتلاف الذي نادى بتطبيق اللامركزية في حكم الولايات العثمانية[20] .

كانت الإجراءات التي بدأها الاتحاديون حول الحياة الدستورية، وإطلاق الحريات العامة، لاسيما إفساح المجال أمام المطبوعات للتعبير بحرية، أن رسمت أمام المثقفين العرب آمالاً واسعة في إمكانية التغيير، حتى أن البعض منهم، أضحت لديهم القناعة بضرورة تبوؤ العناصر الشابة للمراكز القيادية في الدولة وعبروا عن هذا المنحى في ضرورة إقصاء السلطان عبد الحميد عن منصبه، باعتباره من مخلفات العهد القديم . إلا أن هذا الاتجاه لم يكن الوحيد الفاعل والمؤثر في الأوضاع . فإن النخبة التقليدية من الملاك والوجهاء ورجال الدين والممثلين للتيار المحافظ وقفوا بكل ثقلهم إلى جانب السلطان عبد

الحميد منددين بالأوضاع الجديدة، دامغينها بالطيش والبعد عن الشريعة الإسلامية حتى أنهم خرجوا بمظاهرة في بغداد(٢١) طالبوا فيها بالعودة إلى الإسلام وإلغاء العمل بالدستور الذي وجدوا فيه شراً من شرور أوروبا . ولم يطل الأمر بالاتحاديين حتى انغمسوا في سياسة عنصرية وجعلوا من الدستور وسيلة لإمرار رغباتهم، مما كان له الأثر البالغ في موقف المثقفين العرب من حكومة الاتحاديين حيث وجدوا في موقفها تنكراً للأهداف التي هللوا لها وساندوها . مما حدا بهم للتوجه نحو تأسيس جمعيات أدبية وعلمية تطالب بتطبيق الدستور، إلا أن واقع التجمع كان يصب في جمع كلمة المثقفين العرب حول موقف موحد من الإجراءات المتعسفة التي بالغ بها الاتحاديون، وقد استطاعت هذه الجمعيات أن تستقطب العناصر المثقفة التي تراوحت مواقفها حول تيار اللامركزية في طبيعة العلاقة السياسية مع الدولة العثمانية، فيما برز اتجاه يطالب بالعودة إلى الإسلام(٢٢).

كان التباين الواضح بين الولايات العربية في مجالات المستوى الاقتصادي والاجتماعي أهم السمات البارزة والواضحة في التأثير على الأنشطة العامة . فقد استطاعت بعض المناطق العربية الحصول على فرصة أوسع وأهم في مجال الاتصال بالثقافة ووسائلها بنشاط وفاعلية . ولنا في ذلك أن نشير إلى بلاد الشام، التي تهيأت لها فرصة الاتصال المباشر بوسائل التحديث عن طريق منافذ مختلفة ومتنوعة، ساهم تركز الحياة الاقتصادية الأكثر نشاطاً في المدن في ظهورها للعيان بصورة أسبق من المناطق الواقعة إلى الجنوب منها . فحين نعمد إلى المقارنة نجد أن الحياة المدنية في بلاد الشام، قد أخذت مداها في مجال التركز والتأثير وتمكنت من فرض بصمتها وشئونها وتأثيراتها . في حين أن العراق والجزيرة العربية، كانت تتمثل فيهما الحياة القبلية، على الرغم من وجود المدن العريقة والقديمة . وإذا ما أريد لنا الوقوف على أسباب تلك الظاهرة، فلابد أن نعرِّج على أهمية الفعاليات التي اتجه نحوها سكان المدن في بلاد الشام وانغماسهم في الحياة التجارية المستندة إلى فاعلية الاتصال بالشركات الأوروبية التي حرصت على تأسيس وكالاتها التجارية في المدن التجارية وأفسحت المجال أمام السكان المحليين للاشتغال في هذا المجال بالإضافة إلى العناية التي أولتها

الإرساليات التبشيرية والطوائف الدينية لبعض رعاياها المتواجدين في المنطقة[٢٣] . وتبقى أسبقيات الاتصال والمتاح من الفرص للتغيير إلى جانب المدن عادة، مقارنة بالحياة القبلية المستندة إلى العرف المتوارث ورسوخ التقاليد وركود العلاقات الاجتماعية، والخشية مما هو جديد والتشكيك فيه . إلا أن هذا الوصف لا يعني أن الحياة المدنية كانت تقوم على الأنموذج الأمثل، فلم تنج من تفصيلات المؤثرات التي كانت تطبع المجتمع، فالتركز البشري في الحواضر العربية الكبرى كان يخضع لاعتبارات التقارب الديني والقومي بل وحتى القبلي . وهذا التوزيع الجغرافي كان ينبثق عن الرغبة في الحصول على الأمن وهيمنة الاعتبارات التقليدية على التشكيلات الاجتماعية التي تؤلف المدن . ولم يكن هذا الأمر يخرج عن طبيعة العلاقات التي أفرزتها اتجاهات الإدارة العثمانية والإمكانات المتاحة لديها[٢٤] .

ترتبت على العلاقات الاجتماعية النازعة نحو العزلة وترتيب شئونها وفق ما تمليه عليها مصالح الطائفة أو القبيلة، علاقات غير مستقرة، اتسمت بالارتباك والفوضى وعدم الثقة حتى أن نشوب الفتن والصراعات المباشرة والتقاتل، لم يقتصر على العشائر فقط إنما كانت الصدامات بين أحياء المدن ظاهرة واسعة لا يمكن تجاوزها أو التغاضي عنها . والاتجاه نحو الصدام المباشر مع القوى المحلية المجاورة أو الفئات الاجتماعية، بقدر ما كانت الصدامات مع السلطة السياسية على صعيد صدامات العشائر العربية مع الحكومة العثمانية، أو النشاط الذي كانت تبديه النخبة المثقفة للتصدي في وجه السلطة العثمانية وكشف أساليبها المتخلفة في الإدارة وتنظيم شئون الولايات العربية . ولم تكن الصدامات تخرج عن إطار صدام الأفكار والاتجاهات والتيارات السائدة، فإذا ما كانت المواجهات تتعلق بقضايا متوارثة وصراعات تقليدية حول مشاكل راكدة لا تتغير، فإن دعوة الإصلاح والمطالبة بالحياة الدستورية، جعلت من الأفكار أحد أهم الأسباب في نشوب الصراعات، لاسيما وأن النخبة القديمة من الإقطاعيين والملاك والوجهاء وبعض رجال الدين، وجدوا في اتجاه الإصلاح والتحديث تقويضاً لنفوذهم مما دعاهم لقيادة معارضة هذا الاتجاه، بل والعمل على المواجهة المسلحة إزاء دعاة التغيير مما كان له أبلغ الأثر في مسار

الإنجازات الإصلاحية وتأخر ظهورها في الولايات العربية(٢٥) .

وإذا ما كان الحديث عن التباين في منافذ بلوغ الثقافة الحديثة والأفكار الإصلاحية إلى الولايات العربية، والاختلاف في الفرص، فإن هذا لا يعني أن الولايات الأقل حظوة في هذا المجال قد بقيت على حالة الركود والسكونية . فما حاولت فيه الدولة العثمانية في سبيل الارتقاء بجهازها الحكومي لتجاوز الأخطاء القديمة وبلوغ مستوى المرحلة الجديدة، والتي برزت آثارها في مجال نشر المدارس الحديثة وتأسيس المطابع وإصدار الصحف، كان له أبلغ الأثر في وصول الأفكار الجديدة إلى الولايات العربية في الجزيرة العربية والموسومة بالعزلة، والإجراءات المشار إليها وإن كانت بالأصل موجهة نحو الارتقاء بالجهاز الإداري العثماني، وغير مهتمة بأبناء المنطقة، إلا أنها أسهمت في تحفيز الوعي الاجتماعي والفكري، وكان لها الأثر في تحريك الدوافع، وعليه نجد صحفا قد ظهرت في الجزيرة العربية مثل؛ جريدة صنعاء الرسمية ١٨٧٩م وجريدة الحجاز ١٩٠٨م وجريدة شمس الحقيقة في مكة التي صدرت عام ١٩٠٩م وجريدة الرقيب في المدينة المنورة وجريدة الإصلاح الحجازي في جدة(٢٦) .

لم يقتصر الأمر على الصحف الصادرة في الجزيرة العربية، والتي كانت بالأصل تشكو من ضعف في قدراتها الصحفية وأدائها الكتابي، حتى أنها في أغلب الأحيان، لم ترق على مستوى لغة الكتب الرسمية المستخدمة في دواوين الحكومة، إضافة إلى ركاكة الأسلوب وضعف اللغة نتيجة لاشتغال العناصر غير المؤهلة لهذا العمل . وكانت الصحف الصادرة في مصر وبلاد الشام تصل إلى أيدي القراء في الجزيرة العربية عن طريق عدة منافذ يكاد يكون موسم الحج أهمها، ولم يقتصر الأمر على الصحف الصادرة في الولايات العربية فقط، إنما كانت تصل إلى المنطقة العديد من الصحف الصادرة في استنبول(٢٧) أو الصحف الصادرة خارج البلاد العثمانية والتي يشرف على إصدارها، المعارضون للسلطات العثمانية .

وإذا ما كانت الصحف ووسائل الثقافة الأخرى، قد لعبت دورها في إيصال الأفكار الجديدة إلى المنطقة، وكان لها الساحة والدور في تفعيل

الأفكار وتنبيه الأذهان إلى أهمية الإصلاح وضرورة التغيير، إلا أن قلة المتأثرين بها ومحدودية تأثيرهم في المجتمع، جعلت مهمتهم عسيرة إن لم نقل مستحيلة. فالمثقفون أنفسهم والمطلعون على الجديد من الأفكار والمفاهيم، لم تتوفر لديهم القناعة الراسخة فيما كانوا يطلعون ويقرأون. إذ لم يكن أمامهم سوى مجال ضيق ومحدود يمكنهم من استيعاب الأفكار[٢٨]، وإمكانية تطبيقها على أرض الواقع. حتى أن الكثير منهم، كان يرى فيها مجرد أفكار مثالية، وهذا يعود إلى هيمنة التقاليد القديمة التي كانت تفرض سطوتها بكل قوة على المجتمع. أما على صعيد العلاقات العامة بين القوى المحلية، فإن الصراعات المحتدمة بين الإمارات والقبائل، كانت تمثل المادة الرئيسية لاهتمامات وتطلعات المثقفين والأدباء لاسيما الشعراء منهم. فهم بالعادة إلى جانب أحد الفريقين المتناحرين، لاعتبارات تتعلق برابطة الدم والولاء القبلي والحصول على المكاسب المادية. وعليه طغى دورهم في مجال إقرار هذه الحالة، دون أن يبرز لهم أي دور في إيقاف النزيف اللاهب، منشغلين في وصف الحروب والوقائع التي لا تنقطع، وعليه بقي النتاج الشعري المعني بهذا المجال، يراوح في إطار التقليدية ولم يبتعد عن أسلوب القصيدة العربية الكلاسيكية مع بروز التأثيرات الدينية الواضحة والتي يضعها كل فريق كمنطلق رئيسي في الدفاع عن كيانه ووجوده[٢٩].

د. إسماعيل نوري الربيعي

الجامعة الأردنية - كلية الآداب

قسم التاريخ

عمان - الأردن

الهوامش

١ – زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، دار النهار، ط ٢؛ بيروت ١٩٧٢، ص ٤١ .

٢ – عبد الله حنا، من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان . النصف الأول من القرن العشرين، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧، ص ٢٧ .

٣ – عبد الزهرة مكطوف الجوراني، الفكر السياسي في المشرق العربي أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٤، معهد الدراسات القومية والاشتراكية في الجامعة المستنصرية، رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٩٠، ص ٨٤ .

٤ – د. إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦ – ١٩١٦، جامعة الموصل، الموصل ١٩٨٣، ص ٣٦٠ .

٥ – تركز الأدبيات المهتمة بدراسة هذه الفترة على استخدام مصطلح "الأنتلجنسيا" الذي يشمل : "الموظفون، المعلمون، القضاة، المحامون، ضباط الجيش، متعلمون" وهم يشكلون النخبة الواعية القادرة على قيادة التغيير .

٦ – توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ – ١٩١٤ معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٣ .

٧ – كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، الإسلام في القرن التاسع عشر، ترجمة د. نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت ١٩٥٠، ج ع ، ص ١٠٠ .

٨ – مجيد خدوري، الاتجاهات السياسية في العالم العربي دور الأفكار والمثل العليا في السياسة، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ٤٦ .

٩ – محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. إحسان حقي، دار النفائس، ط ٦، بيروت ١٩٨٨، ص ٥٩٣ .

١٠ – سليمان البستاني، عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق ودراسة خالد زيادة، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨، ص ٩٤، أنظر أيضاً، كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص ص ٩٠ – ٩١ .

١١ – د. محمد مخزوم، التنظيمات العثمانية محاولة فاشلة للإفلات من براثن التغلغل الأوروبي، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ٧٧ – ٧٨، آذار – نيسان ١٩٨٥، ص ١٨ .

١٢ – خالد حبيب الراوي، من تاريخ الصحافة العراقية، منشورات وزارة الثقافة والفنون – الجمهورية العراقية، بغداد١٩٧٨، ص ١٠ .

١٣ – فلاديمير لوتسكي، الحرب الوطنية التحررية في سوريا ١٩٢٥ – ١٩٢٧ صفحة مشرقة من النضال العربي ضد الإمبريالية الفرنسية، ترجمة د. محمد دياب، مراجعة د. مسعود ضاهر، دار الفارابي بيروت ١٩٨٧، ص ص ٧٠ – ٧١ .

١٤ – د. جلال يحيى ود. خالد نعيم، الوفد المصري ١٩١٩ – ١٩٥٢، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ٥٩ .

١٥ – Bernard Lewis , The Emergence of Modern Turky, London 1968, P. 207 .

١٦ – Abdul Wahab Abbas Al-Qaysi , The Impact of Modernization on Iraq . Society during the Ottoman Era : A study of Intellectual Development in Iraq,1869 - 1917, A Doctoral thesis submitted to the University of Michigan 1958, Unpublished, P. 105 .

١٧ – محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، تقديم د. غسان العطية، دار السلام، ط٢، لندن ١٩٩٠، ص ٢٥ .

١٨ – ستيفين هسلي لونكرك، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، الفجر للنشر والتوزيع، بغداد ١٩٨٨، ص ٧٩ .

١٩ – وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ – ١٩٢٠ مساهمة في دراسة أصول تكوينها التاريخي، معهد الإنماء العربي، ط ٢، بيروت ١٩٧٨، ص ١٥٣ .

٢٠ – سليمان موسى، الثورة العربية الكبرى وثائق وأسانيد، دائرة الثقافة والفنون، عمان ١٩٦٦، ص ٥٥ .

٢١ – عباس العزاوي، العراق بين احتلالين، مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد ١٩٥٦، ج ٨، ص ١٦٤ .

٢٢ – د. عبد العزيز السعدي، التكوين التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٣، بيروت١٩٨٦، ص ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

٢٣ – أمين الريحاني، قلب العراق – كتاب سياحة وسياسة وأدب وتاريخ، بيروت ١٩٣٩، ص ٤٠ .

٢٤ – جلال أحمد أمين، المشرق العربي والغرب – بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٧٦، ص ٢٧ .

٢٥ - د. سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث ١٥١٦ - ١٩١٦، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل ١٩٩١، ص ٣٥٤ .

٢٦ - أديب مروة، الصحافة العربية، بيروت ١٩٦١، ص ١٩ .

٢٧ - الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، القاهرة ١٩٤٧، ص ٦٨ .

٢٨ - زيد علي الوزير، دراسات في الشعر اليمني القديم والحديث، د.م ١٩٦٤، ص ١٣٤ .

٢٩ - من أبرز أولئك الشعراء، عبد الجليل الطباطبائي، المتوفى عام ١٨٥٣ وأحمد بن مشرف والشاعر إبن عثيمين من مواليد عام ١٨٥٣ ، أنظر حسان عطوان، ملامح الشعر الخليجي القومي في مرحلة ما قبل ظهور النفط، مجلة الدوحة "قطر" العدد ٦٢، فبراير ١٩٨١، ص ٣٨ .